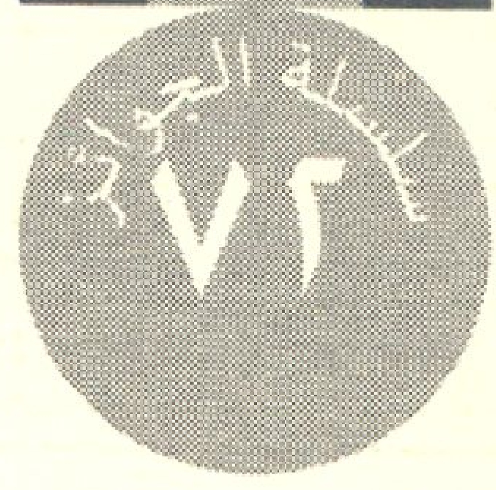
الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

مارك بروسون

المؤتمر الأخير

ترجمة: رشا عامر

الكاتب

مارك بروسون. اسمه الحقيقي باتريك إيمور Patrick Imhaus .

- روائي فرنسي، ولد في ٣٠ مايو ١٩٣٨. في مدينة نويي سيرسين بمرتفعات السين على حدود مدينة باريس.
- درس مارك بروسون وتخرج في المدرسة الوطنية للإدارة وشغل عدة مناصب دبلوماسية، لعل أشهرها منصب سفير فرنسا في السويد من عام ١٩٩٩ حتى عام ٢٠٠٣. ثم شغل مناصب مهمة مثل رئيس القناة التليفزيونية TV5 الشهيرة.
- نشر مارك بروسون خمس روايات منذ عام ١٩٩٠ هي: "ذكريات مظلة عجوز ١٩٩٠"، "عيد الميلاد ١٩٩٣"، "قرن بلا تاريخ ١٩٩٥"، "الباب الخامس ٢٠٠٤".
- حاز جائزة الأكاديمية الفرنسية عن آخر رواياته " المؤتمر الأخير" عام ٢٠٠٨.

الجائزة

جائزة الأكاديمية الفرنسية.

من أكبر الجوائز التي تمنح للرواية في فرنسا، وتقوم بمنحها الأكاديمية الفرنسية. تأسست عام ١٩١٨. تهدف إلى تتويج الروائيين الشباب الموهوبين والنابغين في فن السرد، وتعلن كل عام في نهاية شهر أكتوبر، وتكون نتيجتها محسومة سلفًا بدفع الرواية ومبدعها إلى بؤرة الضوء.

المُؤتَمَرُ الأَخِيرُ

بروسون، مارك.

المؤتمر الأخير: رواية/ تأليف: مارك بروسون؛ ترجمة: رشا عامر. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

٤٠٠ص ؛ ٢٢ سم. ـ (سلسلة جوائز)

تدمك ٤ ٦٤٢ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الإنجليزية.

أ ـ عامر، رشا (مترجم)

ب ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٦٦٥/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -642 - 4

ديوى٨٢٣

المؤتمر الأخير

مارك بروسون

رواية

ترجمة: رشا عامر

● الكتاب: المؤتمر الأخير

La Derniére Conférence

● تأليف: مارك بروسون

Marc Bressant

● ترجمة: رشار عامر

● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.

● الطبعة الأولى ٢٠١٠.

● طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

لندن السبت ٣٠ سبتمبر ١٩٨٩

فى مجموعات صغيرة بدأ مندوبو المؤتمر الأخير الإبحار إلى كارلتون. كانوا يرتدون ملابس شديدة التكلف شنقوا بها أنفسهم رغم أنهم ليسوا من الأباراتشيك(*) أو ضحايا المجاهدين، ولكنها ملابس نسجت خصيصًا من أجل الهيمنة على العالم. لا أحد معروف بالنسبة لى. أمضيت وقتى كله للأسف فى التعرف على هذه الثآليل التى تعلو الرقاب الماثلة أمامى.

فالكوميديا ستستمر لشهرين! شهران فى مواجهة الشيطان المحبوس معنا! لقد أصبح أكثر حضورًا منذ أن انتحل شخصية جورباتشوف. لن تكون جهنم أكثر جهنمية بما أن لندن هى مدينة يتدبر فيها البعض أمره من أجل البقاء كما يقولون. بشكل عام ما

(*) الأباراتشيك: هى كلمة مشتقة من الروسية ومعناها «جهاز» تستخدم لوصف الاتحاد السوفيتي والديمقراطيات الكبرى فى الحكومة أو الحزب الشيوعى . يقصد به أيضًا النشطاء السياسيون. (المترجمة).

قالوه لى فى باريس عندما أبلغونى بترأسى للوفد الفرنسى هو إننى محظوظ.

لأن المؤتمر كان من الممكن أن يعقد فى كييف فى عهد بريجينيف[1] حيث تصل درجة الحرارة إلى ٣٠ درجة مئوية فى الظل.

بالطبع لم يول أحد أدنى اهتمام بهذه التفصيلة الصغيرة: منذ دخولى إلى مبنى الخارجية طالما رفضت الاهتمام بالحكايات الأوروبية، لم يأت اختيارى لآسيا كراع للمؤتمر من فراغ، ولكن لكى لا أشعر باختفائى بطريقة مباشرة، وبالتالى أصبح مذعورًا من الوضع المحيط.

ها هى أوروبا كوكبى ومسقط رأسى انقسمت إلى جزءين. وضع مقيت بسبب ظلم لا يوصف للشعوب التى سقطت فى الفخ.

يبقى أن توازن الرعب[2] يقتضى أن تظل الأسلاك الشائكة التى تفرقنا مغروسة لفترة أخرى.

منذ بضعة أشهر أكد حاكم ألمانيا الشرقية الذى لا مثيل له قائلا: "سيظل حائط برلين قائمًا هنا طوال

(١) بريجينيف : كان الرئيس الفعلى للاتحاد السوفيتى بين عامى ١٩٦٤م ـ ١٩٨٢م، ولكن فى الفترة الأولى كان يشارك السلطة آخرون. كان الأمين العام للحزب الشيوعى السوفيتى بين عامى ١٩٦٤و ١٩٨٢، وكان رئيسًا لمجلس السوفييت الأعلى (رئيس الدولة) مرتين، بين العامين ١٩٦٠و ١٩٦٤م وبين العامين ١٩٧٧م ١٩٨٧م. ترأس الاتحاد كخليفة لـ «خورشوف» (المترجمة).

(٢) توازن الرعب ـ مصطلح يطلق على السلام القائم بين الأمم على أساس الخوف المتبادل من الأسلحة النووية. (المترجمة).

الخمسين أو المائة عام القادمة."بريسترويكا(*)" أم لا.
يالطا هى أيضًا من المسلمات التى لا يمكن تجاهلها
مثل استدارة الأرض. على الآخرين إذًا أن يتابعوا
المؤتمرات الشرقية الغربية التى لا تنتهى والتقدم
الطفيف جدًا الذى يوهمهم بعظمة سنوات ريادتهم!
إن فقدان الأمل شىء مترسخ داخلنا كى لا نضيف
شيئًا جديدًا.

(*) "البريسترويكا" المقصود بها هى الإصلاحات السياسية والاقتصادية التى بدأ العمل بها فى يونيو ١٩٨٧ من قبل الزعيم السوفيتى ميخائيل جورباتشوف. معناها الحرفى هو "إعادة الهيكلة"، فى إشارة إلى إعادة هيكلة الاقتصاد السوفيتى وتحويله من نظام اشتراكى إلى نظام رأسمالى. وقد كان ذلك هو أحد أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى بعد سقوط القوى السياسية الشيوعية فيه وفى أوروبا الشرقية وبالتالى نهاية الحرب الباردة (المترجمة).

أكتوبر

الأحد ١ أكتوبر ١٩٨٩

المؤتمر الأوروبى للإعلام! اللافتات مثبتة الآن فى كل مكان بالفندق. وكما هى العادة فإن الأعضاء الدائمين متواجدون فى كل مكان. ويقفون - بلا حراك - أمام المصاعد لتوزيع البيان التمهيدى مصحوبًا بابتسامة. سيظل هذا الفخ لمدة شهرين! قلما أشعر بهذا الغضب. لم أكن غالبًا أتحمل تأكيد سكرتير عام الوزارة بثقة عمياء أن جهلى بالشئون الأوروبية وقصور معرفتى فى المجال الإعلامى ليسا عقبة! لكن مرشدى والذى كان صديقى فى الأصل قد شرح لى ضاحكًا أن أحد أسلافى فى أحد هذه المؤتمرات خضع لتنازلات غير مقبولة من شدة المسائل المتناوض بشأنها.

إن الوقاحة التى صاحبت هذه المسألة توضح الأهمية الكبرى التى نوليها لهذه اللقاءات التى تتم بصيغة واضحة مع المعسكر السوفيتى! إنها تكشف بشكل تدريجى عن الملاحظات التى يحملونها لى.

اعتقد الوزير بدوره أنه لابد من استقبالى لإبلاغى القرار.. ستكون كارثة بالنسبة لى حد تعبيره أن أكون مجبرًا على ترك مسئولية الملف الآسيوى. حيًّا الوزير جدارتى فى هذا الموقع بلا خجل كما أثنى على نجاحى الباهر فى الجانب الآخر من العالم محتفيًا بإجادتى التامة لليابانية والصينية رغم أنهما ثنائى صعب كما قلت له وقتها.

لعبت الصدفة الجميلة دورها فى أن يوافق مساعده "أمبريو" على أن يحل محلى، حيث أتيحت له الفرصة جديًا لتقدير المواهب وسرعان ما ألم بـ"قارة" لعبت المصادفة فيها دورًا ضئيلاً لكى تقودها إلى هنا. أضاف الوزير قائلا:"إذا سارت الأمور على ما يرام فى لندن فإنه ليس من المستبعد ترشيحك كسفير فى طوكيو عندما يصبح المكان شاغرًا فى الربيع القادم. أعلم أنك تتمناه بشدة من ناحية أخرى فإن الحقيقة توجب على أن أقول لك إنه يوجد مرشحون آخرون أقل منك استعدادًا بلا شك، ولكن من الناحية الاستراتيجية هم فى وضع أفضل. اطمئن عزيزى السفير كل شىء واضح وأنت خير من يعلم أن الأسوأ ليس دائمًا هو الشىء المؤكد.

اليابان. أحلام طفولتى فى منزل أسرتى أحلامى التى يتصدرها الساموراى والكيمونو وكل ما هو قديم. هذه الأشياء التى تعود إلى أجيال قديمة منذ الجد الأول وانتقلت من ذرية ارتدت على عاقبيها صوب الأرض. مبعوث أو طيار أو دبلوماسى تلك هى

المهن الثلاث التى كانت فى مخيلتى إبان مراهقتى فهذه المهن هى التى ستفتح لى أبواب بلاد الشمس المشرقة، ولأنه لا يوجد هناك إيمان بالله أو بأى شىء آخر فسرعان ما وقع عليها اختيارى.

لم أندم ولو لمرة واحدة على هذا الاختيار. كانت السعادة هى شعورى الدائم أثناء انتظارى. إنها بالفعل أرض أحلامى. إنها الهواء الذى أتنفسه. وأنا أركض بين أشجار الغابات. ألعاب الظل فى أعماق المنازل أصوات الحشرات فى الصباح الباكر... والذين كانوا يتدخلون فى حياتى هناك قاموا بإزالة كل الحواجز أكثر من أى وقت مضى كما لو أن بعضًا من الجميلات النائمات قد تبخرن فى المساء تاركين لى طعمًا مميزًا فى فمى. ظاهريًا وجدت وزارة الخارجية لها فائدة بوصفها جزءًا ساحرًا بعد كل هذه القصة. وبالنظر إلى شهادات رؤسائى المتعاقبين على طريقتى فى الأداء فى هذه المنطقة ها هى اللحظة التى يقترب فيها تأثيرى النهائى فى هذا البلد ولكن ها هم جاهزون لردم طريقى مع أنها بالنسبة لى آخر فرصة قبل أن يعيقنى السن. كوننا نستطيع أن نفكر فى تعيين هذا الـ"جراندين" فى طوكيو معناه أن الميزة المتبقية هى تولى منصب المستشار الدبلوماسى لرئيس الجمهورية! وعندما قاومت ذلك أبعدونى إلى لندن لتدبير مؤامرة قذرة، ولكننى لن أتركهم يفعلون ذلك فمنذ أن كان عمرى ١٢ عامًا وأنا أعد نفسى لهذا المنصب. هناك يقين واحد على الأقل وهو أن وجودى

فى هذا المؤتمر الملعون سيكون بلا أى تأثير على القضية. اللهم إلا إذا وجهت فجأة صفعتين للسيدة مارجريت تاتشر(*) إذا كانت هى التى ستفتتح مؤتمرنا كما تقول الصحافة.

(*) مارجريت تاتشر هى رئيسة الوزراء البريطانية فى الفترة من ١٩٧٩م حتى ١٩٩٠ م، ولُقبت بالمرأة الحديدية. (المؤلف).

الإثنين ٢ أكتوبر ١٩٨٩

رحلة صباحية طويلة ومغلفة بالغموض بمحاذاة نهر التايمز(*). أثناء العودة كانت دائرة المفاوضات قد أخذت أبعادًا سحيقة. فى البهو كانت الكائنات تتحرك بالكاد فى انتظار لقاء معقد، بداية قامت بعض المجموعات الصغيرة بعمل حركات لتشجيع نفسها. بدا الأمر وكأنهم تلاميذ عادوا مرة أخرى إلى المدرسة. لحسن الحظ كان الويسكى فى البار يعطى الشجاعة لمن يبتغيها.

فجأة ومع بداية فترة ما بعد الظهيرة كانت هناك مقابلة غير متوقعة مع كارلوس. كان يجب على رئيس الوفد الإسبانى الذى أصيب لا أعلم بأى التهاب كبدى وبائى إمعانًا فى الكارثة أن يتبعوه

(*) نهر التايمز هو نهر يقع فى جنوب إنجلترا ينبع من منطقة كيمبل و يمر بمدن بريطانية عديدة قبل أن يصب فى بحر الشمال. يستخدم نهر التايمز كوسيلة نقل مائية و خصوصًا فى لندن؛ حيث تقوم سفن وقوارب بجولات سياحية لتمر بوسط المدينة من خلاله (المترجمة).

بالنفتالين حيث يجلس دون أمل فى انتظار المنصب الأخير.

هو أيضًا كان منزعجًا من تصور أن هناك شخصًا ما لديه هذه الرغبة السخيفة فى إرسالى إلى هذا المؤتمر.

كانت حيويته وخفته هى الشىء الملاحظ فجأة أمام المصاعد عندما تعانقنا بشكل حميمى؛ حيث أعطانى شعوراً بالسعادة فلقد أصبح لى صديق داخل المكان!

تناولنا العشاء فى مطعم "سوهو" وهو أول مطعم أنشئ هنا. لم نلتقِ طوال ثلاث سنوات. كان قلقى الدائم هو أن يتم الاستغناء عنى فجأة أما كارلوس فقد فقد عقله من قبلى. لم تتطور لغته الفرنسية منذ أن كنا ندرس اللغات الشرقية فى باريس. كشف حديثى معه عن فساد أقل من الذى كنت أخشاه.

كنا نتبادل أخبارنا الخاصة تلغرافيا. كانت زوجته امرأة أكثر من رائعة، وكان لديهما خمسة أطفال ورثوا جميعًا هذا اللمعان وتلك العبقرية التى تفتح لهم جميع الطرق. ذكرنى ـ كالعادة ـ بمسألة رفضى لأى ارتباط أسرى مؤكدًا أنه لا يستوعبها قائلا: "إذا كانت لديك مشكلات مع النساء..." كان حزينًا على حالى. فور أن شعر بانزعاجى توقف فورًا عن الكلام والشىء الذى جعلنى أسامحه على تطفله بغير وجه حق هى تلك الضحكة الرنانة التى أطلقها.

سارت المحادثات سريعًا فى هذا المؤتمر رغم فشلنا فيه رغمًا عنا. اشتركنا جميعًا فى تحليل النتائج وحسمها قدر الإمكان، وتوصلنا إلى أنه بافتراض أن جورباتشوف يأمل بحق فى تغيير أى شىء فى أوروبا فإنه لم يعين الأشخاص المؤهلين لتمرير رغباته فى مؤتمر كهذا. يكفى رؤية ما يتكون منه الوفد السوفيتى لقد كانوا جميعًا من الأباراتشيك القدامى الذين يكررون الكلام نفسه دائمًا.

على هذا النحو أعدنا إخراج البرقيات المتبادلة بيننا رغم أن الدول الشقيقة لا تفعل ذلك. لقد رضخوا جميعًا الشهر الماضى بعد تكوين حكومة متعددة الأحزاب فى وارسو، بالطبع كانت بولونيا تشكل حالة خاصة بنقاباتها السرية وكهنتها وبابا كنيستها، ولكن فى الوقت نفسه كان الباقون لهم تبايناتهم. ربما قلة قليلة منهم ولكنهم فاسدون. كان مجرد تصور أن القرارات الموقوفة من قبل مؤتمرنا من الممكن أن تعطى ولو فرصة صغيرة لأعداء الاشتراكية للقيام بالمظاهرات كان شيئًا غير مقبول نهائيا بالنسبة لهم. باختصار سنضيع شهرين من عمرنا أو أكثر على ـ حد قول كارلوس ـ فى واحد من هذه الممارسات الشرقية الغربية المغرقة فى التكلف. كنا نشعر بحزن شديد حينما دخلنا إلى الفندق، ولكن فى البهو وقبل أن نفترق رأينا أن نفعل ما نستطيعه لإضفاء قليل من الحيوية على الأعمال الكئيبة التى تنتظرنا مثلما كنا نفعل أثناء تعلم اللغات الشرقية عندما كانت البلاهة تتعدى الفهم.

الثلاثاء ٣ أكتوبر ١٩٨٩

على بعد دقيقتين سيرًا على الأقدام من الفندق الذى نقطن فيه يوجد مركز مؤتمرات إليزابيث الثانية، وهو مركز شديد الفخامة افتتحته السيدة مارجريت تاتشر بنفسها الشهر الماضى ورغم ذلك فلم يكن قد بدأ العمل فيه بعد، فالتكييف لم يتم تركيبه ومركز التليفونات غير مضبوط وكذلك باقى الأشياء. فى المقابل فإنه كل عشرة أمتار تستطيع أن تتحقق من أن الكلمات المكتوبة بالإنجليزية مثل " مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا" تحمل الترجمة الفرنسية نفسها. بينما رمز اتحاد " سى إس سى إى(*) هو الذى يمثل المعجزة.

لم أستطع أن أقاوم رغبتى فى دفع أحد أبواب هذا البناء نصف الدائرى، حيث يجتمع وفدنا. ورغم

(*) انشئ هذا الاتحاد بناء على اتفاقية هلسنكى عام ١٩٧٤م، وذلك بهدف تشجيع الحوار والتعاون بين الشرق والغرب، فالمنظمة كانت تجمع كل الدول الأوروبية، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. (المؤلف).

أن ما فعلته غير لائق مهنيًا، إلا أنه مغتفر وكل الممارسين للمهنة يعرفون ذلك. عادة ما يحدث تنظيم القاعات تأثيرًا شديدًا على سير الاجتماعات المنعقدة فيها، فالقاعة التى كنا سنعقد فيها الجلسة كانت على شكل مركب كما لو كانوا يريدون أن يقولوا للمجتمعين فيها إن قراراتهم يجب أن تقودهم إلى جهة ما.

ليس المهم أية جهة هى فليست تلك هى القضية ولكن القضية أن تكون جهة ما.

الباخرة التى هى فى الأصل قاعة اجتماعات كانت بيضاء رائعة، كانت حوائطها مزودة بأنواع من خراطيم التهوية كأداة لاستكمال هذه الفكرة الوهمية. على المناضد ولكن بعيدًا وفى الظل كانت اللافتة التى تحمل اسم فرنسا تبدو أنها ترحب بى كما يجب. كان من المستحيل الوصول إلى هذه النقطة دون أن أتذكر المرة الأولى التى عبرت فيها أبواب هذا المبنى نصف الدائرى فى الولايات المتحدة فى نيويورك حينما كنت أتتبع معلمى الأول رانكور، والذى توقف فجأة واستدار ونظر إلىَّ مليًا وجهًا لوجه قبل أن تسقط منه هذه الكلمات:

"فى اللحظة التى ستدخل فيها قدس الأقداس ياتروملين أكتب ذلك من أجل البقية الباقية فى عملك. نم دائمًا بعين واحدة، ولكن على الجانب الآخر اكسر الملل وارصد دائما مواطن ضعف الرفقاء. ارصد كذلك طريقة تناولهم وتعبيرات وجههم وابتساماتهم المتشنجة وفى أحد الأيام أو بعد عشرين عامًا فإن

هذه الملاحظات البسيطة والحميمية التى عرفتها عن منافسيك هى التى ستصنع الفرق، وهى التى ستسمح لك بإنهاء النقاش بنفسك" ثم حدق فى وجهى بصرامة ثم استأنف قائلاً:

"لأن هدف اللعبة هو هذا. أن تكون الأخير فى إعطاء مفتاحك للآخرين لعلك فهمت ما أريده. أنت كما توقعت عرافًا."

لم تكن قد مضت سوى عدة أسابيع على معرفتى بـ"رانكور" بشكل عام. كان هو أكثر الدبلوماسيين بريقًا ضمن جيله فرغم أننا نحن الذين أجرينا عملية تكامل فى الخارجية، إلا أن مهمته كمدير للمنظمات الدولية كانت تبدو أكثر هيبة. واليوم لا أعرف نهائيًا وأنا أقص ذلك هل كان ببساطة يستهزئ بشاب غر يبلغ من العمر ٢٥ عامًا هو أنا. أتذكر أنه أنهى غايته عن طريق إرسال واحدة من ضحكاته القصيرة الحادة التى كان يطلقها والتى تشبه سوط مروض الوحوش. مهارته هى التى جعلته يحصل على ما لا نهاية له من الفوائد والتى استخدمها حتى اليوم رغم بلوغه الثمانين أو ما يقارب فى خلخلة القبضة المتبقية للمفاوضين. ثلاث دقائق فى البهو كانت هى مدة المحادثات مع شوستر سكرتير عام المنظمة بفضل مواهبه فى المناورة كان يحب أن يكون لدينا اليوم أيضًا مؤتمر للأمن والتعاون فى أوروبا لايعانى من حالة الموت السريرى كان شوستر ضئيل الحجم ومجادلاً ولكن أوروبى أكثر من اللازم، كان

يجرى هنا وهناك للإشراف على كل التفاصيل الصغيرة قبيل الافتتاح. لم يكن لزامًا مراقبته طويلاً لإدراك أن هذه الابتسامة التى رسمها على شفتيه والمقاسة بالمليمتر كانت من أجل إظهار المزيد من الاهتمام بكل دولة وبكل شخص داخل وفدها. من جانبه أعطانى الحق فى اللعبة الكبرى. الدور الجوهرى لفرنسا فى حوار الجانب الأوروبى والصفات الاستثنائية للرئيس ميتران إضافة إلى بعض الهدايا، ثم أهدانى أحد التكهنات قائلا: ـ

" المعلومات شىء غاية فى الحساسية بلا شك ولكن سترى أنه رغم كل الصعوبات فإن المؤتمر سينتهى وبحوزتنا بعض النتائج الملموسة التى قد تبدو لك صغيرة ومع ذلك فى النهاية فإن الإنجازات المتحققة تكشف نقطة انطلاق الخطوات الجديدة القادمة وهكذا دواليك. إنها نظرية كرة الثلج، فالمنظمة تتحرك على هذا الأساس منذ بدايات هلسنكى أى منذ قرابة الخمسة عشر عامًا."

كان الحمقى من نوعية المقيمين الآن فى المبنى نصف الدائرى ينتظرون وصول آخر مالطى إلى مكانه. من جهتها فإن مارجريت تاتشر التى كانت تتولى دومًا افتتاح أعمالنا قد تأخرت بسبب قهرى لا أعرفه، باختصار كان شيئًا يدعو للتفاؤل منذ بداية المؤتمر!.

زيادة فى سخطى لم يكف "لورو" المختص الأوحد فى مؤتمر السلم والتعاون الأوروبى فى

المقاطعة عن عبور القاعة بخطى واسعة وبهيئة منهكة. يبدو ككائن صغير فقد ريشه مبكرًا فى حين أنه يحاول إظهار الجدية على وجهه فى الحل والترحال لدرجة أثارت أعصابى. فجأة بدت كلمات التكلف وكأنها اشتقت خصيصًا له، من حين لآخر كان يهمس لى بمعلومة ما فى أذنى لا تفيدنى بشىء. ينتهى الأمر بإبعاده بطريقة سخيفة ومذلة. قالت لى "كلودين" فى محاولة منها لتهدئة الأجواء:

"يبدو هذا الـ"لورو" صبيًا وفيًا بحق، وهو أحمق ومستفز أحيانًا، ولكنه فى حاجة دائمًا لأن يكون نافعًا وهو بالفعل كذلك. اتصدق أنه يحفظ عن ظهر قلب خفايا أنشطة هذه المؤتمرات التى يتابعها من أيام هلسنكى."

كانت كلودين هى متعتى الوحيدة طوال اليوم لم أكن أفعل شيئًا سوى أننى أقابلها فى أروقة وزارة الخارجية الفرنسية فصميم عملها هو شئون أوروبا الشرقية التى لم أطأها بقدمى أبدًا. ومع دخول اللعبة بدأت أشعر أننى وجه آخر من وجوهها. كونها مساعدًا لى كان هدية من الآلهة، كانت تتكلم الروسية مثل أهلها ولكن لم يكن لها قيمة كبيرة بما أنها ولدت فى أسرة من المهاجرين البيض. عملت منذ دخولها وزارة الخارجية الفرنسية فى دراسة الخطب والأعمال السياسية الخاصة بسادة الكرملين السوفييت. وكانت تعرف كل أمور بعثات الدول الاشتراكية بحذافيرها. ليس فقط من هو من؟ ومن يفعل ماذا؟ ولكن كما قالت هى بصوتها الناعم من يكره من ومن أصبح من.

لفتت نظرى - أثناء انتظارنا الذى لا ينتهى - إلى شاب أبيض ذى وجه نحيل من الوفد السوفيتى اختفى نصفه وراء رئيسه عريض المنكبين "جريجورى أخمانوف" لم يكن هذا "الفيكتور مالفتيش" على القائمة الرئيسية للوفد ووفق معلوماتنا فإن حاشية جورباتشوف هى التى وضعته فى الدقيقة الأخيرة من أجل تحريك الأوضاع السوفيتية! لأن "جريجورى" لم يكن رجلا من البريسترويكا. أصابتنى "كلودين" بالقلق عندما أضافت أنه أيضًا أحد أسوأ ممثلى النظام. فهو وغد بريجنيفى شارك فى كل المبادرات الملتوية لبلاده منذ ثلاثين عامًا وآخر خدماته البارزة كانت فى أفغانستان فلقد كان سفيرًا فى لحظة الغزو السوفيتى نفسها، ولم يستطع أن يخفف قليلا من هذا المصير الدموى.

ارتأت "كلودين" أنه من المفيد لى أن تعطينى معلومات مختصرة عن الرومانيين المتراصين خلف لافتاتهم لقد كانوا هم المعرقلين للالتفاف حول مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا. فهم خصوم لُد لبريسترويكة جورباتشوف. كانوا يفعلون المستحيل كل مرة لسد منافذ الاتفاقات الصغيرة التى يتوصل إليها المفكرون. وهو عمل بسيط جداً طالما أن القرارات لا يتم اتخاذها إلا بالإجماع!.

استطاع رئيس الوفد "توفاريتش نيات،"والذى كبح جماح هذا العدد الكبير الذى يتهادى أمامنا أن يكون

الشخص الكفء فهو نظير "مولوتوف"(١) مندوب الأمم المتحدة. كان مسيطرًا على وفده باستثناء أن ميلسكو كان يعبر عن رفضه الدائم بالفرنسية لدرجة أن اسمه فى مؤتمر أوروبا للأمن أصبح السيد "لا".

فى البهو لم تكن هناك وجوه مألوفة مثل الفندق فيما عدا التشيكى بات كاليجان الذى كنا قد تلاقينا فى طوكيو منذ قرابة عشرين عاماً. بوجهه الأشقر الذى ازداد حمرة كان يرتدى دائمًا رابطة العنق نفسها ذات اللون الأخضر الزرعى، والتى تعكس لون أراضى بلاده الأيرلندية المطرة. كنا معًا فى بكين أثناء الثورة الثقافية وقد أشرفنا على حفل اليوبيل الهزيل الذى أمكن إقامته والذى أسميناه "عمل الأربعمائة وردة.(٢)"

(١) مولوتوف: قائد سوفيتى كان من أبرز معاونى ستالين امتد نشاطه السياسى منذ بداية الثورة البلشفية حتى عام ١٩٥٧م .عمل كذلك فى السلك الدبلوماسى كوزير خارجية ، و كان رئيسًا للحكومة السوفيتية منذ عام ١٩٣٧ ـ ١٩٤١م حيث استطاع أن يسيطر على الأوضاع الداخلية المتردية بقيامه بتعديل الدستور السوفيتى الذى سمى أخيراً بتعديل مولوتوف، و بموجب هذا التعديل تمتعت الجمهوريات المكونة للاتحاد السوفيتى بحق التمثيل الخارجى وعقد المعاهدات الدولية و إرسال البعثات الدبلوماسية إلى الخارج و العضوية فى المنظمات الدولية أيضًا (المترجمة).

(٢) عمل الأربعمائة وردة نسبة إلى سياسة الزعيم الصينى ماو والمسماة بحملة المائة وردة والتى كان يهدف من ورائها استعادة سيطرته التى ضعفت على الحزب وتقوية العلاقات بين الأحزاب الاشتراكية والشعب وذلك بدعوتهم إلى القيام بتصحيح الحملة بإعطاء بعض حرية التعبير للشعب وبخاصة المثقفين لانتقاد الحزب رغبة منه ظاهريا فى تحسين صورته وإن كان الهدف هو إضعاف خصومه واستعادة بعض نفوذه على رفاقه. (المترجمة).

ها نحن ـ الآن ـ محبوسون جميعًا هنا حتى منتصف ديسمبر، إنها نهاية تدعونا للتعارك من أجل قليل من الراحة.

كانت رئيسة الوزراء ترغب فى إقامة المؤتمر فى مركز المؤتمرات الواقع بين داوننج ستريت والبرلمان لكى تشبع صدى الأنا لديها. على بعد خطوتين من هنا كانت تنسج لوحتها التى لا تنتهى كما عهدناها. لم تقل أبدًا إن السياسة الكبرى تثير اهتمامها رغم أنها قامت بنفسها بإعطاء ضربة البداية الرسمية. لم يكن ذلك بالطبع من أجل سواد عيوننا كما قال لى "تيد جاريسون" الرجل الثانى فى الوفد البريطانى الذى تصورت أنه سيؤكد على رئاسته الفعلية للمؤتمر ولكنها من جانبها كانت تفطن لمغزى البريسترويكا وتعرف كيف تحولها لمصلحتها، كان "تيد" لا يحبها وكذلك لم ينخدع ببنيتها الضخمة تمامًا مثل الآخرين.

أخيرًا عزمت على الدخول بروحها المتفانية ولكنها كانت مسبوقة بالسير إليه ومن أجل تعذيب مسئولى الشئون الخارجية عهدت إليه برئاسة الوفد البريطانى. أعطتنا الحق جميعًا فى أن نناديها بـ"ماجى" فى جمل متفق عليها كنا ننتظر سماعها من هذا الصوت الحقير الذى نستحقه.

بعد الافتتاح أهدت مارجريت تاتشر كأسًا لكل رؤساء الوفود إذ كانت الفرصة بالنسبة لها أن تحظى بمحادثة جانبية طويلة مع السوفييت. فقد كان جورباتشوف هو رئيس الدولة الوحيد الذى أثر فيها فى هذه اللحظة. بالطبع قامت بدعم محدثها مادحة

إياه دون أن تدرى أنه يكرهها بكل ذرة فى جسده ومن باب عدم التفرقة أخذت تثرثر لفترة متساوية مع الأمريكيين. أدركت سريعًا أن المسكين "هارى ماركس" وهو رجل أعمال صديق للرئيس السابق كما يقدمه أعضاء الوفد لم يكن لديه مسألة أخرى يناقشها سوى وضع صناعة الأدوية الأمريكية. هذا القطاع الذى جمع منه ثروته.

ثلاث دقائق فقط حظيت بها أنا عندما جاء الدور علىَّ قبل ممثل بون لألتقيها وجهًا لوجه. وكان ذلك على حساب المعطيات الجيوسياسية فى الوقت الراهن، فيما يخصنى قالت لى: "أبلغ سلامى الحار لصديقى ميشيل(*)." فى ظروف أفضل بالطبع سأبلغ الشخص المقصود بهذا الاهتمام الذى أخذ طابعًا سياسيًا وخرج من فم قلما يفخم أحدًا.

لم يحظ رفاقنا الآخرون سوى بالفتات باستثناء زورخر.

هذا السويسرى الطويل الذى يشبه عصا تسلق الجبال، والذى قادته إلى أحد الأركان، حيث كان حوارهما نشطًا جدًا لدرجة أنها بدت كمن انبهرت بمحدثها وأمام نظراتنا المتطلعة كافأته بواحدة من ابتساماتها البراقة والتى تحتفظ بها لمجموعة من المقربين.

(*) ميشيل: هو ميشيل روكار رئيس وزراء فرنسا من عام ١٩٨٨م وحتى عام ١٩٩١ م أثناء الفترة الثانية من حكم الرئيس ميتران. (المؤلف).

1

الأربعاء ٤ أكتوبر ١٩٨٩

عندما بلغت مكانى هذا الصباح قبل موعد البدء بخمس دقائق كان عضوا الوفد الألمانى هما الشخصين الوحيدين اللذين جلسا فى مكانهما. كانت المنافسة إجبارية، فالوفد الرومانى أيضا تبوأ مكانه وكانت كلاب حراسته مستعدة لنهش المقاعد الستة المخصصة لكل دولة مشتركة. الوفد السوفيتى أيضًا كان حاضرًا ولكن هذه المرة دون أن يكون ملتصقًا بالممثل الشخصى لجورباتشوف ولذلك فإن أعضاءه ـ بلاشك ـ كانوا أقل عبوسًا من أمس.

وصل السير "أليك" الكلب الكنيش" للسيدة تاتشر متأخرًا وترأس الجلسة بشكل أسوأ مما كنا نتخيل فقد كان فظًا قليل الخبرة قضى وقتًا طويلاً على رأس مجموعة من الصحفيين، الذين يطعنون فى العاملين بالسلطة يعتبر سير أليك صديقًا حميمًا لمارجريت تاتشر فهى التى أدخلته مجلس اللوردات وهى أيضًا التى فرضته على رأس الوفد البريطانى

فى مؤتمرنا رغم الاعتراضات الصارخة التى أحدثها تعيينه فى مجلس العموم وفى الأوساط الصحفية.

حاول تغليف غطرسته وثقته الزائدة بشكل لطيف فهو يعلم كل شىء ويحسم كل شىء إلا أمام المرأة الحديدية إذ كان يتحول إلى ولد صغير مصاب بالحمى. كان مسئولو الشئون الخارجية يكرهونه بكل تأكيد. وأولهم "وتيد جاريسون" الذى عين حديثًا كسفير لوارسو، ثم تم إبعاده ليشغل منصب المساعد رغم أنه شخص محافظ جدًا وعضو قديم بأكسفورد ولكن أخذ على حين غرة على يد محدث النعمة هذا.

مرة أخرى هذا الشيكوسلوفاكى "فاسيك" الذى التقيته فى طوكيو مئات المرات، حيث كنا نتصافح بالأيدى فى الأعياد الوطنية والاحتفالات الرسمية ولكن لم يحدث بيننا أبدًا أى نوع من أنواع الحوار الذى يستحق أن يسمى محادثة حدث كل شىء فى لندن. مصافحة حارة بالأيدى ثم لاشىء، لقد تقدم فى العمر مثلى وفقد شعره، وارتدى نظارة ولكن كل ذلك لم يكن كافيًا لكى نقترب من بعضنا البعض يا للهول: كنت أتمنى قبل وفاتى أن أعرف كيفية عمل جمجمة الأشخاص الاشتراكيين.

دعوت الوفد الفرنسى إلى العشاء مع الماكرة "كلودين" و"لورو" الذى يشبه الدمية الصلعاء، ولكن انضم إلى مجلسنا ثلاثة إعلاميين متخصصين شرحوا لى ضرورة وجود تجديد فى نشاط مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى، لقد أرادوا أن يستعرضوا

معى مخاوفهم من كونهم واقعيين أكثر منهم مؤثرين فالدول الأعضاء قد اتفقت على دمج ممثلى المجتمع المدنى فى قلب الوفود الدولية، كان ينقصنا فى عشاء هذه الليلة شخص رابع من المجموعة التى ساعدتنا أنه "بيير لات" الذى سيصبح أحد موجهى الصحافة اليومية الفرنسية كان معروفًا؛ لأنه يسجل كل شىء فى كل مكان دون أن يكلف نفسه عناء الوجود، لقد توسلت لكل واحد منهم أن يقول مشكلاته، كوجيلمان فقط هو الذى حكى أشياء مهمة كان قويًا له عظام بارزة، وكان يعمل فى "آخر أنباء الألزاس" وكان أحد المنتخبين فى نقابة صحفيين لا أعرفها، كان يساريًا بمعنى الكلمة وكانت هذه المعلومة واحدة من أندر المعلومات القوية التى زودونى بها باريس، وكانت مصحوبة بابتسامات لابد منها. فى غضون عشر دقائق شرح لى بواطن الأمور والمصاعب الملموسة التى تواجه المتخصصين الذين يشغلون مناصب فى بلاد الشرق عند إجراء تحقيقات صحفية معهم. إنها مصاعب لا نعرف معها كيف سيمكن لمؤتمرنا الحزين أن يحقق نتائج، ولكنه استطرد قائلا: "ما عدا على الهامش فعلى أرض الواقع يستطيع الهامش أن يصنع كل الاختلاف"

سقطت بعض الكلمات من فم "كلودين" التى لم تكن قد تكلمت منذ بداية السهرة، ثم أضافت بصوت هامس:

"كما فى الحياة فى بعض الحالات".

الخميس ٥ أكتوبر ١٩٨٩

لم تثر الكلمة الافتتاحية التى ألقيتها فى الجلسة هذا الصباح حماس الحضور، فلقد كان حضورى ضعيفًا بناءً على تعليمات زعماء الوفود ولم يكن من اللائق أن أخدعهم.

قام "لورو" بتوزيع خطبتى مقدما وذلك فى معرض بحثه الدائم عن الكمال. لم أستطع أن أمنع نفسى من إضافة بعض العبارات فى نهاية النص الذى كان قد تم توزيعه. كانت المعلومات المهولة التى قالتها لى "كلودين" عن أقراننا الرومان تعد بالنسبة لى رموزًا للنفاق الذى نحن مجبرون على إظهاره. كنت قد اشتريت من أول مكتبة قابلتنى كتاب أقوال من العالم. لم يظهر الرومان فى أية نقاشات حادة ولكن كانت لهم فى الوقت نفسه ذرائعهم التى يستعيضون بها عن ذلك. لقد نصحت بهدوء أعضاء مؤتمرنا بالوجود تحت مظلة الحماية الرومانية بالطبع جاءت إشارتى هذه كممثل للوفد الفرنسى مفاجأة ذلك أنها جاءت

فى الوقت الذى يهرع فيه العالم كله سواء كان اشتراكيًا أم غير ذلك إلى إخراس أية محادثات منفردة. أخذت الوقت الكافى لكى أرفع حاجبىَّ قبل أن أنتقد قائلا: "إن الأشياء ليست صعبة ولكن الصعب هو أن نبدأ فى عملها". ومن أجل أن يتأثر الجميع بهذه الكلمات كررت مرة أخرى: "أن نبدأ فى عملها" شرحت بعدها قائلا إن الشخص الرومانى الذى نحن بصدد ذكر اسمه هو "برانكوزى(*)" وهو أكثر النحاتين حرية فى عصره. لقد نذرت أن يرافقنا هذا الأوروبى العجوز على مدار الأسابيع الصعبة التى سنقضيها معًا.

لم يحرك ميلسكو ولا شبيهه ساكنًا وهما قابعان خلف لأفتتهما التى تحمل اسم رومانيا. كنت قد أخذت عهدًا على نفسى أن أبرز بعض أقاويلهما. كلما تطلب الأمر عسى أن يتحركا. تركتهما من أجل اكتشاف أدباء أو أقوال مأثورة يفترض أنها تنتمى إلى البحر الأسود. وفى الفترة ما بين كلمتين مملتين لمندوبيهما الرسميين اشترك بناء على طلبى شفاهة فى أعمالنا.

عندما استقررت فى مكانى عبر كارلوس البهو لكى يهمس فى أذنى قائلا: "لقد لعبتها جيدًا، وكنت أقل توترًا مما أخشاه والآن جاء دورى."

(*) برانكوزى: نحَّات رومانى مشهور ولد عام ١٨٧٦م، وتوفى عام ١٩٥٧. (المترجمة).

من خلال شفتيه الرفيعتين أراد السير أليك أن يمنحنا استراحة. وفى البهو اقترب منى بات كالاجان برابطة عنقه الخضراء قائلا:

"ماذا أردت أن تقول صراحة بجملتك هذه عن النحَّات الرومانى؟"

شرحت له أننى فى حالتى الفردية ذات المنظور الأخلاقى أعترض على الذين يجلسون فى مقاعد رومانيا لتمثيل سكان دولة لا نعرف عنها شيئًا حتى الآن سوى أنها أخرجت لنا كبار الأدباء وكبار الفنانين. عزمت على تعريفه ذلك اكثر من مرة أثناء المؤتمر ولكن لم تواتينى الفرصة. ولكن ليطمئن: فأنا لن أضع العلاقات الشرقية الغربية فى خطر، وكذلك مصالح فرنسا الأبدية بالطبع التى أنا هنا فى هذا الفناء من أجلها.

كان بات كالاجان قد انسحب بهدوء عندما التقينا مع ميلسكو الضخم.

قال لى الرومانى بلا أدنى توتر: " إنه فنان كبير لقد أقمنا له متحفًا بالقرب من القرية التى ولد فيها. هل زرته من قبل؟ يا للخسارة أن المنطقة تستحق السفر بخاصة إذا كنا - بلا شك - مهتمين بأعماله. فالحقبة التى عاش فيها للأسف كنا لا نزال دولة فقيرة تستهين بثقافتها الخاصة من أجل ذلك اضطر "برانكوزى" للعمل فى الخارج؛ حيث توجد معظم أعماله هناك للأسف وبخاصة فى باريس."تركنى

وانصرف بعد أن قال هذه الكلمات بفرنسية متقنة. لم يتأثر هذا القذر بالتوبيخ المتتالى من أبناء وطنه.

الجمعة ٦ أكتوبر ١٩٨٩

حفل استقبال باذخ ذلك الذى أقامه وفد ألمانيا الشرقية وأهداه إلى كارلتون بمناسبة الاحتفال بمرور أربعين عامًا على إقامة الجمهورية الديمقراطية. نزلت من حجرتى دون تفكير بعد أن ارتديت أجمل بدلى الكروازيه. وفجأة وأنا فى البهو ارتعدت من فكرة أن يجدونى مع كل الزملاء فى حفل الاستقبال السخيف هذا. لحظة رائعة تلك التى رأيت فيها عبر فتحات الزجاج ومن وراء أحد الأعمدة التشكيل الراقص لسيارات الليموزين أمام باب الفندق. إنها زيل تانتال. نعم تانتال. أنها حتى مكتوبة بطريقة لاتينية لمزيد من تعذيب الزبون. هذه الزيل تانتال اختلطت بطريقة حميمية مع سيارات الأغنياء الرولز رويس وسيارات خشنة الطباع المرسيدس وذلك فى جلبة شديدة فاقت جلبة صراع الطبقات. استفدت من وصول كارلوس إلى البهو لكى أعتزم القيام بواجبى حيث كان يتمتع بالحيوية والنشاط أكثر من الفترة

التى كنا ندرس فيها اللغات الشرقية .حفل الاستقبال جرى فى صالون ونستون شرشل حيث تراصت قطع الأثاث الريجنسى، والتى تعلوها فى الوقت نفسه لوحات لأبطال معركة إنجلترا. أثناء انتظارنا مصافحة مضيفنا السفير هانز موللر همس كارلوس فى أذنى قائلا: "احترام واجب من جمهورية ألمانيا الديمقراطية للخالد الذى قسم يالطا." تقليد بدا متوافقًا مع المعنى بالأمر من خلال الابتسامات التى اعتلت الواحدة تلو الأخرى وجهه الناعم. وقف أعضاء الوفد متراصين فى صف واحد على يمين السفير ويساره فى محاولة منهم لصنع أفضل ما يمكن ولكن دون جدوى.

على بعد خطوات من هنا كان يقبع بلا حراك السفير جريجورى اخمانوف السوفيتى حتى النخاع حيث كان هو الآخر يتمتع بمزاج عالٍ حيث لم يكف عن مخاطبة أشخاص وهميين ليذكرنا بأن ميخائيل جورباتشوف رغم جدول مواعيده الممتلئ إلى نهايته قد قضى يومين فى برلين لكى يحتفل بشكل لائق بعيد ميلاده الأربعين بالقرب من صديقه "إريك هونيكر(*)". وقد نقلت التليفزيونات على الهواء مباشرة وصوله إلى المطار حيث طبع قبلة روسية على فم الزعيم العجوز من فرط سعادته. وهكذا ظل يردد السوفيتى جريجورى اخمانوف بسعادة بالغة.

(*) إريك هونيكر «رئيس الجمهورية الديمقراطية الألمانية فى الفترة من ١٩٦٧وحتى ١٩٨٩. (المؤلف).

التف ممثلو الدول الشقيقة من حوله بما فيهم وفد بولندا؛ حيث بدا ظاهريًا انه سامحهم على ترتيباتهم غير المسئولة. اما الرومانيان فقد جلسا وحدهما بلا حراك متظاهرين بأنهما مشتركان معًا فى جدل مهم جعلهما يضحكان بانتظام ضحكات غير موزونة.

وكما قالت لى كلودين فإنها تحققت جيدًا من أن شبيه ميلسكو له نفس نظرة الغضب والتهديد التى لدى تشاوتشيسكو(*). مفقودون فى عالم هربت منه القوانين. فى الركن الخاص بهم كان الغربيون يفرغون زجاجات الشمبانيا المعتقة فى جوفهم وهم مملئون الأرائك تمامًا مثل أسماك الرنجة التى تملأ بحر البلطيق. وأملا فى تحريك الأحداث المحيطة بهم امتدت إحدى الأيادى المدربة لتنير علم الجمهورية الديمقراطية القابع فوق مائدة الطعام الخاصة بهم حيث يحيط بالبروفيل الموضوع لكل من ماركس وإنجلز ولينين. كانت الشارات ذات الألوان الوطنية والمثبتة على الحوائط، والتى يتوسطها رقم ٤٠ باللون الأحمر موضوعة لتذكير من نسى بالأحداث التى بسببها يتم الاحتفال.

بضحكة هازئة من خلفى قال أحدهم قبل أن يختفى وسط الحشد وهو يعرج: "ما ينقصنا بحق هى صور تذكارية لحائط برلين."

(*) نيقولاى تشاوتشيسكو (١٩١٨ م - ١٩٨٩م) رئيس الجمهورية الاشتراكية الرومانية (١٩٧٤م - ١٩٨٩م) كانوا يسمونه فى بلده القائد. (المؤلف).

لدى وصولنا كان البعض منا قد أجرى حوارًا مع المضيف، الذى قال لى برقة شديدة لا طائل من ورائها: "أتمنى أن يقوم الرئيس ميتران بزيارته الرسمية لنا فى ديسمبر."

وبرقة أقل منها طمأنته وهو بدوره شكرنى باسمه وباسم دولته التى يشرف بتمثيلها. بسبب هيئته المتجهمة قررت أنه من الأفضل أن أقتصد فى ابتساماتى المتكلفة التى أنهى بها بشكل عام الثرثرة المتبادلة مع الزملاء.

كان "وارنر والدنبرج" الذى كان يشترك فى حفلات استقبال مع أصدقائه القدامى يبدو كالفراشة الرشيقة. كان أصيلا ويستحق بجدارة أن يمثل ألمانيا الأخرى، وقد همس لى قائلا: "إننى أكرههم." قالها مرتين أو ثلاث مرات فى كل مرة كان يمر فيها بجوارى وفى كل مرة كان يستطيع أن يفتح فيها قلبه كان فمه يتحول من الغضب إلى الابتسامة الساحرة.

السبت ٧ أكتوبر ١٩٨٩

من أجل تعويض الوقت الضائع قضت الرئيسة بأن تكون هناك جلسة إضافية. بالطبع عم السخط أرجاء المكان. بدا أعضاء الوفود المدعوة كمن تلقى صفعة قوية ربما أقوى من التى تتلقاها بعض الوفود الأخرى عندما كنا نتهمها بأنها تلقى خطبها فى قاعات خالية من الحاضرين. من ناحيتى تعهدت أن أتحمل عبء الرجل الرومانى شريطة أن تكون المعاملة بالمثل مع كلودين ولورو الصغير.

ترك معظم الزملاء أماكنهم لمعاونيهم بما فيهم كارلوس، الذى كان يستمتع بالعودة إلى مدريد نهاية كل أسبوع. توصلت إلى فكرة جيدة مفادها أن أسرح فى خيالاتى. ومثل كل مرة أقنعت نفسى بأننى لم أفعل ذلك هذا الصباح بالقدر الذى يسمح لى بأن أشرد.

أخرجتنى كلمة اليوغوسلافية من غفوتى. تسمى تقريبا زونيكا أو زوريكا بيلافيك. قالت لى كلودين إنها

قد تركت لتوها منصبها كسفيرة فى برلين. هى امرأة عجوز واثقة جدًا من نفسها. كانت تتألق فى تايير باللونين الأبيض والأسود لدرجة أعطتنى إيحاء بأنها خارجة لتوها من أفلام الجاسوسية التى تتناول فترة ما بين الحربين.

ما أن تناولت الكلمة حتى أوقفت موجة الجدل. كانت قاطعة ومريبة. لم يضايقها أن تكشف لنا بوضوح عن التناقضات التى تخبطت فيها نظم معلوماتنا المختلفة. وبلكنة فرنسية ممتازة هاجمت ما يسمى بالحريات القليلة للدول الاشتراكية، والتى رأت أنها حريات مزيفة وذلك قبل أن تقذف فى وجوهنا مهاجمتها لحرية أنصار الحرية. الشىء المؤكد بالنسبة لها هو إلا تحكم لصالح أحد من الطرفين المتنازعين. وبصفتها مواطنة على هذا الكوكب فإن لديها الثقة الكافية فى الحس النقدى للبشر من أجل تفضيل الأغلبية حتى لو تم ذلك بالمال. ولكن يجب أخذ الحذر من اللعنات المشتركة. وللتأكيد على كلامها ودون أن يزعجها ذلك فإنها ألقت على مسامعنا خليطًا مما كتبته البرافدا وصحافة سبرينجر والنيوز الألمانية وتليفزيونات بيرلسكونى. وبلا أية لباقة أو مهارة بعد كل ذلك فإنها تحسرت على أن بلادها القوية بعد الانحياز لم تكن جديرة بإيجاد طريق وسط هذا المجال. طريق يستطيع أن يجمع بين الماعز الغربى والكرنب الاشتراكى. لقد تحدثنا أن نكون قد استفدنا.

شكل آخر من أشكال الإثارة فعلته عندما تحدثت لرفقائها فى الشرق عن أن تذليل عقبات الصحفيين الأجانب بدلا من عرقلة سير عملهم جعل بلادها تستفيد أعظم استفادة ليس فقط من الموضوعات المصورة ولكن أيضًا من الميزان التجارى.

قوبلت كلماتها هذه وسط الهدوء بالقليل من الاستحسان. لقد خلطت الكثير من الأوراق لكى تجذب انتباه الحاضرين. وبعد أن أنهت كلمتها أسر هانز ميللر الألمانى الشرقى بثلاث أو أربع جمل فى أذنها جعلوها تستشيط غضبًا. علقت كلودين قائلة:

"إنها امرأة فظة تلك التى تسمى بيلافيك هذه."

ويبدو أنها لم تكن متأكدة إننى فى حاجة للمزيد من هذه الجمل. لقد قيل إنها عندما كانت فى برلين الشرقية لم تكف عن إحداث المشكلات مع السلطات. كانت تقول أى شىء يخطر على بالها. هؤلاء اليوغوسلاف يمثلون دائمًا أخطارًا داهمة. بعد الظهر وتحت رذاذ مطر جليدى خفيف كنت أسير متعرجًا بخطوات سريعة عبر طرقات المدينة دون أن أجد أسبابًا للدخول إلى مكان ما. سؤال واحد كان يلح علىَّ وهو: عما أفتش وحدى فى هذا المكان المشئوم؟ هل أحاول أن أقتل الوقت؟ لم تكن هناك إجابة.

ذكرنى المطعم اليابانى الذى هبطت عليه مساء فى كينجستون بالسخط الذى أصابنى وقت الرحيل: مكائد هذا آل"جراندين" القذر بدءًا من الإليزيه

وصولاً إلى وخزى فى طوكيو. هنا بالطبع عاودت التفكير فى" ستسوكو" أتخيلها تقوم بشئونها على الوجه الأكمل ومستقرة بفضل سنوات عمرها الثلاثين التى تعنى أنها لا تزال فى ريعان شبابها. تتمايل مع أى معتوه لا أعلم . فى أية علبة ليل لا أعلم أيضًا. حكاية أخرى تؤلمنى وأخرى لا تؤلمنى.

و مع ذلك، لدى دخولي كارلتون، وجدت رسالة منها مملوءة بالود. كانت تؤكد على لقائنا لتناول العشاء فى سارازين أثناء العطلة الأسبوعية، كما لو أن شيئًا لم يتغير بيننا. بداية، كانت تمطرنى بسيل من تلك القبلات التى تحب أن ترسلها بيابانية أكثر منها باريسية. طبعًا لم يكن هاتفها يرد وكان ذلك أفضل.

الأحد ٨ أكتوبر من عام ١٩٨٩

لدى نزولى هذا الصباح، قابلت وجهًا لوجه المندوبين البولنديين اللذين كانا يتناولان إفطارهما معًا. سولوفسكى، رجل الحزب، و كراتوفسكى، ممثل الكنيسة وسوليدارنوسك. الأول، قصير القامة، أجرد، ذو عين حادة، فى حين أن الثانى مفكر، ذو هيئة محام شعبى. أشارا لى أشاركهما جلستهما. ربما ثقيل هو تواجدهما معًا دائمًا. كان كل منهما يتحدث لغة فرنسية صحيحة. أعتقد أنه كان بإمكاننا تبادل الأحاديث التافهة عن بعض المواقف لولا ما قام به السيد كراتوفسكى من حركة غير محسوبة على الإطلاق عندما سكب القهوة شديدة السواد على بلوفرى ناصع البياض. لم أشعر بأية أزمة عندما سألتهم مباشرة على وضع وفدهما. فقد أنهكا خصومهما لدرجة أننى سمعت ذلك فى بيان الحكومة متعددة الأحزاب التى تحكم بلادهما حاليًا.

ولكنهما قالا فى صوت واحد: "ليس سهلا"

وأضاف سولوفسكى، لدى جلوسنا جنبًا إلى جنب بل ليس يسيرًا تفسيره. وانطلقا فى الضحك.

و ذكر كراتوفسكى، من حسن الحظ لدينا ممارسة طويلة من انفصام الشخصية، وإن كان، لمخادعة العدو، فمن يوجه مصائر شعوبنا منذ سبعة قرون لم يتغير فكره.

ونصحانى بسؤال كل منهما على حدة للحصول على إجابة سؤالى الصحيحة.

وتحت قطرات المطر الثلجية الخفيفة التى اجتاحت المدينة منذ أيام، استقللت سيارة أجرة لناشونال، ثم للمتحف البريطانى "التات" وأخيرًا للبريتش. لم أشعر بالرغبة فى الدخول تمامًا مثل الأمس. الرغبة! أنا الذى لم أكف منذ سنوات المراهقة عن إثارة غيظ من حولى بشراهتى المرضية لزيارة المتاحف والمعارض الفنية. أصبح فى الستين من العمر فى أقل من ستة أشهر. إن العجز الذى يستقر هو الذى يسود بقوة.

لدى عودتى إلى كارلتون، حاولت أن أعاتب نفسى على الطريقة اليابانية. مر ربع قرن تقريبًا منذ كنت راكعًا أمام مائدتى المنخفضة، أكتب الجمل الأولى على هذا الشىء ذى الشريط متعدد الألوان.

إذا أحضرت معى هذه الأربعمائة ورقة المكتوبة على عدد كبير من أجيال الآلات الكاتبة، فإن ذلك يعنى أولا أننى سوف أمكث فى إنجلترا بتوقيت

طوكيو... بالطبع لن يمكننى التركيز، أعدت قراءة بعض الفقرات بعشوائية، شطبت بعضًا من الصفات وعكست ثلاث كلمات. ولأضع نهاية لهذا المشروع الذى انتهى فعليًا منذ أربع أو خمس سنوات، كان علىَّ العودة إلى اليابان. لم تكن تلك هى وجهة نظرى فى اللحظة الراهنة.

طوال عطلة الأسبوع، اجتررت مرارتى، لا أمتلك أدنى عنصر جديد، ولكن، فجأة، ساورنى الاعتقاد بعدم تعيينى فى طوكيو. أشعر بحنق أمام ما يبدو لى ظلمًا غير مسمى، تفاخر مجروح، وغيظ طفل مدلل. تذكرت تلك القرارات العنيفة التى كانت تتملكنى ليلة سفرى إلى هناك. لا. ليس هذه المرة ! فى الواقع، هذه الإقامة الرابعة، تكاد تكون تكرارًا لمسيرة معلومة جيدًا. وإن كان، فأنا السيد، وإن كنت أحلم بإنجاز سلسلة من المشروعات المحددة فى هذا السياق الجديد. لا يصعب علىّ إطلاقًا التنبؤ بأن سير رحلتى هناك، سوف يكون مرصودًا، يومًا بعد يوم، بتذكر ماكر "لأشياء أصبحت اليوم من الماضى" لاستعادة التعويذة السرية التى تقولها الجدات المحليات قبل إنجاز قصصهم فى المساء فى ضوء المصباح.

موتى أهون من أن أسأل هذه النوعية من الأسئلة.

بدا هذا اليوم اللندنى أسوأ مما كان متوقعًا.

الإثنين ٩ أكتوبر ١٩٨٩

استغل الصديق كارلوس دوره كآخر المتحدثين بعد ٣٥ نائب رئيس ليهدينا جملة استعراضية كبيرة قال فيها "بالثناء على أوروبا أمنا جميعًا" ثم أخذ يرصع كلمته عن حرية التبادل الفكرى فى أوروبا بالأقوال المأثورة للكُتَّاب والفنانين الذين ينتمون إلى كل الدول الحاضرة. كان احد أعمال كارلوس الجادة على سبيل المثال هو تعلمه فى غضون ثلاث سنوات لغة قريبة للغة بورما أثناء تبحره فى اللغات الشرقية. أثناء حديثه وجد كل من هينريش هين وأوسكار وايلد نفسيهما مرفقين بنظرائهما، تارة فى جملة المتحدث وتارة وجهًا لوجه، واضطر السوفيتى ابتلاع صيغة حادة وغير متوقعة، سقطت من قلم الزميل جوركى تتحدث عن حرية المبدع التى لا غنى عنها.

أنا الوحيد الذى حظى ببيتين من الشعر لكاتب أقسم إنه خرج من وحى خيال كارلوس نفسه. هذا الشاعر كان سيئ الحظ إذ مات وهو فى ريعان شبابه

مطلع هذا القرن وقد أعلن المتحدث عظيم أسفه: لأن هـذا الشـاعر لم يستطع أن يلفت نظر الناشرين الفرنسيين.

كان النجاح على نفس مستوى العمل نفسه. إذ حظى كارلوس بنوبة تصفيق حاد أثارت غيرة مارجريت تاتشر . فسرعان ما تناقلنا نصه و من جانبهم أكد معظم زملائنا على نشره، على نطاق واسع، في بلادهم. عندئذ، وجدت نفسى ملتزمًا بعمل المستحيل، ليغتنم الشاعر الفرنسى، الذى أصابته فجيعة عدم التقدير، الفرصة لإعادة نشر عمله الأدبى الرقيق على وجه السرعة وهو لا يزال متأججًا.

من وقت لآخر، تيقنت من هزيمتى. و لم يكن يتحتم علينا الأخذ بالثأر. وحيث إننا وضعنا كلنا فى مأزق، فالمهم الآن أن نخرج معًا. على ماذا ؟ إلى أين ؟ ومتى ؟ سنرى لاحقًا.

دارت المناقشة الأولى أمام أحد المقاهى مع الأمريكى القصير السمين ذلق اللسان، هارى ماركس الذى كان يشغل منصب رئيس شركة أدوية ضخمة بمدينة ميلوكى. وكانت سنواته السبعون تبدو متخمة بالأحداث. وكما كان يردد الجمل الثلاث نفسها من كونه صديقًا لنائب الرئيس دان قويلى، وإنه هو الذى مول حملته الانتخابية وكونه سفيرًا لعدة أسابيع شىء يدعو للتملق والضحك أيضًا. إذًا. لم يكن قاتلاً

بالدرجة. وواضح أنه جاء دون أدنى فكرة عن موضوع المؤتمر حتى لا يتحدث عن مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا ولا عن أوروبا نفسها. كانت فكرته محددة : وهى أن البريسترويكا فخ خطير.

ـ ودائمًا ما كان يردد أن الذئاب سيظلون ذئابًا وإن تواروا تحت فراء الخراف.

هذه الملاحظة تعادل وزنها أقراص أسبرين وكادت، بلا شك، تبهر من هم على شاكلته. ولم يكن شيئًا مزعجًا لهارى الطيب أن يكون حاملاً لاسم ماركس فى هذا المكان كان يرى أنه يتحتم عليه مساندة بعض الأعضاء، فى وفده . كان كارل هو الذى يجب أن يتضايق.

أشعر بزهو من تعاون ممثلى دولتى ألمانيا فى اللقاءات الدولية. كل ينطلق من كوكب تبدو فيه القوانين الطبيعية مختلفة رغم أنها واحدة.

وفقًا لما قاله لى كارلوس فإن وارنر ولدنبرج الذى كان فى المهمة معه ولد فى طوكيو حيث قضى والده فترة الحرب فى اليابان، برتبة ملحق عسكرى. أما هانز موللر ، فقد أنجز دراسته فى موسكو؛ حيث وجد فيها مأوى له خلال سنوات مراهقته، بعدما قتل النازيون والده الذى كان أحد مسئولى الحزب الشيوعى الألمانى.

لا أعلم إذا كانت ستتاح لى الفرصة يومًا ما لتبادل، ولو ثلاث جمل مفيدة مع موللر. إنه نموذج

للرجل الآلة، فهو راهب عسكرى، يمسك بالمال فى يد، وبالسلاح فى اليد الأخرى. أنه محاور لا يتعب ومغرق فى معتقداته. يبدو على هيئة شيطان متحفظ مفعم بمنطق التناقض بشكل تقشعر له الأبدان. ولا يستثنى فى ذلك علاقاته مع من قد لا يتحتم عليهم كونهم معه فى دائرة الضوء لسنوات. مثل هذه السفيرة اليوغوسلافية التعسة التى عنفها يوما على الملأ. ولا أستطيع منع نفسى من رؤية ظل أبيه المتسارع خلف ظهره فى أحد خنادق الجستابو.

أوضح لى لورو أن من أيام هلسنكى كان ميلسكو هو الذى يدير كل الوفود الرومانية لمؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا. وكان دائمًا يقول لا على أى شىء. ولطالما أجهد نفسه فى تفنيد الأسباب بفرنسيته التى يتقنها. ولكنه كف عن ذلك بعد أن جف ريقه. ومن وقتها، أصبح يكتفى بإلقاء لاءاته الصاخبة من مكانه.

لاحظ لورو خوف ميلسكو الشديد من أن يؤخذ عليه أى شىء رغم أنه كان أذكى من أن يلاحظ عليه أحد أنه يضاعف مهامه. أعتقد أنه نسى، لوقت كبير كيف يقول "نعم". فى أحد مؤتمرات العام الماضى، أقمنا مسابقة مع بعض الزملاء الفائز فيها من يسمع كلمة نعم من فم ميلسكو أولا. كلمة "دا"(*) هذه الشهيرة فى التراجيديا الرومانية. كان يؤكد أن السلاف استطاعوا الخوض والغوص فى قلب لغتهم،

(*) دا: تعنى نعم فى معظم اللغات السلافية واشهرها الروسية.

التى لا يكفون من الإعلان أنها الأكثر لاتينية ضمن اللغات اللاتينية.

وأخيرًا، لابد أن أقول لكم، سيدى السفير ألا أحد منا ربح فى اللعبة أضاف لورو أنه قبل أن يتولى رئاسة الحزب العالمى، والذى كان يمسك بمقاليده جيدًا، كان ميلسكو أستاذًا لتاريخ الفن بجامعة بوخارست. إذًا فهو يعلم برانكوزى.

الثلاثاء ١٠ أكتوبر ١٩٨٩

تعد وجبات الإفطار فى كافيتريا كارلتون هى أوقات الاستضافة الحقيقية، قبل أن يجد كل منا الوقت لينخرط كلية فى شخصيته طوال اليوم. فى هذا الصباح، وجدت نفسى، وجهًا لوجه، مع اليوغوسلافية التى هنأتها على خطابها الذى أخرجنا من الرتابة هو وخطاب كارلوس.

قالت لى: "لقد سئمت بدور المتزن سياسيًا. إننى أصطدم صباح كل يوم وأنا فى طريقى من برلين بهذا الحائط القذر الذى يشبه اثنتى عشرة طلقة رصاص فى جسد ماركس وروزا لوكسمبورج وآخرين كثر. لا يزال بلدى يعانى دون أن يجرؤ أحد أن يقول ذلك. لا السياسيون و لا الصحافة ولا حتى المواطنون فيما بينهم. ومع ذلك فإن فيدراليتنا التعسة تسير فى الحائط. إنه الطريق الأوحد والأخير قبل التصادم! مضى وقت طويل ونحن مازلنا نتعلم الكلام قبل أن تتفجر المآسى.

ابتسمت معتذرة من أجل هذه الأحاديث التى جاءت ونحن لا نزال فى مطلع اليوم. وأردفت شاكرة كلماتى. و قالت بفرنسيتها الصريحة :"هؤلاء الرومانيون قذرون! ولابد من إعادتهم داخل سلة المهملات".

تحتم علينا إذًا أن نتحمل فى مستهل كل صباح لمدة ثمانية أيام، صياح الديك الذى يسبق و يختتم كل من الخمسة وثلاثين مشتركًا ومن ثم كل من ممثلى الهيئات العالمية الحاضرة! إلى أن وصلنا إلى الأمين العام للأمم المتحدة الذى كابد ضرورة ملاطفتنا فى اتجاه السياق العام، متيحًا فرصة جديدة لماجى لتظهر نفسها فى هذا المؤتمر، وهى إحدى أولئك المنتظرين لشىء ما.

وأخيرًا، خلال ظهيرة ذلك اليوم، دخلنا فى لب الموضوع، يمكننا على الأقل استخدام هذا التعبير الموحى بتواجد حياة وموضوع أصلا. قدم لنا الأمين العام سطرًا تلو الآخر لصفحتين غامضتين قيل إنهما مقدمة كانتا يجب أن تفتتحا مؤتمر إعلان المعلومات فى أوروبا مبدئيًا حيث المشروع مدرج فى جدول أعمال مؤتمرنا.

يالسخرية القدر. فى نهاية فترة الظهيرة ووفقًا لاقتراح جماعى، قررنا تأجيل مناقشة هذا الجزء من النص إلى ما سيتضح من أمور أثناء أعمالنا.

"المادة ١ " هكذا صرخ السير أليك الذى بذل مجهودًا ملحوظًا لقضاء آخر النهار معنا. وقد شجعت

الأصوات نفسها التى رحبت به تيد جاريسون الأمين المساعد، للاقتراب من أذنه، ليذكره أن الساعة اقتربت من السادسة. وكما بدا عليه سعيه لتجاهل هذا الظرف الطارئ قفز الأمين العام ليخبره أن المترجمين سيتوقفون عن العمل فى هذه اللحظة مهما حدث. وكان السير إليك ثائرًا من هذه العراقيل. ولكنه رفع الجلسة فى أداء مسرحى محتفظًا بتعليقاته لنفسه بذكاء شديد.

وافقت أخيرًا على تناول العشاء مع بعض الزملاء فى المدينة. قال لى كارلوس" إنها كافيتريا بـ"ليون" لن تستطيع إلا أن تصاحبنا". كنا أمام سوسيس ساخن مصنوع على طريقة إدوارد هاريوت وفى آخر العشاء تحدث اثنان أو ثلاثة من بيننا عن الملاهى الخاصة المؤدية إلى سادلر، والتى دخلتها بشجاعة رغم الليل الغاشم، الذى هب علينا فجأة. لدى وصولنا الفندق توصل رفقائى فى الطريق إلى نتيجة مفادها أن كل الأمور قد حسمت وإننا نزاول مهنة ليست أسوأ مما كنا نفعله الآن. تركتهم بالبار كى ينتهوا من حساباتهم.

"عندما أمسك بريشتى، أتذكر جدائلك السوداء" قصيدة كان يرددها بجدارة كنجى فى بداية دروسنا لتعلم الخط. قال لى:"إنها قصيدة من القرن الحادى عشر". أن ينجح مجتمع ما فى استعادة نفسه بعد عشرة قرون شىء بحق يثير ذهولى. كان مخطوطى مفتوحًا بالمصادفة عندما أمعنت التفكير فى معلمى القديم النحيل ذى العضلات المفتولة بثوبه اليابانى

الخالد ذى الأزرق القاتم ، والذى فتح أمامى كل الأبواب. أمعنت التفكير أيضًا فى يوشى وستسوكو ..... إنه عالمى الخاص بى تمامًا مثل القداسات الأوروبية الكبرى التى كثيرًا ما أثرت فىَّ. بالطبع لم أتقدم قيد أنملة فى إعادة قراءة كتابى الممل.

الأربعـــاء ١١ أكتوبر ١٩٨٩

كان القس لويجى ماشيولى القابع على مقعده هو مراقب الكرسى الرسولى، كان يبدو فى هيئته كصقر بحلقاته الفضية هذه التى تطوق عنقه أما يداه فكانتا نظيفتين للغاية. كان الرجل ذا مظهر جميل، إضافة إلى ذلك فهو يمتلك صوتًا جهوريًا بحيث يعطى لعباراته القليلة وضوحًا شديدًا. كان يمسك بالقلم دائمًا فى يده، و أتصور أنه كان يدون مداخلات كل مستمعى مواعظ قداسة البابا، ولكن كراتوفسكى حطم تصوراتى هذه نظرًا لطبيعته كمسئول فى اتحاد نقابات بولندا، حيث تعامل معه كثيرًا فى الوقت الذى كان يعمل فيه مستشارًا فى مركز السفارة البابوية بوارسو. أكد كراتويسكى أن ماشيولى كان منهمكًا بوضع لمساته الأخيرة فى أحد الأبحاث الخاصة والذى يتناول اقتصاد الخلاص البشرى على يد المسيح مضيفًا أن هذا الكتاب كان سيكون عظيمًا ولذلك فقد أعطاه ثقته الكاملة بناء على هذه النقطة

تحديدًا، ولكن سكرتارية الدولة فى الفاتيكان آنذاك كانت تضعه تحت الملاحظة؛ لأن الموظفين هناك اكتشفوا أنه لم يكن منتظمًا فى حضور الاجتماعات التى كان من المفروض عليه أن يحضرها ولذلك تم وعظه وعلى هذا فقد أخذ حذره. وبسرعة جاء تعيين جديد فى جزر بابوا غينيا ـ الجديدة.

كان ممثلو المنظمات غير الحكومية التى لا أعرف عددها، والذين كانوا يترددون دومًا على ردهات مركز المؤتمرات كانوا مستعدين لإجراء حوار مع هؤلاء الحمقى، الذين يردون عليهم تحية الصباح . قال كوريوليس الذى كان أكثرهم نشاطًا إن كلانا قد ولد بـ"جرينوبل" وقد قال ذلك لكى يحدثنى بلا أدنى حرج.

كان عنوانه هو "الترويج للحركة المسرحية الدولية". وقد استغل وضعه كأحد النبلاء لإسداء نصائحه للمفاوضين لكى تفتح دول مركز الأمن والتعاون فى أوروبا حدودها للفرق المسرحية. مردفًا بقوله إن لكل عرض وظيفته.

ثرثرته الدائمة تجعل من ينصت إليه لابد وأن يقتنع بأن شكسبير وموليير وبريخت بكل ما فعلوه فى الأوروبيين يستطيعون أن يقدموا من أجل السلام والتفاهم بين الشعوب أكثر مما تقدمه كل اجتماعات الموظفين. "وقد ينتهى الحائط بالسقوط بمفرده"، هكذا أضاف بابتسامة يشوبها غصة. فى الحقيقة

يستحق هذا الرأى الدراسة. تضم جمعيته مئات الفنانين و ذوى الوجوه المبشرة التى تزين الإعلانات المنشورة. وأعاد على الكرة فى نهاية النهار فى المكتب الذى يضم وفدى. وعندما كانت عيونه تتفحص المذكرة التى تستعد جمعيته لتقديمها، تساءلت بينى وبين نفسى إذا كانت بعض وثائق مؤتمرنا أقل جدية.

لأن المناقشة التى سيطرت طوال هذا اليوم كانت حالمة بما يكفى فقد وضعت لنا مقدمة لمواد البيان الخمسة؛ حيث كان هذا النص نتاج عشرة اجتماعات عقدت بين خبراء من أنحاء أوروبا، وكان المفترض أن يكون هناك تعريف فى هذه المقدمة للكلمات المستخدمة فى الست وسبعين مادة اللاحقة، ولكنها لم تكن إلا سلسلة من البديهيات و المسلمات. شىء طبيعى بما أن كلمات جوهرية مثل حرية وضمان ورأى شعبى لها معان شديدة التضاد لكل من المعسكرين.

تمامًا كما قال تيد جاريسون فى نهاية الجلسة حيث كان الرئيس الوحيد اليوم لحسن الحظ الوحيد عندما اختصر المسألة قائلاً: "لدينا الكثير من العمل" بدت الجملة كعصا باريسية مسحورة لدرجة أنه قال باللغة الفرنسية، حيث أن هؤلاء الإنجليز لايتوانون عن إعطاء العدالة لأمم أخرى على هذا الكوكب فى كل مرة يشعرون أنهم يستحقونها.

للمرة المليون أشعر أننى بطة صغيرة سوداء وسط مجموعة من البجع الأوروبى الأبيض، لايهم إن كان زغبه أبيض أو ريشه أحمر المهم أنه من هنا. ما عداى أنا فلقد عشت فترة طويلة بعيدًا عن صراعاتهم الدائمة منذ قضية يالطا.

هذا الموقف جعلنى أراقب كل هذه الاضطرابات بعدم حزم، وهو موقف لا يستطيع أن ينتهجه المشاركون الآخرون فى مؤتمرنا، بخاصة التابعون للسلطة.

الخميس ١٢ أكتوبر ١٩٨٩

أحببت زميلى الفنلندى والذى وضعته الحروف الأبجدية إلى جوارى. إنه هيكى تووميـنين ذلك الحطَّاب الذى انتظرنا قدومه من تلك الغابات الممتدة والذى تحسر على عدم وجود صور تذكارية للحائط فى حفل الاستقبال الذى أقامته ألمانيا الشرقية.... لايكف عن التعليق بصوت خافت على كل ما يحدث يصف الحضور بأنهم ثرثارون ونائمون وعابثون ومتملقون. ما إن يفتح فمه حتى تنطلق منه ضحكات مدوية تملأ القاعة بهجة وسروراً. هو من ضاحية كاريلى الفنلندية، التى ضمها الاتحاد السوفيتى عام ١٩٤٠م. رأى بعينيه أثناء مراهقته إعدام أفراد أسرته على أيدى الجيش الأحمر. قضى معظم حياته المهنية بمقر السفارة الفنلندية بموسكو. كان يريد أن يكون قريبًا من رؤسائه لدى حلول تصفية الحسابات. ووفقًا لمعاونيه فان صراحته المفرطة حاليًا ترجع إلى إصابته حديثًا بسكتة دماغية، أفقدته القدرة على ضبط

النفس كلية. ومع ذلك لا يجرؤ أحد على إحالته للمعاش، خوفًا من ردود أفعاله غير المتوقعة. فقد اعتبر منذ البداية أن عملية هلسنكى هى قضيته الخاصة.

عندما أثار أخمانوف، فى خطابه الافتتاحى، السجال السوفيتى الطويل من أجل السلام، لم يستطع هيكى توومينين الامتناع عن الهمهمة بكلمة "كابول! كابول! " التى كانت قوية بما يكفى ليسمعها نصف الحاضرين بالقاعة. ولكن اعتبرها السوفييت مجرد حادث عارض.

دار حوار طويل مع ماركوس شوستر فى المكتب المتواضع الذى يحتله بين فريق السكرتارية العامة القابع آخر مركز المؤتمرات. حيث تزينت الحوائط برسوم تخطيطية مظللة بسهام ملونة بجميع الألوان موضحة التفاصيل المتكاملة عن اللجان ومجموعات العمل والمنتديات الداخلية والخارجية.حيث بدا المشهد أشبه بخرائط تشغيل الغلايات فى السفن البخارية القديمة التى تعود إلى الزمن الجميل.

من لغة إلى أخرى يقفز الأمين العام ليرد على سيل المكالمات الهاتفية، الذى انهال عليه أثناء متابعته لحديثه الذى كان قد بدأه مع ضيفه الجالس أمامه. ومن حين لآخر، يعيد بحركة ماهرة خصلة الشعر الرمادية البيضاء التى ما تلبث أن تسقط على جبينه، قائلا بطريقة آلية: "أين كنا سعادة السفير؟ "على الرغم من أنه يعلم تمامًا أين كان على الأقل.

إذا قلنا إن شوستر يجيد فقط العمل الذى نؤديه الآن فإننا نبخسه حقه. ففى الحقيقة، إنه يمسك بكل الخيوط. وإذا كان يعرف آلية الإدارة الدقيقة حق المعرفة فلأنه هو مبتكرها فى الأساس. منذ عشر سنوات وله شركاء فى قلب كل وفد سواء فى الغرب أو الشرق يصنع قصة من كل مؤتمر وحتى إن كانت القصة بلا نتائج قيمة، فيكفى على الأقل تحركاته. ويعد لورو هذا القصير المفلس هو أحد أولئك الذين يستخدمهم كصبى تشغيل فى عملياته، ولذلك فهو يعامله بلا أدنى تحفظ مما يجعل هذا الأخير لا يتوانى عن نعته قائلا: "شوستر هذا، رجل فريد من نوعه" فى حين أن كلودين تفضل ووصفه بأنه "قوى جدًا".

فى ظهيرة هذا اليوم، فقدت قدرتى على التركيز بعد خمسة عشر يومًا من شدة الانتباه . وفجأة شعرت بكل هذه الثرثرة، وهى تخرج من خلايا جلدى كله. أغلقت عينًا تلو الأخرى مثل آخرين كثر وقد بدت لى على الحائط خلف منصة الرئاسة كثير من الوجوه المألوف رؤيتها فى المؤتمرات السياسية. ماركس وآخرون، تختلط وجوههم الذكورية بألفة وإخوة مع موسولينى وأناس آخرين ذكرونى بشىء ما: أساتذة قدامى وجارنا الذى كان يسكن بالطابق الأسفل، عندما كنت ابن أربع أو خمس سنوات. اعتقد أننى رأيت أبى أيضًا.

فجأة صاح المتحدث قائلاً فى حين لم يطلب أحد أى شىء منه "أما فى هذا الوقت التاريخى"، ثم استطرد قائلا": تظهر قارتنا القديمة فى قامة بناة كاتدرائياتها". لم ينصت أحد إطلاقًا ولو لكلمة واحدة من مداخلته التى ألقاها بصوت رتيب، ولكن نبرته التى لا أعلم بكم وحدة ديسيبل هى أعلى، قد أفاقت جميع النواب. و هنا أعلن السير أليكس من فوق كرسيه الرئاسى منتهزاً فرصة انتباهنا المفاجئ، أعلن عن عقد اجتماعين أو ثلاثة اجتماعات إضافية، لاستعادة ما أسماه بالتأخير المقلق الذى استغرقته أعمالنا" بدت نبرته أشبه بنبرة مدرس المدرسة عندما يغضب.

الجمعة ١٣ من أكتوبر ١٩٨٩

تم تكليف وزير الدولة للشئون الخارجية المستبعد بول ديفال ـ فيرون بتقديم الراديكاليين اليساريين للحكومة. هو ليس ـ فقط ـ شخصًا جادًا جدًا، ولكنه يمتلك أيضًا أجندة أعمال كان من ضمن ثمارها مؤتمرنا هذا. وبعد خمسة عشر يومًا من بداية أعمالنا وجد ب. د. ف كما يحب أن نناديه الوقت لمقابلتى. فى الواقع هو لا يعطى إلا أولوية متواضعة للعمل، ولكنه سعيد بامتلاك ملف لا يناقشه فيه أحد من زملائه. وفى الوقت الذى تعامله فيه الصحافة بلطف فإن الوزير الذى يتبعه بول ديفال يجد سعادته فى إذلاله مؤكدًا له عدم حاجة المؤتمر لخدماته.

و بتوقيت ساعة يدى جرت محادثة مدتها عشرون دقيقة فى مكتب الجمهورية الثالثة والذى تأثر منذ قديم الأزل بسكرتير الدولة الذى كان أبعد ما يكون عن منصب الوزير لدرجة أن كل شىء فى المكتب ظل مكانه كما هو منذ أول مرة وطأته قدماى. كان

ذلك لمقابلة رانكور عندما كان شابًا فى الخمسين ربيعًا من عمره. ولا أعرف لماذا أصابه الهوان هكذا لدرجة اشتراكه من فوق كرسيه المتحرك فى حكومة طالما أثارت الصخب على قضية "الانفتاح على المجتمع المدنى".

كانت توجيهات ديفال ـ فيرون تتوالى: تعاون دائم مع شركائنا الألمان المفضلين ولا مواجهة مع الرئاسة الإنجليزية، بالإضافة إلى فتح النقاش مع البولنديين وجميع هؤلاء الأشخاص. من فرط جديته بدا فى هيئة قس وهو يحملق فى الأوراق التى أعدوها له لتتحقق آخر الأمور البديهية والتى عبر عنها قائلا:"لست بحاجة سيدى السفير لأشرح لكم بالتفصيل أننا لسنا فى حاجة إلى قلاقل فأوروبا تعيش الآن أكثر الأوقات حساسية ولا يجب علينا تعقيد الأمور".

باريس، السبت ١٤ من أكتوبر ١٩٨٩

فى ماتينيون تأكد لى متابعة ملف ترشيحى لطوكيو عن كثب، حيث رأى رئيس الوزراء أن حرمانى من إدارة آسيا أمر قاس إن لم يكن أكثر من ذلك فى حين أنه يجب مكافأتى.

و فهمت أنه، فى جميع الأحوال، لن يدخر فريق ماتينيون وسعًا لإعاقة ترشيح رجل الإليزيه. أما جراندين فكان لا يزال فى مكانه يعذبهم بضرباته القاصمة. وفى ذلك الوقت تحديدًا كان يقوم بالتشويش المنظم على المبادرات المتزايدة لرئيس الجمهورية فى اتجاه الشرق.

و كان اللقاء فرصة للتأكيد على مستشار السياسة الخارجية لرئيس الوزراء أن تاتشر لديها شغف حقيقى برئيسه. طلب منى محدثى بابتسامة صريحة الكف عما أسماه "بالدعابات التى تشبه الأسلحة الخفيفة." فالتنويه الذى قمت به فى أحد تلغرافاتى " مع أجمل أمنياتى ومن ماجى إلى" عزيزى

ميشيل " لم تثر ضحكه و لم تهمه لا هو ولا حتى باقى زملاء الإليزيه.

وجدت ستسوكو مساء أمس فى نادى سارازين كانت تشرب وترقص وبدت هادئة كما لو كنا تركنا بعضنا للتو. مرة أخرى تحققت من أن حركاتنا ونظراتنا وصياحنا كانت متقاربة بشكل يثير العجب. مما جعلها تؤكد لى أننا نمثل وجهين لعملة واحدة. لا أعلم من أى كتاب انتزعت هذا المصطلح المدهش، الذى فضلت عدم معرفة مصدره. مما يعنى، دون تفكير أن ما كانت تريد قوله كان بداخلى أنا أيضًا؛. لأن كلاً منا يعلم جيدًا أننا وصلنا إلى نهاية طريقنا المشترك.

قضينا صباح السبت وقتًا طويلاً، فى المكتبة اليابانية القابعة بشارع مونج حيث خرجت منها محملا بالكتب التى ظهرت مؤخرًا عن الحقبة التى أدرسها. على الأقل لم يعد لدى عذر بشأن ترتيب وثائقى وتأجيل موعد تسليم نسختى مرة أخرى. قالت لى ستسوكو بضيق واضح إنه من غير المعقول ألا أستفيد بأوقات الفراغ التى يمنحها لى هذا المؤتمر العابث، مؤتمر لندن لأنهى هذا العمل.

أثناء تناولنا الغداء فى مطعمنا المعهود، أدركت أن دائرة موهبتها الفضولية لاتزال تتوسع لتوظف العالم بشكل منهجى ودءوب ليخدم مصالحها مع إعطاء ظهرها لكل ما لا يرجى منه فائدة.

و سنحت لى الفرصة خلال محادثتنا لأعبر لها عن مشاعر الغربة التى تسيطر علىَّ بعدما خرجت من

حياتى. لأول مرة تجذبنى يابانية كان طول قامتها مقاربًا لطول قامتى. رأيت محبوباتى طوال ثلاثين عامًا. كن يعشن على الطريقة الأمريكية تبعًا لما حتمته الدولة، قامتهن أكثر طولا بثلاثين سنتيمترًا وأنوفهن مرسومة وممتدة، فى حين أن سيقانهن مقوسة بنعومة وممتدة مثل شجر البامبو. أما لغتهن ونبرات صوتهن، فكانت قريبة من الرجال، ربما لندرك فى بعض الأوقات وحدة الجنس اليابانى.

لا أعلم كيف استطعت إثارة يوشى لأول مرة. قلت ما علمته لى أختى الكبرى عن الحياة والحب أثناء إقامتى الأولى. قلت إنها كانت جميلة وبعيدة المنال مثل الحدائق التى كانت تجذبنى إليها فى مسقط رأسها كيوتو. ورويت بكل صراحة قصة انفصالنا التى جاءت عندما حان موعد عودتى إلى فرنسا.

بدت ستسوكو مرهفة الحس أولاً بالثقة التى أعطيتها لها باعترافاتى وإزالتى الستار عن ماض مثير لم أحدثها عنه مطلقًا، ثانيًا لتذكرى دون تهكم أو مرارة هذا الانقطاع الطويل. ربما أفادتنا هذه الاعترافات مستقبلاً. هذا المستقبل الذى نعلم نهايته وإن كان تاريخه لم يحدد بعد.

دون سابق إنذار ظهر شعاع شمس باهت. تركنا المقهى باتجاه لوكسمبورج مكاننا المفضل منذ وصولها إلى باريس. وفجأة نظرت إلى ساعتها. وقالت :

لقد تأخرت كثيرًا، حسنًا. لقد حصلت على الفاصل الترفيهى الآسيوى الذى كنت تحتاجه. أرجو أن تكون قد فهمت أننى سعدت كثيرًا بعثورى عليك ثانية.

وبلا نقاش قضينا باقى عطلة نهاية الأسبوع معًا.

قالت لى: "رغم أننى سأرى أصدقائى هذا المساء إلا أننى لن أن أستطيع أن أفعل معهم ما فعلته معك! وغدًا مع طائرتك التى ستقلع فى منتصف الظهيرة لن تتاح لنا فرصة اللقاء مرة أخرى للأسف

لم تداعب خيالها فكرة المجىء سريعًا إلى إنجلترا نهاية الأسبوع القادم. كان لديها الكثير من الأعمال هنا، بالإضافة إلى مقابلة العديد من الناس.

ليس عليك سوى العودة مرة أخرى. أتعلم أنك لو أخبرتنى قبلها بوقت كافٍ لأفرغت نفسى لك تمامًا.

عاتبتنى ذات يوم بكلمات أغنية ذاع صيتها فى طوكيو فى الخمسينيات، كنت أنا الذى كشفت لها عنها لدى وصولها إلى باريس. تقول مقدمة الأغنية" أنت تنتقل من زهرة لأخرى". مقطع يمكننى أن أعيده على مسامعها اليوم... من وجهة النظر هذه اقترينا من بعضنا أكثر. ولكن كلما مر الوقت أكرر بأنها ابنتى. وإن كانت عيناها ضيقتين بعض الشىء إذا أخذنا فى الاعتبار القواعد الوراثية المعتادة.

خلال أربع سنوات، أصبحت خريجة جامعة تو داى(*) اليابانية الخجولة، التى كانت تمر على مكتبى لترانى أثناء نزهتها على ضفاف نهر السين، أصبحت مديرة.. لا أعلم فى أية إدارة فى بنكها اليابانى. وقد رفعت الكلفة مع نصف ساكنى باريس كلها.

يصعب على بعد رؤية ستسوكو بحزمها و توقدها وجمالها ـ رغم الثلاثين سنتيمتراً الزائدة فى طولها ـ ألا أشعر بالغربة التى وجدت نفسى منغمساً فيها رغم أنفى. فأوروبا هذه ستحتجزنى منذ مساء الغد لعدة أسابيع لا علم لى بعددها. كما هى العادة فإذا احتفظت بهدوئى، وإذا كان الوزير يمتلك آليات قوية لإحباط المحاولات الدنيئة للبعض لأصبح لدى ثقة افتراضية فى نصف الكوكب الذى اخترته.

(*) جامعة توداى: هى أفضل جامعات طوكيو.

الأحد ١٥ أكتوبر ١٩٨٩ ـ الساعة الحادية عشرة والنصف

تقابلت اليوم مع معلمى فى هذا العالم الأستاذ رانكور. لم نتقابل منذ أيام العطلة. أعطانى موعدًا كما هو معتاد فى بونت رويال. فهو يذهب يوميًا ليتذكر وقتما كان يخدع أقوياء العصر موجهًا نظراته فى الوقت نفسه إلى كاتبات مسنات لم يتمتعن بكثير من الأنوثة . نعم لقد مات الأقوياء وكذلك الكاتبات، ولكن بريق الأضواء فى الأركان، وكذلك الويسكى المعتقة التى تقدم فى هذا المكان، كل ذلك كان يضفى مزيجًا من النشوة

قال متفائلاً: إذًا فقد أمسكوا بك فى النهاية.

كانت له هذه الابتسامة الساخرة التى كانت تلازمه طوال الأربعين عامًا الماضية.

ـ يبدو لى أنك تعانى أنت أيضًا منذ فترة فالحياة فى كيوتو أو بجوار سور الصين العظيم إلى حد ما سهلة. أليس كذلك؟ ولكنى أعتقد أنك اخترت التوقيت المناسب للصعود على متن الباخرة الأوروبية.

فأقل ما يمكن قوله هو إنك تتأرجح كما لم تفعل منذ فترة طويلة، ولكن على الأقل لم تهرب، ولكن أين يمكن أن ترسو بنا هذه السفينة عندما تكف الرياح عن الهبوب. هل لديك أدنى فكرة الآن وقد أصبحت متخصصًا فى شئون بلادنا؟

وكما هى عادته، كان يزعم أنه ينتظر أن أنطق ببداية الإجابة على هذه الأسئلة. ولكن صمتى أراحه، وبدأ تحليل الموقف بطريقته المبهجة التى لا يتوقعها أحد. لكن ما صدمنى ثقته الشديدة بأن الأحداث التى بدأت بموسكو لا يمكن أن تنتهى أبدًا. أنه مجرد تبادل أدوار بيننا. عادة كان يفرض علىّ شكوكه، وها هو ذا يصدمنى بتلك الأفكار. فلديه رد على كل اعتراضاتى مما جعلنى أذكره بالمذبحة الصينية البشعة التى وقعت منذ خمسة أشهر.

قبل أن ننصرف أردف قائلاً: إن الخطر الوحيد على النظام السوفيتى بعد رحيل ستالين هو ارتكاب أصحاب الامتيازات الاستثنائية فى الاتحاد السوفيتى خطأ هائلاً باختيارهم شخصًا منهم لتمجيده. وفجأة وجد هذا الشخص نفسه على القمة من أجل إصلاح النظام الذى اقترب من الفشل. وها هم لكى يصبحوا معاصرين يخرجون جورباتشوف من جعبتهم الملساء.. لذا فإن ما حدث كان يجب أن يحدث بلا أدنى شك. فالصرح المنشأ كان مفككًا جدًا لدرجة الانهيار.

ثم انطلق قائلا بتعجب: فعل وأضح وجميل فعل "انهيار" هذا. أليس كذلك؟

قلت لنفسى إن استنتاجه لسيناريو الكارثة لابد وأنه نابع من قرب دخوله الجنة. خيل إلىّ أنه استنتج ما أفكر فيه ولذلك باغتنى قائلاً:

هل تتذكر نصيحتى الوحيدة يوم قابلتنى فى مكتبى بعد نجاحك مباشرة: حذار من الشباب. يبدو لى أن أعضاء المكتب السياسى قد وعوا ذلك أكثر من رجال السياسة فى بلادنا لقد تركوا أنفسهم كالبدلاء فنحن لم نكن أبدًا حكماء.

قبيل وصولى إلى روازى عرجت سريعًا على متحف برانكوزى ـ رفيقى القادم فى الغرفة ـ فى بوبورج. بهدف شراء بطاقات لوحاته بمكتبة المتحف للاستعانة بها فى الأسابيع القادمة.

وعلى متن الطائرة المتجهة إلى لندن، تعرفت على كوجلمان خبير الصحافة المكتوبة. كان قادمًا من مؤتمر فى برلين الغربية. ولأنه يتحدث لغتين فقد جال منذ فترة طويلة بين العديد من وكالات الصحافة الألمانية. وقد لفت انتباهى إلى التوترات الشديدة التى لاحظها فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية. فقد أعطت البريسترويكا والمظاهرات فى بولندا والمجر الشجاعة لبعض المعارضين الأقوياء. فمنذ وصول جورباتشوف إلى الحكم مع الذكرى الأربعين لإقامة حائط برلين ووشايته الحازمة والحذرة فى آن واحد بمن تبقوا فى مزبلة التاريخ، بدأ الشعب فى تقديم مطالبه. من المؤكد أن هذا لن يتم فى الحال، ولكن تلك القبضة يمكن أن ترتخى أقرب مما نتوقع.

شاركنى كولجمان فى التطورات التى قام بها مع بعض الزملاء من أعضاء وفود الشرق فى لندن، الذين لم يتم اختيارهم بناء على تفتح عقولهم. لقد حصل على حوارات قائمة على الثقة منهم جميعًا وليس فقط من البولنديين. وبدون إقحام للنظام الذى يتبعونه، فإن عددًا منهم حكم بفساد حجب المعلومات الراهنة للإذاعة والتليفزيون خارج الحدود. بسبب ذلك دخلوا فى صراع مع الخط الرسمى رغم معرفتهم الكاملة بوجود هوة سحيقة لا يستطيع أحد أن يتجاوزها اليوم ولكنهم يومًا ما سيتجاوزونها.

فى النهاية، كنت سعيدًا لوصولى إلى حجرتى بالفندق فى لندن. كان اليوم مع ستسوكو له ملامح أكثر من قاتمة. فهو يذكرنى بعجزى فى أن أتركها تهرب كما يجب. كما أصابنى نوع من اليأس، فلأول مرة أشعر أن رانكور الذى رأيت فيه والدى الذى لم أحظ به وقد أصبح عجوزًا وحكيمًا.

والخلاصة، من الأفضل الصعود على متن سفينة بيضاء كبيرة حيث نكون أنا وزملائى فى رحلة كالمسجونين.

الإثنين ١٦ من أكتوبر من عام ١٩٨٩

رفقاء رحلتى البحرية! ترددت تلك الكلمات فى رأسى طوال النهار بينما كنت مندمجًا هذا الصباح فى مؤتمرنا حيث وجدت أننى مازلت أتذكر جيدًا تلك الأسابيع التى أمضيتها على متن باخرة " فيل دالجيه(*)" والتى كانت تحملنى للمرة الأولى إلى يابان أحلامى. على ما أتذكر كان ذلك فى شتاء ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ حيث كانت قناة السويس لا تزال فرنسية بينما سايجون لم تكن كذلك.

كان الهواء منعشًا على سطح الباخرة بينما بدت المناظر شبه باهتة إلا أنها كانت مألوفة لنا، نراها دومًا فى الممرات التى تشبه بعضها أيضًا. قوة غاشمة

(*) فيل دالجيه: اسم سفينة فرنسية وتعنى مدينة الجزائر العاصمة، وقد غادرت هذه السفينة مرسيليا فى ١٣ديسمبر عام ١٩٥٥م فى طريقها إلى يوكوهاما مرورًا بقناة السويس وسنغافورة وسايجون (بفيتنام). وكانت قناة السويس خاضعة للإدارة الفرنسية ولم يتم تأميمها إلا فى عام ١٩٥٦م بينما فيتنام كانت قد حصلت على استقلالها فى العام ١٩٥٥م. (المؤلف)

تلك التى تطيح فجأة بالأيادى المطبقة على أسوار السفينة قاذفة بها وبما معها هناك على السطح. وفجأة يلوح لنا فى الأفق حلم بعيد المنال سرعان ما يتبخر بفعل الرياح دون أن نستطيع الإمساك به. باختصار هو عالم بطىء تنسحق فيه الطاقات.

إبان هذه الرحلة الطويلة كنت أشعر أنى أعيش مسرحية "ويكلوه"(*) التى حققت نجاحات ساحقة على خشبات مسارح العالم كله.الشىء الغريب أنه هنا فى لندن لو حل الأسفلت محل المحيط لما تغير شىء فالأسفلت ما هو إلا شىء يساعدنا على المشى فوقه بشكل أفضل. يكتفى معظم أعضاء الوفود بالذهاب من مركز المؤتمرات لتناول وجباتهم فى بعض المطاعم التى يقابلونها فى طريقهم وعندما يسمح الوقت فإنهم يتباطئون للحظات للوقوف على الميناء. تمامًا مثلما كنا نفعل عندما نصعد على سطح فيل دالجيه لاستنشاق الهواء.

يبدو أن الأحداث تطورت، بعض الشىء أثناء غيابى؛ حيث أوضحت لى كلودين أن المجريين والبولنديين قدموا اقتراحات جديدة لوضع شروط للصحفيين بعدما أصابتهم الدهشة من تلك الحرية التى يتمتعون بها. أما ما أثار الدهشة الكبرى فهو ما فعله مالفيتش باسم الوفد السوفيتى فبعدما انضم

(*) ويكلوه: هى مسرحية لسارتر وتعنى بالفرنسية خلف الأبواب المغلقة، وقد كتبها نهاية١٩٤٣م ، وعرضها لأول مرة فى ٢٧ مايو ١٩٤٤م أى قبل تحرير باريس فى الحرب العالمية الثانية وهذه المسرحية تعد رمزًا للوجودية. (المترجمة).

إلى مقترحاتهم طالبهم فى الوقت نفسه بتأجيل تنفيذ هذه المقترحات حتى يأتيه الضوء الأخضر من موسكو. بطبيعة الحال دعم الألمان الشرقيون والبلغاريون نظراءهم الرومانيين فى تعبيرهم عن احتجاجهم الصاخب. تقارب غير متوقع يدعو للتفكير أن سيناريو أوروبا القادم و من خلال سير مؤتمرنا هذا أقل ترابطًا مما نعتقد.

عندما استمعت إلى كلودين اقتنعت أنها ترأس الوفد بشكل أفضل منى. كانت تستوعب سريعًا دهاءهم ورغم أنها رزينة وهادئة و مبتسمة إلا أنها دائمًا مستعدة لمثل هذا النوع من المواجهات المتعنتة. وعدونى فى فرنسا بأن تذهب كلودين إلى صوفيًا ببلغاريا فى حال وفاة صديقى العجوز بلانشون المسكين الذى يمضى عشرة أيام كل شهر فى إحدى المستشفيات الباريسية.

قد تكون حماقتى كسكرتير دولة هى التى جعلتنى راضيًا لرؤيتى أنا ووارنر فى قمة تعاوننا بالإضافة إلى أن تلغرافات باريس وبون المعتادة لا تكف عن حثنا على الاستمرار فى ذلك. حتى زميلنا الألمانى الغربى يتفانى فى إقناعنا بالتعاون معه. إنه أنيق ورياضى و لطيف ويسعى دائمًا لكى يكون الأفضل فى كل الأحوال وبالفعل ينجح فى ذلك. فهو سفير كما ينبغى أن يكون.

صحيح أنه نشأ فى القصر الإمبراطورى بطوكيو. وصحيح أنه ما زال يتذكر الخوف الذى كان يسببه له

الضباط الذين كان أهله يستقبلونهم فى بيتهم بشنجوكو. لذلك كان يتقوقع على نفسه عندما كان ينصت لصياحهم الأجش المتصاعد لغرفته لدرجة أنه يستطيع حتى اليوم تقليدهم بطريقة مرعبة بعض الشىء. وهو ما لا تستطع الأجيال اليابانية القيام به اليوم. كانت اللغة اليابانية هى لغته الأم رغم أنه لم يتبق منها إلا بضع كلمات مثل "كوسورى" أى دواء وهذا مثلا نفهمه، ولكن لماذا "جوميا ـ سان"، والتى تعنى عامل التنظيف ولماذا بعض المصطلحات الفاحشة التى عددها لى عندما كنا نحتسى الخمر فى إحدى الليالى ببار كارلتون لعلنا ننسى هذا العبث الذى نتعرض له. ولكن ذكريات طفولته اليابانية تبدو وكأنها نظمت لكى لا تطأ قدماه أرض اليابان أبدًا منذ عمله بالعلاقات الخارجية.

دون أن يتغير شىء من فوق مقعديهما كان ميلسكو وشبيهه لا يزالان يرفعان بحماس لافتاتهما "رومانيا" ويكتمان لاءاتهما. كانا لا يتحدثان مع أحد ولا يذهبان إطلاقًا إلى البار أثناء الاستراحات. لم يستطع أحد اختراق مكتب وفدهم. وبعد مشاجرة عنيفة مع الأمن، استطاعا أن يتوليا شئونهما بنفسيهما وأن يقضى واحد منهم الليل فى الخارج. ولكن ما يفتح باب مغارتهم حتى يشكو جيرانهم البرتغاليون من رائحة الكرنب المسلوق التى تجتاح جنبات الممر.

كنت سعيدًا ظهيرة هذا اليوم فبعد سيل جديد من صياح ميلسكو المتذمر استطعت أن أقوم بمداخلة

بمقولة ثانية لبرانكوزى، ولكنه لم يتفوه بكلمة تمامًا مثل المرة الأولى.

وبعد هذه المداخلة المختصرة حصلت على بعض التشجيع الهامس - إلى حد ما - من زميلى الفنلندى. حيث وعدنى وهو يقترب منى قائلا: "سأسطو عليك فأنا لا أعلم شيئًا عن براكوزى هذا ولا عن رومانيا الهالكة هذه.

ولكننى قبل مغادرتى هلسنكى اشتريت كتابًا للأمثال اليابانية نشر حديثًا. ولكن كان شرط إنجاز المهمة هو القضاء على قطعان حيوان الرنة(*) وعدم بزوغ الفجر فى نصف الكرة الشمالى.

أطلق ضحكة ساخرة ، لدرجة أن كاتب الجلسة سجلها فى مدوناته.

يومًا بعد يوم، يزداد عشقى لحرفية تيد جاريسون الذى يكون مستعدًا طوال الأربع وعشرين ساعة يوميًا فى غياب السير أليك الذى سرعان ما أدرك أن رئاسة المؤتمر يوميًا عمل منهك جدًا. يوحى للجميع بأنه ينصت بشغف، وأنه يدون كل شىء. كما أن لديه القدرة الدائمة على الإيحاء بأنه لم يكوِّن رأيًا محددًا بعد عن أى شىء. يمتلك تيد عددًا من

(*) حيوان الرنة، ينتمى إلى عائلة الغزال، يبلغ طوله ٣ أقدام ويمكن أن يصل ستة أقدام، يعيش فى مناطق الغابة الشمالية فى أمريكا الشمالية، وحيوان الرنة حيوان اجتماعى يعيش فى قطعان، وقد اعتبرت الرنة حيوانات ثمينة اقتصاديًا ابتداءً من عام ١٩٨٧ فى الاسكا الغربية.

الصفات التى تنقصنى بما فى ذلك مقاومته للفودكا. لا أستطيع الاستمرار سهرة كاملة بكامل وعى على مائدة الشراب حتى لو كان يجب علىَّ أن أكون فى أحسن حالاتى.

يبقى أننا نحن ـ الاثنين ـ أصبحنا فى الستين من عمرنا وبالتالى فقد أصبحنا فى المستوى الحضيض نفسه. فمنذ ثلاثين عامًا كنا نسعى لتحقيق أحلامنا المرجوة هو لموسكو وأنا لطوكيو. وهناك، فى آخر الخط المستقيم وعلى الطريق الذى بدا ممهدًا فى النهاية التقينا. بالنسبة له فإن السير أليك لا يكف عن الحط من قدره أمام مارجريت تاتشر، وبالنسبة لى فإن القذر جراندين لا يزال ينفث سمومه تجاهى من الإليزيه فى كل مناسبة.

الثلاثاء ١٧ من أكتوبر ١٩٨٩

تنام مينرفا صاحبة ثانى أجمل قوام بالوفد اليونانى مع بات كلاجان رغم رابطة عنقه الخضراء الفظيعة والمنقوشة بالورود والتى تجعل المرء يفقد صوابه. حبهم البرىء ولد منذ أول يوم للمؤتمر هكذا أسر لى هذا الأخير دون أن أسأله استطرد بشكل يوحى بالأهمية أنه حانت اللحظة التى يجب فيها إعادة توزيع الأوراق متذكرًا التصرفات التى أدت إلى توجيه التهم إلينا إبان صداقتنا الحميمة عندما اشتركنا فى الثورة الثقافية ببكين. وأضاف قائلا فى وصف مينرفا: "إن قوامها ممشوق. طالما تدفق صديقك برانكوزى فى هذا اللون البرنزى".

كانت إحدى الألعاب غير البريئة على الإطلاق وفق تأكيدات كلودين هو متابعة أعضاء الوفود لاختفاء كل من مينرفا وكالاجان فى الوقت نفسه. مينرفا هى زوجة أحد أعضاء اليمين اليونانى، فى حين أن كوجان متزوج من وزيرة بالحكومة الأيرلندية الحالية أى من

اليسار. كان كلاهما يشغل منصبًا بروما منذ عدة أعوام. كلاهما فى الخمسينات من العمر و يتبادلان الحديث معا بالإيطالية. أسر لى كالاجان قائلاً من قبيل أن أكون كاتم سر مغامرته: "أنا ومينرفا متقاربان فى بعض الموضوعات فعلى سبيل المثال نحن نفكر، نشعر تمامًا بنفس عبث المهنة التى نقوم بها".

لم أعد أحتمل رؤية من ينفخون فى الحساء هكذا على الملأ صحيح أننى أفعل الشىء نفسه لكننى أفعله عندما أكون وحدى.

أتى أحد ضباط خدماتنا الخاصة ليحضر معنا المؤتمر اليوم. لقد حضر بصفته متدربًا فى إدارة أوروبا". تمويه محكم صنع خصيصا لشاب تجاوز الأربعين. ثرثر كثيرًا مع كلودين التى تعرف أعضاء وفود الشرق أكثر منه بألف مرة. لمحته عصرًا من موقعى وهو يقوم بتصوير مقاعدنا ومنصاتنا من شىء يشبه علبة النظارة . وقد قال لى بشكل متواضع وهو يهم بأخذ إجازة إنه استدل على اثنين أو ثلاثة من الخبثاء المهمين. لم يقص شيئًا على كلودين التى استفاد منها جيدًا أثناء مغادرته الباخرة. أكدت لى كلودين أن هذه المؤتمرات تعتبر بمثابة منجم ذهب لخدمة جميع الدول الأوروبية. فهى فرصة لتحديث أرشيف صورهم يومًا بيوم. ولقلقى من عدم مشاركتى فى إضعاف معنويات جيوش القوات التى معنا امتنعت عن ملاحظة إن محاضرة الوعظ بلندن كانت لها خاتمة.

وفى إحدى قاعات الطعام المجهولة بكارلتون، بادر السير أليك بتنظيم حفل غداء تقليدى وعديم الفائدة لرؤساء الوفود. بدا السير أليك فظًا أكثر من المعهود إذ لم يعر أدنى اهتمام للإنصات لنا أو حتى لمحادثتنا. وبصوت واهن اكتفى بالتعليق بشكل بسيط على بعض الأمور الدنيوية القديمة. هذه المرة لم يشعر كاليجان هذا النائب الموالى للدولة برغبته فى اصطياد الكلمات مثلما يفعل دومًا. وفى المقهى قص هيكى تيومينون تحت إلحاح زميلين أو ثلاثة بصوته الجهورى وبلغة فنلندية سليمة إحدى القصص السياسية المشكوك فى صحتها فهو يمتلك مخزونًا لا ينضب. و يشير إلى أن اسم بريجينيف وهو السكرتير الأول للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى قد ورد فى قاموس صينى يعود لسنوات ٢١٠٠ (*) حيث جاء فى وصفه أنه ظالم سوفيتى من عصر تشاوشيسكو". فى الحقيقة لم يحرك، أى من جريجورى أو ميلسكو ساكنًا.

(*) التقويم الصينى هو تقويم قمرى أى أنه يعتمد على القمر لتحديد بداية ونهاية الشهر، لكل سنة للتقويم الصينى اسم محدد فمثلا السنة الحالية التى هى ٤٧٠٦ بدأت فى ٢٦ يناير ٢٠٠٩ وتنتهى فى ١٤ فبراير ٢٠١٠، ويطلق عليها اسم سنة البقرة. (المترجمة)

الأربعاء ١٨ من أكتوبر ١٩٨٩

شرح لى كارلوس أسرار العلاقة الخاصة التى تربط المندوب السويسرى مع مارجريت تاتشر والتى تثير سخطنا جميعًا. ففى بدايات الثمانينيات، كان زورخر يمثل بلده فى بيونس إيرس. وبسبب جزر الفوكلاند. تأزم الموقف بين بريطانيا العظمى والأرجنتين. وانقطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين فى حين وجدت سويسرا نفسها مكلفة بالدفاع عن المصالح الإنجليزية. وكانت المرأة الحديدية تستفسر دوريا عن طريق الهاتف من زورخر عن الوضع المحلى فى بلاده. هى التى أعطته أخيرًا التعليمات بإعلان الحرب على الأرجنتين. فبدا كمن عاد إلى العصور القديمة بعد أن ارتدى قبعته الداكنة وقفازه الأبيض ليزف النبأ السعيد للوزير المحلى للشئون الخارجية. لم تكن هذه الهيئة سوى إجراء قديم سقط بالتقادم منذ إعلان الفرنسيين و الإنجليز الحرب على ألمانيا عام ١٩٣٩م حيث كان المستقبل مجهولاً.

طلبت من بطل هذه القصة أن يرويها لى بالتفصيل. وقد أتمها عن طيب خاطر دون القيام بأى دور آخر سوى كونه صبيًا مطيعًا. أثناء الرواية ابتسم عندما تذكر أن المندوب السويسرى كان هو آخر من قام بتبليغ إعلان الحرب وفق القواعد السلفية. كانت ماجى تتناول الأمور بجدية أقل. فى المرات الثلاثة التى أتيح لنا مقابلتها كانت تتعلق بعنق زورخر متذكرة فجأة بمرح حربها مع الدول المقابلة لها من الكرة الأرضية والانتصار الحازم الذى أحرزته. كانت أيضًا تستفيد من تلك الواقعة لتتعرف من خلاله على تقدم أعمال مؤتمرنا دون أن تعرف بالتأكيد بأن الحيادية تمنع خلط العلاقات الشخصية بأعمالنا.

و بصوت أراد أن يكون مسموعًا وصف لى وارنر ولدنبرج المظاهرة التى تمت بالأمس فى ليبزيج خارج المكتب فى الكاتدرائية. كانت مظاهرة حاشدة مكونة من ١٥٠ ألف متظاهر. لم يفهم أحد لماذا لم تتدخل قوات النظام على الرغم من كثرة عددهم. و يبدو أن استقالة هونكر المفاجئة هذا الصباح حملت فى طياتها الإجابة حيث كان إجون كرينز، السكرتير العام الجديد للحزب قد بدأ عمله منذ عدة أيام. فى حين أن هونيكر اختار الاشتراك فى اللعبة أو الحوار أو على الأقل يظهر ذلك.

وفقًا لوارنر فإن ما يخص "كرينز" هو عدم اشتراكه فى بناء الحائط عام ١٩٦١م نظرًا لصغر سنه فيما يمثل ذلك الفخر الرئيسى لهونيكر، وكذلك

أيضًا زملاء اللجنة المركزية الذين يريدون أن يحلوا مكانه. فى حين يعد الحائط بمثابة شوكة فى جسد جمهورية ألمانيا الديمقراطية مع سيل الضحايا الذين قتلوا لدى محاولاتهم اختراقه.

وسأل وارنر مباغتًا: ـ هل كان لك تعامل مباشر مع الحائط؟

اعترفت بإهمالى زيارة ثامن عجائب الدنيا منذ ثلاثين سنة.

كما اعترف هو الآخر بعدم اقتناص أوقات الفراغ اللازمة لزيارة هذا الصرح من أوله لآخره.

تتطلب زيارة مائة كيلومترات من الأسياخ الحديدية وقتًا طويلا لزيارتها. بالإضافة لذلك، فقد أعدوا فى كل مكان زوايا و ممرات متعرجة لمتابعة أثر الحدود بدقة متناهية. و كانت تسيطر على هونكر فكرة عدم ترك أدنى قيراط للإمبريالية. كنت مع ذلك أجد نفسى فى برلين الغربية حيث لا أستطيع، كالمراهق الصغير، مقاومة ركوب دراجة فى الزوايا. وفى كل مرة أصاب بالصدمة نفسها لدى رؤيتى الأسلاك الشائكة وكتل الأحجار المتراصة لتقطع بقسوة الطرقات المعتادة. وتشعل لدى الرغبة فى قتل كل ما هو ليس بطبيعى. رغبة عارمة لقتل هؤلاء الجنود المتراصين على الحراسة بطول هذه السدود حيث تقبع رشاشاتهم فى الخصر بينما الوجه متجهم ويشع بالكراهية أو الخوف و الفارق بينهما يسير.

وبهدوء أكثر استطرد قائلاً:

"ليبزيج" مهد عائلتى ومازال بعض أقاربى العجائز يعيشون هناك "على الجانب الآخر" كما يقال عندنا. وتتناوب أخواتى زيارتهم. أما أنا فكان منزلنا قابعًا فى ميدان سان نيكولا حيث نظمت المظاهرة بالأمس. كان مبنى من عصر النهضة و قد هدم فى عام ١٩٤٤م ولكن أعاد الاشتراكيون تشييده وأعادوه إلى سابق عهده. فهو تراث الأمة ولم أعش فيه أبدًا أثناء طفولتى. لأن جدى كان يرفض رؤية ابنه بعدما تزوج من كاثوليكية.

" وفى نهاية السبعينيات وقبل أن يموت أبى آثر أن يصف لى قلب المنزل الذى قضى فيه طفولته. وأوجز قائلا بصوت خافت بالكاد يسمع: " سوف تذهب إلى هناك. سمعت". لم أرغب مطلقًا بأن تطأ قدماى المدينة وإن كان هذا قد يحدث يومًا. من يعلم ما يدخره المستقبل لنا ؟

لم تكن لدى القدرة لإيقاف حماسه بتذكيره بالمظاهرات المخيفة التى اجتاحت ميدان "تين أن من" ببكين فى مايو الماضى. ولا تذكيربما حدث فى الرابع من يونيو لدى وصول الدبابات والألف و خمسمائة قتيل وهو العدد المعلن و عشرات الآلاف من الجنود الذين سيقوا لحتفهم. وغطاء الرصاص الذى تساقط على البلاد لسنوات لا أعلم عددها.

ترفض هذه المذبحة التى تم اقترافها بدم بارد الخروج من ذاكرتى بشكل أقض مضجعى فى الثالثة

صباحا لأعيد فتح تلك الصحيفة محاولا مرة أخرى تفنيد ردود أفعالى التى سيطرت علىَّ آنذاك. فمنذ خمس و عشرين سنة عندما كنت أعمل فى بكين عشت مباشرة فظاعة الثورة الفكرية والإذلالات الشعبية والدمار بشتى ألوانه وحملة الاعتقالات فى الطرف الآخر للبلاد. وتبين لى هذه المرة رفض تلك المذبحة التى تم إقرار تنفيذها بدم بارد أن تخرج من رأسى لدرجة أنها تجعلنى أقفز فجأة من عد العديد من المحادثات التى دارت بينى و بين زملاء وأصدقاء صينيين وكذلك عند رؤية برقيات سفارتنا أننا لا نستطيع أن ننفى أن بكين كانت تتصرف بأسلوب حضارى. وقد عبرت عن وجهة نظرى هذه بصفتى المسئول عن الملف الأسيوى لمن يعنيه الأمر بمنتهى الدقة. ومع ذلك لم يؤنبنى أحد بعد ذلك لإخفاقى.

ولكن ما لم يغفرلى بعد المجزرة هو تشبثى وإصرارى بتسجيل الحدث الدامى؛ حيث أكدت أنه لن يكون ملائمًا إرسال مبعوث رسمى عاجل إلى بكين كما فعل الأمريكان والعديد من الشعوب الأخرى ليفسر أنه لا يجب أن تتأثر ردود الأفعال الرسمية الصادرة عن آرائنا الشعبية بعلاقاتنا الثنائية. أثار هذا الوضع ذو التيار المضاد، الذى تبنيته حنق الصينيين وحدثت انتقادات حادة أساءت إلىَّ من قبل الجماعات مناصرة للصين فى فرنسا. وكنتيجة حتمية لذلك كان لابد من استبدالى بشكل عاجل لإرضاء كل هؤلاء فى هذا العالم الرائع. شريطة ألا يحدث ذلك

فى ظرف من الظروف العادية فمازلت أتصور أن إرسالى إلى أول مؤتمر تلا ذلك كما حدث كانت طريقة قذرة لتنفيذ الحكم.

كثيرًا ما واجهت صعوبة فى تبرير موقفى المتطابق قليلا مع أخلاقيات عالم الحشرات مع أنه كان موقفى الدائم منذ دخولى مجال العمل هذا. وفى قلب هذه الأحداث، والتى كانت قد بدأت فقط منذ خمسة أشهر كانت علاقتى بستسوكو قوية بما يكفى لكى تتابع باهتمام هذه القصة التى كانت تخصنى. فبإصرارها اليابانى القوى استطاعت أن تفهم أسباب هذا السخط الموجود فى حياتى. أدهشنى تفسيرها ذات مساء وهى قابعة على مقعد تحملق فى تلك الصورة الشهيرة لهذا الرجل القصير الواقف وحيدًا أمام مدفع دبابة إذ رأت أن التأثير الرهيب لهذه الصورة هو السبب فى سخطى البالغ هذا. وأمام تشككى إزاء هذا التفسير قدمت تفسيرات أخرى منها ذلك الخجل من كونى حاضرًا الثورة الفكرية دون الأخذ فى الاعتبار تلك الآثار السيئة الناتجة عن ذلك. ولأننى أبديت عدم اقتناعى بما تقول فإنها أنهت المسألة باتهام السن التى جعلتنى أكثر ميلا إلى التراجيديا والموت. كلمات لم تكن حتى وقت قريب تستطيع أن تقولها بهذه الفجاجة سيصبح من الخطر جدًا أخذ الحيطة أمام ما يحدث الآن فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية أيًا كان الوضع. فالمسئولون قد اتخذوا إجراءات انتقامية عنيفة بشكل لم يسبق له

مثيل وإن كانت لا تعجب جورباتشوف. فلا بد أن نتذكر أن برلين كانت أول عاصمة اشتراكية هنأت بكين فى يونيو الماضى "للردع الشجاع الذى شنته ضد القوات المناهضة للاشتراكية".

الخميس ١٩ من أكتوبر ١٩٨٩

لا يبدو أن استقالة هونكر المفاجئة ضايقت زميلنا هانز موللرالذى طالما قال لى إنه كان قريبًا منه جدًا.

وأعلن لمن أراد الاستماع له قائلاً:

ـ أن يحل محله قائد من الحزب أصغر منه فى السن يعد دليلا بالتأكيد على قدرة الجمهورية الديمقراطية لتجديد قواها الإدارية فى الوقت المناسب.

تسببت تعليقاتنا الساخرة حول استبعاد مسئول ألمانيا الشرقية بعد عشرة أيام فقط من الاحتفال بالعيد الأربعين لبناء الحائط فى غضب زوريكا بلافيك اليوغوسلافية حتى النخاع والغريب أنه لدى إنصاتى لخطابها فى أحد الأيام اعتقدت أنها مرحة. وبالتالى كنت مندهشًا من رد فعلها عندما ردت على بجفاء قائلة:

– أتتذكر عندما كنت أعمل فى برلين قلت ما شاء لى من عبارات القدح والذم فى هونكر مما كبدنى حتى الآن الكثير من المتاعب. ولكننى لا أحب مستغلى المصائب. كذلك لا أحد منكم يعلم شيئًا عن خليفته من أنه انتهازى وقذر. ولا يعجبنى السخرية من هانز موللر. ماذا كنتم ستعلنون مكانه؟ ما أسهل أن تجعلك الصدفة تولد على ضفاف نهر السين.

ثم أدارت لى ظهرها:

يعد كارلوس لوبيز ـ جلدوس هو الشخص الوحيد هنا الذى أشعر أننى أشبهه. إذ يمتلك تلك الصفة النادرة فى مهنتنا فهو يأخذ الأشياء الجادة بجدية وهو هادئ.

قال لى ونحن ذاهبان إلى المصاعد: "أريد أن أوضح لك ايها الزميل الفرنسى النابغ أننى متفق تمامًا مع رأى رئيس الوفد الإسبانى."

إننا نتمسك أيضًا فى هذا المؤتمر مثل غيره ومن خلال أحاديثنا الفجائية فى الأوقات الاستراتيجية بإنماء التواصل المقام بين باريس ومدريد. وقد سألنى وارنر سرا مرتين أو ثلاثة فى هذه المسألة. ولم يدهشنى إثارته لهذا الموضوع من خلال برقية إلى بون تساءل فيها قائلاً : هل ستضع باريس طفلاً لحليفتها المفضلة ؟

وبروح التعاون الوثيق هذه بدأ كارلوس مداخلته هذا الصباح بمثل رومانى أؤكد أنه هو الذى اخترعه.

و فجأة اكفهر وجه ميلسكو. فكارلوس الذى كان يشغل قديمًا سكرتيرًا عامًا بالسفارة فى مدريد كان أكثر فظاظة. لدرجة أن أعضاء الوفود أصيبت جميعًا بعدوى إلجامه بنصوص رومانية كما لو كانوا يقذفون وجهه بحبات الطماطم ؟

يعود كارلوس ظهيرة كل يوم جمعة إلى بيته حيث تنتظره سيدة فاتنة ذات اسم يصعب اختراعه مع خمسة أطفال رائعين. حياة يحسده عليها الآخرون.

اتصلت بى ستسوكو. بدا لى اتصالها الرقيق كأنه آت من بعيد. سألتنى إن كنت سآتى إلى باريس أثناء عطلة الأسبوع؟ بالطبع لا فلقد كان لدى الكثير من الأعمال المتأخرة. علقت بإحدى ضحكاتها الصافية التى كانت دائمًا تذيبنى. ولم تلح علىَّ أكثر من ذلك وقبل إنهاء المكالمة أعطتنى إحدى قبلاتها عبر الهاتف حيث أصرت ـ رغم جهودى المبذولة ـ على تسميتها قبلة طفولية.

الجمعة ٢٠ من أكتوبر ١٩٨٩

اتصل بى صباح اليوم السيد هلمونت ليوضح لى أن ترشيحى لطوكيو يعانى من بعض القلاقل. فقد بدأ رجل الإليزيه يمارس ضغوطه بشكل منظم. ففى يوم الأربعاء الماضى وعقب الانتهاء من اجتماع مجلس الوزراء تحدث الرئيس مع الوزير أنه فى حال تطور الأمور للأسوأ فسوف يتم تصعيد الضغوط بشكل كبير، ولن يكون هناك حلول كثيرة أمامى للتبديل. سواء كانت بوينس أيرس او بلجراد أو حتى كامبرا، فجميعهم سواء.

"دائرة العواصم ما زالت منعقدة منذ دخولنا الوزارة" فمنذ أن دخلنا هذه اللعبة، وأنا أشعر أن احتكار السفارات متشابه دائمًا. ومع ذلك فأنا أقبل الذهاب إلى أنقرة وليس إلى بانكوك. وإذا تركت لك كراكس فماذا ستعطينى فى المقابل؟ فنحن نلعب هذه اللعبة منذ أربعين عامًا بمنتهى الأناقة والوقار. وسنظل باقى سنوات عمرنا الباقية ونحن نشعر بحنين لهذا السباق.

فقد استطاعوا بهجومهم المتتالى هذا والملتوى أن يثبطوا همتى. ولكننى إذا انسحبت فى هذا الوقت بالذات سأبدو كمن لا يعنيه الذهاب إلى طوكيو من عدمه. ولكنى لن أعطيهم هذه الهدية.

سيبل هى المترجمة التى قامت بالترجمة من الإنجليزية إلى الفرنسية، إنها شقراء وجميلة وذات قوام ممشوق وفى أواخر الأربعينات من عمرها. وهى دقيقة الملامح بشكل جعلنى أهيم بها. قالت لى كلودين إنها فتاة كندية الأصل وتعرف كل شىء، ولكنها تصيب الرجال العاشقين للمرأة بالإحباط. هى تعيش مع مترجمة أخرى من أصل نرويجى تسمى إلسا. وهى فاتنة أيضًا، ولكن ليس لها ذات الجاذبية كصديقتها. إنهما مترجمتا مؤتمرات ومعروفتان فى هذا المجال ولذلك تجولان العالم حاملتين راية الحب.

وأضافت كلودين قائلة:" الأسوأ من ذلك أنهما تتعاملان مع الرجال ببساطة. وبوجه عام فهما تفضلان التعامل مع الرجال أكثر من النساء، خاصة فى أمور الحديث والعشاء.هما بالفعل مشرقات. كما أن هناك اثنين أو ثلاثة من زملائنا حاولوا أن يقيموا معهما علاقة ولكنهم قضوا بعدها أيامًا مؤلمة. من بينهم واحد تعرفه جيدًا، ولكنى لن أذكر اسمه مهما حدث".

اشتركت كل من سيبل والسا فى جميع اللقاءات تقريبا الخاصة بالشرق والغرب منذ مؤتمر هلسنكى.

فهما تعرفان قواعد اللعبة، وكونتا بعض العلاقات الحميمة مع عدد كبير من مرتادى هذه اللقاءات. كما أن لهما تأثيرًا ملحوظًا على مجريات تلك اللقاءات.

أردفت كلودين قائلة: يجب أن أكون معك وأنت تتعرف عليهما خاصة فى أول لقاء. سأقدمك لهما. ولكن احذر من الخطأ!.

ابتسمت ابتسامة صغيرة على استحياء كمن شعر بالخجل من تلك الجرأة.

وعدت بعمل اللازم في هذا الوقت، ولكن بمفردى كالكبار. فكلودين فى طريقها بالفعل لكى تكون كبيرة.

دعانى جريجورى أخمانوف باسم الصداقة الحميمة بين فرنسا والسوفييت إلى الغذاء فى مطعم فاخر وباهظ الثمن بقلب المدينة. المطعم يشبه المساكن الخشبية التى يقطنها فلاحو روسيا الشمالية ولذلك لم يتسع لوجود كراس أنيقة. كان جريجورى رقيقًا أكثر مما هو متوقع. على الأقل لم يتحدث بطريقة قائد الجيوش. بعد أن بدأ يلمح لى باهتمامه بتقدم مؤتمرنا الخاص بالبلدين عرج سريعًا إلى الموقف فى ألمانيا الديمقراطية بعد استقالة هونكر. أراد أن يعرف مدى استعداد الفرنسيين للتراجع عن خططهم تجاه ألمانيا الغربية واقترابهم من الفريق الجديد لجمهورية ألمانيا الديمقراطية وهكذا عدنا إلى الترنيمة الرئيسية على لسانه وهى: "الاهتمامات المشتركة

لبلدينا" و"العلاقات الحميمية بين فرنسا وروسيا". لم يلحظ أننى لم أتكلم، بل آخذ وقتًا طويلاً للتأكد من أننى لا أعرف شيئًا عما يكتب فى الصحف.

بدأ يشير إلى الأيام الماضية. كان يعتقد أن المهام الفرنسية الخاصة وضحت لى أهمية وظيفته كمشعل للقذائف فى إفريقيا: بدءًا من غينيا وصولاً إلى المستعمرات البرتغالية. لا داعى لإزعاجه إذًا؛ فهو عندما يتذكر هذه الأحداث يبدو وكأنه قادم من عالم تسوده البساطة. كان مقتنعًا بشدة بأن الاتحاد السوفيتى فى هذه المرحلة استطاع إنقاذ السلام فى هذه المنطقة من الكوكب.

إن أكثر ما يهمنى هو معرفة إلى أى مدى وصل تفكيره هو وأمثاله حتى يغيروا حقيقة ما حدث فى موسكو فى تلك الفترة وفى البلاد المجاورة. على الأقل لاحظت عصبيته الشديدة. هذا هو حال أمثاله تقريبًا ولكن المخابرات الروسية تعلمهم كيفية لبس الأقنعة لإخفاء ما بداخلهم.

اقترح علىَّ الركوب معه فى السيارة للذهاب إلى وسط المدينة قائلاً:

لا أحد يستطيع مقاومة ركوب سيارة زيل ١١٩تانتال.

ولكننى رفضت. نأكل معاً ممكن، ولكن الركوب معه أيضًا فى الليموزين. هذا كثير.

السبت ٢١ من أكتوبر ١٩٨٩

لدى مرورى بمركز المؤتمرات الخاوى، لاسترداد رسائلى البريدية قابلت كوريوليس الذى لا مثيل له حاملا بين يديه منشورات منظمته، ممثلون بلا حدود. و قد ألقى بنفسه علىَّ كالسهم. فحماسه و جنونه مألوفان لدرجة أننى تركته يسترسل فى قصصه أمام ماكينة القهوة بالصالة. ففى الستينيات عندما كان معاونا فى سفارتنا بأديس أبابا، أنشأ فرقة مسرحية وأخرج مسرحية روى بلاس(*) التى أدت إلى مأساة. فلقد قام بدور روى بلاس أحد أعضاء الدبلوماسية الأثيوبية فى حين لعبت سفيرة فرنسا دور الملكة. تم عرض المسرحية بنجاح عدة مرات أمام صفوة العاصمة. ولكن تقمص البطلان دورهما بشدة وهربا إلى أوروبا ليصنعا حياتهما معًا.

(*) روى بلاس: مسرحية للكاتب فيكتور هوجو نشرها عام ١٨٣٨م وفيها يقوم البطل روى بلاس باستخدام ذكائه ليحظى بحب ملكة إسبانيا (المترجمة).

متقمصًا دور شخص مسرحى قدير، اقترح كوريوليس على هامش المؤتمر، أن يقدم الفرانكفونيون مسرحية على خشبة المسرح ولتكن لـ... لاأدرى.

تركته لتخيلاته وانصرفت.

رسالة محملة بالشوق والحنين من العجوز رانكور التى كانت تتناقض كلية مع أحاديثه الفجة الأسبوع الماضى. كانت الرسالة تقول أنتم متميزون أنتم وجيلكم لرؤيتكم تفكك عالم كرهه سابقوكم دون القدرة على تغيير أى من قواعد اللعبة. استمتعوا بفرصتكم، وشكرًا للنظر إليه مرتين قبل إيقاف مبادئ سير العمل فى العالم القادم. تذكروا جيدًا: يالطا لم يكن قدرًا محتومًا، ومع ذلك صارت البداية والنهاية لخمسين عامًا.

الأحــد ٢٢ من أكتوبر ١٩٨٩

تصالحت مع اليوغوسلافية أمس بالمصادفة على الإفطار. فلدينا نحن - الاثنين - عادة الاستيقاظ مبكرًا. عندما لمحتنى أدخل قاعة الطعام الضخمة التى مازالت خاوية حتى تلك الساعة، أشارت إلىَّ بالجلوس على طاولتها.

وأردفت قائلة، أرجو أن تكون قد نسيت ردود أفعالى ذلك اليوم. الشىء الغريب أننى أكره بشدة وربما أكثر منك صغار الرؤساء هؤلاء العاجزين والمستبدين فى الوقت نفسه. لأننى ببساطة أعلمهم جيدًا. ولكن يبدو الأمر كما لو كنت تنتمى لعائلة تمقتها، فلا يسع الغرباء إلا أن يبتعدوا عنها. سيؤدى بنا هذا المؤتمر فى النهاية إلى الإصابة بالجنون. فنحن هنا نتقاضى رواتبنا مقابل الجلوس على مقاعدنا وإظهار الاهتمام. أعتقد أنه بسبب ذلك نشعر بعدم الرغبة فى الخروج حتى فى العطلة الأسبوعية.

ابتسمت زوريكا بلافيك ابتسامة باهتة، مما جعلنى أقترح عليها قضاء بقية اليوم معًا ونذهب لاستكشاف منطقة جديدة فى لندن.

ولدى حلول المساء بدأنا بحضور مسرحية كوميدية غنائية تعود لحقبة الثلاثينيات. وانتهينا بمقابلة كوريوليس. فى فترة الاستراحة قدم لنا شابة رائعة الجمال تدعى مارى أو جان لا أتذكر. كانت تبدو و كأنها هاربة من إحدى روايات أخوات برونتى(*). ثم أردف قائلا بفخر:

"زميلة".

أمر الذى جعل زوريكا تبتسم.

إنها تقدم أدوارًا على مسرح إيست إند بأولد نايك. تقدم مسرحيات لبيكيت وشكسبير وغيرهم. مكان رائع هنا لا يوجد مثيل له إلا فى هذه المدينة. حيث يوجد تفاعل رائع بين الممثلين والجمهور.

(*) الأخوان برونتى (Bronte Sisters) هن ثلاث كاتبات شقيقات إنجليزيات «شارلوت برونتى» و «إميلى برونتى» و«آن برونتى» من أب أيرلندى هو باتريك برونتى، مارس عمله كقس بين عامى (١٨٢٠ ـ ١٨٦١م)، وقد عشن فى قرية منعزلة هى هوارث فى منطقة يوركشير الإنجليزية، ونشرن قصائدهن فى البداية بأسماء مستعارة لرجال الأرض لأين أن النقاد الرجل لن يتعاملوا بجدية مع كتاباتهن. تُعد أشهر روايات «شارلوت برونتى» رواية «جين آير» ١٨٤٧، وكتبت آنى برونتى رواية «أجنس جراث التى لم تلفت الانتباه، اما أشهر الروايات للأخوات برونتى فهى الرواية الوحيدة التى كتبتها «إميلى برونتى» طوال حياتها وهى «مرتفعات ويزرنج» وقد تحولت إلى افلام سينمائية، وترجمت إلى العديد من اللغات وتُعد واحدة من أهم الروايات الكلاسيكية فى العالم.

واقترح علينا تناول الحساء معا بعد العرض، ولكننا تركناه وانصرفنا. وخلال عدة ساعات لخصنا حياتنا فى عدة عناوين رئيسية. كانت زوريكا تخوض معترك الحياة، والتى عشتها أنا بشكلها الطبيعى والمنطقى. ففى الوقت الذى بدأت فيه حياتها بالهروب من النازية عبر جبال الصرب بصحبة أهلها كنت أنا فى قبو منزلنا القديم بملابس اليابانيين.

استكملنا رحلتنا يوم الأحد حيث استقلينا مركب "باتوه موش" المكشوف نعم لم تكن لندن بالنسبة له جحيمًا كاملا. لم نتحدث أثناء العطلة الأسبوعية، ولو مرة واحدة عما يجرى حاليًا فى أوروبا. تبادلنا الأحاديث والقصص كما لوكنا صديقين قديمين، تاه وبعد كل منا عن الآخر منذ زمن طويل. وفى حديثها فضلت أن تتكلم عن موضوعات مثيرة وقديمة، وإنها حقًا تمتلك موهبة فردية للانتقال من النبرة الحادة إلى النبرة الساخرة. إنها طريقة أستخدمها أثناء خطاباتى ولكن دون الوصول لدرجة الحدة التى تستخدمها هى فجأة. لأنه إذا كان كل منا، مثل الآخر لديه قناعاته البسيطة عن النفس البشرية فإنها تختلف عما فى كون أن لديها يقينًا متنوعًا عما قد يتناسب مع الإنسانية.

تمتلك زوريكا جاذبية وإغراء شديدين فهى طويلة وواثقة من نفسها بالإضافة إلى كونها هادئة ومريحة وعندما تستمع إلى أحد فإنها تنظر اليه بعيونها الخضراء الجميلة هذه؛ الأمر الذى قد يربك محدثها.

أما شعرها فأحيانًا تترك منه خصلة على جبينها، وأحيانًا ترفعه إلى أعلى رأسها على شكل شينيون أعتبره أنا موضة بالية. تساءلت أثناء استراحة الشاى قائلة" لم أعد أعلم إن كنت ما زلت أحب الرجال أم لا لم تكن أبدًا بمثابة دعوة لشىء ما بل كان مجرد تساؤل ربما نسيت أن تطرحه على نفسها منذ زمن بعيد وألح عليها الآن فجأة.

امتنعت عن مساعدتها لإيجاد إجابة ، فضلا عن أنها لم تطلب ذلك منى . وبعد يومين من الجرى هنا وهناك شعرنا بالإرهاق الشديد قررنا الذهاب إلى غرفنا فور العودة إلى كارلتون .

أثناء عطلة نهاية الأسبوع تذكرت ابتسامة ستسوكو، وشعرت أنها تتسلل إلى مسام جلدى برائحتها الذكية. الخلاصة إننى بدأت أحلم بجدية فى إجازة بتوسانت الباريسية.

الإثنين ٢٣ من أكتوبر ١٩٨٩

انتابنى شعور بالضيق هذا الصباح عندما تذكرت أننى سأقضى يومًا جديدًا محبوسًا فى قاعة أنصت فيها إلى الخطابات. من شدة ضيقى تصورت أن سفينتنا الكبيرة ناصعة البياض بدأت تأخذ شكل السفينة الحربية. ماسوشيتى تتمثل فى جلوسى هنا على المقعد، فى الوقت نفسه الذى يترك فيه بعض رؤساء الوفود أماكنهم لنوابهم. من غير المعقول أبدًا أنى لا أستطيع الانفصال عن هذه القصص التى لاتعنينى لا من قريب ولا من بعيد.

دائمًا ما يتفادى كل من ورنر ونظيره الألمانى الشرقى رؤية بعضهما البعض عندما يجلسان فى مكانيهما جنبًا إلى جنب. من الصعب تخيل العلاقة القائمة بين ممثلى الألمانيتين فى بلد واحد. عمليًا هذه العلاقات غير موجودة كما أكد لى الزملاء فى ألمانيا الغربية، وقد أعاد وارنر التأكيد بدوره على ذلك، بل إنه يمزح أمامى ساخرًا وملقبًا إياهم بـ "ألمانيون لنا".

طالما شعرت بالأسى رغم كل شىء. إنه الأسى من تصور أن هناك رجالا يتحدثون لغة واحدة ويشتركون فى عادات وتقاليد شديدة التقارب ورغم ذلك يتجاهل كل منهما الآخر عندما تجمعهم الظروف خارج البلاد. قديمًا قال لى زميل ألمانى عندما لاحظ فضولى الشديد تجاه هذه المسألة: "تخيل أن هتلر انتصر فى الحرب صحيح هو احتمال عبثى وليس منطقيًا، ولكن اسأل نفسك عما كنت سترويه وأنت السفير الفرنسى لزميلك من جزيرة فرنسا النازية؟"

– ليس لأن جارك أعاد طلاء مسكنه فإن عليك أن تفعل مثله.

استعارت كلودين هذه العبارة من ألمانيا الشرقية للتعبير عن وضع المتظاهرين فى ليبزيج، وكذلك ما يحدث الآن فى برلين التى تطلب تطبيق البريسترويكا لديها.

ثم علقت قائلة: عندما تخرج الحماقات من فم رجل نابغ مثل هانز موللر فهذا أكبر دليل على اضطراب السلطات.

لأن هذا الـ"موللر" هو كل ما يريدوه فهو ليس أحد الرءوس المتحجرة الموجودة فى اللجنة المركزية فى الحزب ببرلين.

رغبة منها فى شكرى على قضاء عطلة نهاية الأسبوع فى طرقات لندن تعمدت زوريكا أن تثير حنق ميلسكو عن طريق تناولها نص لـ" شاعر رومانى لقى

حتفه بالسجون الفاشية". ولأول مرة نرى تكشيرة كبيرة تعلو وجه ميلسكو.

لم يتوقف القس ماشيولى عن الكتابة منذ افتتاح جلستنا دون أن يصيبه الإرهاق أثناء جلوسه خلف لافتة سان سياج أو الكرسى البابوى. من وقت لآخر كان يأتى ببعض كتب اللاهوت ينقب فيها خفية فى الوقت الذى كنا نناقش فيه للمرة الألف مسألة تصاريح الصحفيين أو تليفزيون بلا حدود. ضبطت "كراتاويسكى" أكثر من مرة وهو يبتسم أثناء إيماءته من بعيد لكتلة أوراق " اقتصاد الخلاص البشرى" الموجودة أمام القس.

بينما كنت أتحدث مع الألمانى فى البار فاجأنى كلاجان من بعيد بابتسامة ودودة، ملفتًا نظرى بإيماءة من رأسه إلى مؤخرة معشوقته. كانت قابعة على مقعد صغير بلا ظهر أو مساند. بينما بدت محشورة فى بنطلون غاية فى الضيق من الدانتيل الذى بالطبع لا يتماشى معها. هذه المنطقة تحديدًا فى جسدها قد أخذت كل العناية ليس فقط عناية مقص الترزى، ولكن أيضًا عناية كل عين تقع عليها حتى لو كانت عين مولود. فى النهاية تحدث وارنر بلغته الخاصة عندما لاحظ نظراتنا قائلا:

إنها مؤخرة فينوس.

يقولون إن نظيرى فى بون من أكثر العالمين بهذه الأمور، إذ هو شديد الشغف باليونان حيث كان سفيرًا فيها بل ويمتلك منزلاً هناك.

يحرز النص الذى أودعه البولنديون حول الإسراع فى منح تأشيرات الصحفيين تقدمًا كبيرًا. بالطبع أعلن المجريون والروس موافقتهم على البند الذى ينص على اتخاذ إجراءات خاصة فى حالات الطوارئ.

يمكن أيضًا تفهم لماذا يعارض زملاؤهم الصغار من البلغاريين وآخرين غيرهم هذا التخاذل. عموما من الأفضل مناقشة الملف علنًا.

لا يملون التكرار فى ميدان بوفو إذ ظلوا يتناقشون قائلين:

"وإذا تنكر الجواسيس فى هيئة صحفيين، وإذا وإذا وإذا....."

فرددت عليهم فى جملة واحدة استحققت عنها المديح:

"وإذا استغلوا أية مناسبة تاريخية لفتح بعض الفتحات فى جوانب الحائط؟"

كانت جميع إجاباتهم على سؤالى هذا تصب فى كونى شخصًا ساذجًا. أتصور أنه على مسئولى الملف الأوروبى فى الخارجية أن يشاركوا مسئولى الداخلية فى اختيار الألفاظ المستخدمة.

رويت لصديقى كارلوس عن زيارتى للندن بصحبة زوريكا بلافيك، أثناء عطلة الأسبوع الماضى. كنت أعلم أنه تعرف عليها عندما كانوا رقم ٣ فى وفدهم الموجود فى نيويورك. فى ذلك الوقت، أكد لى أن لغتها كانت حادة وقاسية كانت دائمًا تتحد مع الجزائريين والهنود

فى توجيه الانتقادات الحادة لحساب سياسة عدم الانحياز ثم فجأة بعد مرور عام على هذه الواقعة وجدها وقد تحررت من كل ذلك. لم يكن ذلك ببعيد عن وفاة تيتو، إذ يبدو أنها انتبهت فجأة إلى أن بلدها أصبح بعيدًا عن الالتزام بأى إصلاحات إيجابية وأنه غارق فى مشكلاته الداخلية المعقدة والمبهمة.

الثلاثاء ٢٣ من أكتوبر ١٩٨٩

فى صباح هذا اليوم كعادة كل يوم ثلاثاء وجدت طردًا فى بريدى الخاص. إنه الطرد الذى يرسله ميلسكو الضخم لكل رؤساء الوفود. والذى يحتوى على النص الكامل لخطابات تشاتشيسكو التى ألقاها خلال الأسبوع المنصرم ومصحوبة بترجمة فرنسية رائعة. كانت خطبة هذا الأسبوع تقدم الدعم الرومانى للنضال الرائع للقوات الأنجولية كما تضمن أيضًا مشروعًا يهدف إلى القضاء على كل القرى واستبدالها بمدن مجهزة بالماء والغاز. يرافق الطرد فى كل مرة، كارت مدون عليه بخط متناهى الصغر لا نعرف إذا كان لصاحبه أو أحد أعوانه: مع أفضل تمنيات رئيس وفد الجمهورية الاشتراكية الرومانية.

أخذ لورو يلوح بشدة بكتلة الأوراق هذه قائلا:

" لا نعرف شيئًا على الإطلاق" فكثيرًا ما تختبئ المعلومات المهمة فى ثنايا هذه الخطابات المتداخلة" .

منذ مدة طويلة لم أعد أهتم بمبادراته التافهة بمبادرات الآخرين ولا تعليقاتهم.

أنقذتنى إيفا بنجستون من التعديل الذى طلبته منى الإدارة بشأن مناقشة القوانين التقنية الخاصة بالإعلام المرئى، والتى كانت ستعتبر بمثابة ضربات تحت الحزام لدول الشرق ولبعض أصدقائنا القدامى من الدول الصناعية بابتسامتها السويدية الناضجة والتى هى طبيعية أكثر منها استطاعت إنقاذ الموقف من مأساة حقيقية كعادتها دائمًا. لقد استطاعت التوصل إلى نص يرضى جميع الأطراف.

أكثر ما يزعجنى فيها هى طريقة نطقها لكلمتى نعم ولا. وكذلك حيادها القديم ورأيها فى عدم الانحياز. ولكن رغم ذلك يجب التعامل معها لتتجزأ ما لدينا. نحاول فى اجتماعنا هذا، استغلال الميزانية المتواضعة التى آلت إلينا. من وجهة النظر هذه، نحن نعمل بشكل أفضل من السويديين. فعلى سبيل المثال، لدينا عروض لكى تشارك فرنسا فى حلف شمال الأطلنطى.

من فوق مقعده كمسئول عن الملف الأوروبى أخذ بورلييه يهاجمنى. فى الحقيقة أن كلانا يكره الآخر منذ التحاقنا بوزارة الخارجية. ولذلك فأنا أكره تلميحاته بينما يكره هو ما يسميها بسذاجتى. فى اجتماع بعد الظهر لدى السكرتير العام، أبلغنى زملائى الصغار أنه يقول بعض الملاحظات المحبطة حول تقاريرى التى أرسلها بالفاكس. وأيًا كانت

مميزاتى فهو يرى أننى أحكم سريعًا على من امامى بالتالى فإنه ينقصنى إقامة علاقات ودية معهم. بل الأفظع من ذلك أننى أكره مقالات هؤلاء الصحفيين الذين يصورون جورباتشوف على أنه حصان طروادة للديمقراطية الأمريكية فى الاتحاد السوفيتى. باختصار كان من الأفضل إنهاء هذه المناقشة العقيمة.

ولكن ما أدهشنى أننى لم أرغب فى إنهاء هذا الاجتماع. فقط لإزعاج بورلييه، فأنا على استعداد لفعل الكثير من أجل إزعاجه. فيجب علىَّ أن أعترف أن ما بدأ يحدث أمامى أصبح يلفت انتباهى ويسلينى. سأكتب فى ذلك كلمات كبيرة...! إنها طريقة التاريخ دائمًا فى كشف الأشخاص الذين يعهدون إليه طوال قرن أو اثنين بسلب حكمته من المراقبين الأكثر فتورًا.

هارى ماكس نفسه سأل أثناء الاجتماع عما إذا كان هناك شىء يحدث فى بلاد السوفييت أم لا. إنه يحضر اجتماعاتنا فقط لفهم ما يحدث فى القارة الأوروبية. هل هى الصدفة التى قذفت به إلى هنا؟ فى الصباح قال لى وهو مهموم بعد أن تأكد أن المسألة جدية:

"أعتقد أن واشنطن لم تأخذ تدابيرها لما يحدث هنا."

كدت أنسى تدوين أن سفينتنا الجميلة توقفت قليلا عن رحلتها بسبب حادث عارض. فبعد إحدى

الجولات التى لا أتذكرها قررت الإدارة القيام بعملية تدريب على إخلاء المكان. طلب ماركوس شوستر تولى القيادة بصفته سكرتير عام المنظمة.

لدى سماع صافرات الإنذار ترك الجميع مقاعدهم وهرولوا نحو مخرج الطوارئ. فبعضهم لم يستطع مقاومة محاولة إحضار أمتعتهم، فى حين كان يتعين بقاء عضو من كل وفد فى القاعة. كان شوستر يعطى أوامره و قد اعتلى مقعدًا بينما طارت إحدى خصلات شعره فى الهواء. فى حين كان هيكى تيومينن يجر قدميه الثقيلتين، وهو يردد أن ما حدث ما هو إلا مؤامرة من جريجورى لإفساد المؤتمر.

كان الطقس شديد البرودة فى الخارج. وقد انتظرنا وقتًا طويلاً فى تلك الحديقة المتواضعة التى تحيط بالمبنى، وكانت فرائصنا ترتعد تحت معاطفنا الثقيلة فى الوقت الذى وقفنا لنتذكر الكوارث المختلفة التى مرت علينا. الغريب أننا جميعًا أخذنا نقص كوارثنا فى الوقت نفسه. وعلى مسافة قريبة منا كان القس ماشيولى غارقا بهدوء فى قراءة كتاب صغير لايبدو عليه إنه كتاب الصلوات اليومية ومثله فى هذا الهدوء كانت سيبل والسا اللتان كانتا تلتفحان بفراء فضى سبق وارتدياه فى أحد المؤتمرات الشمالية، كانتا تتهامسان بصوت يسمح بالحفاظ على المسافة بينهما وبين مدرائهما.

بصوته الخافت ظهر أخيرًا شوستر على درج السلم معلنًا بجدية شديدة انتهاء العملية. وأضاف

السير أليك الذى أصابته عدوى الصوت الخافت نفسها قائلاً: "انتهت على خير ما يرام." وبكل لباقة دعانا إلى استعادة أماكننا.

عندما اتصلت بستسوكو لنلتقى فى باريس أثناء العطلة، أبلغتنى أنها ارتبطت بقضائها فى اليونان عندما لم أتصل بها. أضافت قائلة: "فرصة جيدة لأكتشف أخيرًا هذه المدينة، مع عدد من الأصدقاء الذين يمتلكون منزلاً رائعًا وفى موقع خلاب على الجزيرة.

أعشق طريقتها الباريسية وهى تقول كلمة رائع.

لا مفر إذًا من إلغاء تذكرتى لفرنسا رغم أن المؤتمر سيوقف أعماله لمدة أسبوع. ولكن إما ستسوكو وإما لا. فلا يزال الوقت أمامى طويلا لأجد ما أبحث عنه.

الأربعـــاء ٢٤ من أكتوبر ١٩٨٩

كابوس مرعب يدعو للرثاء فقد بدت قاعة المؤتمرات كما لو كانت معدة لإجراء سباق من نوع خاص. كان كل نائب يرتدى ما يشبه الرداء، الذى يحمل رقمًا على الظهر وذلك فوق ملابسهم الاسموكينج، وكان السيد أليك بوشاحه المزدوج حول عنقه يقوم بتقريب أو إبعاد الشخص الذى يريده بنداء قوى فيما ظللت أنا عاجزًا عن فهم قواعد اللعبة. فمنذ البداية كان كل من جريجورى وهيكى يمسكان بزمام وقد امتلأ كل منهما بكراهية شديدة تجاه الآخر. كنت أحاول اللحاق بالمتبارين أثناء سيرى خلف بات كالاجان وصديقته مينرفا. إلا أننى لم أستطع الإسراع من خطاى أكثر من ذلك رغم محاولاتى المبذولة والتى باءت بكل فشل. وفجأة اشتعلت رغبتى عندما رأيت مؤخرة مينرفا تتهادى أمامى لتستقر عليها يدى فى النهاية قبل أن يلتفت إلى كالاجان مكتشفًا فعلتى الشنعاء فيرمقنى بنظرة نارية جعلتنى أتصبب عرقًا.

قرر ديديه بيرلات أخيرًا - والذى تلقبه كلودين بشبح الوفد - الظهور. أكد لى الجميع فى باريس أن بيرلات هذا هو سكرتير عام نقابة أرباب العمل فى الصحافة الباريسية وأنه كان يلعب دورًا خفيًا ولكنه حاسم. كما أنه كانت لديه مداخلاته فى لجنة بروكسل وكثيرًا ما التقى نظراءه من الدول الغربية الأخرى. كان ذكيًا وواثقًا من نفسه و غاية فى الجاذبية حيث زارنى فى مكتبى زيارة خاطفة فور نزوله من الطائرة. من يعلم خلال معاونيه آخر ما وصلت إليه أعمالنا بالتحديد. حيث هنأ نفسه بحصول الصحفيين على تأشيراتهم وأعمالهم فى الشرق بعد سقوط الاشتراكيين فى فخ البريسترويكا التى ينتهجونها. ثم لخص ذلك قائلاً: "للأسف فإن كل ذلك لن يذهب بعيدًا."

قال لى خبيرنا الصحفى كوجلمان إن استفادة بيرلات الوحيدة من المؤتمر وزملائه الأوروبيين هو أن يلتقوا. و بدعوة من رؤساء الصحف البريطانية تناول هذا الحشد الصغير عشاءه فى نادى بـ"مايفير". كعادته دائما فى تقليد الممثلين المسرحيين ألقى السير أليك بعض الكلمات التى تجعل مستمعيها يتصورون أنهم على درجة كبيرة من الأهمية خاصة بعد العودة إلى بلادهم.

سخر كوجلمان مما يحدث قائلا: إنهم يتابعون بشغف كل ما يحدث أمامهم تمامًا مثلما يحدث فى كل مؤتمر. كان كوجلمان يكره المؤتمرات هو الآخر مثلنا وبخاصة المؤتمرات الباهتة مثل مؤتمرنا هذا.

ارتكب ميلسكو أخطاءه السابقة نفسها عندما انخرط من خلف لافتة رومانيا فى مهاجمة وسائل الإعلام الغربية الدنيئة التى تحركها حكوماتها. ولدى عودته إلى جلسة بعد الظهر استحق من وجهة نظرى أن ينطبق عليه المثل الرومانى القائل: "إنك تستطيع ان تقتل رسول الحقيقة الذى لا يسمع صدى لخطواته لاصدى خطواته. لم يكترث القذر بتدوين هذه الجملة التى تستحق بالتأكيد التفسير.

ورغبة منا فى إضفاء بهجة على رتابة الأجواء التى نعايشها حاليًا اعتدنا التحدث مع كارلوس فى الردهة باعتبار أننا نفشى أسرارًا ما.

شرح كارلوس المسألة قائلاً: ـ "أريد أن أحتفى بزميلى الصينى، ولكننى لم أجد مع الأسف سوى السفير الفرنسى ليساعدنى بلكنته الصينية السيئة التى تعلمها فى شنغهاى فهل تعلمون شخصًا آخر يساعدنى ....

لديه كل الحق فى هذه النقطة تحديدًا فمرات قليلة تلك التى أتيحت لى فيها فرصة الحديث بالصينية منذ عودتى من هناك منذ قرابة العشر سنوات. لذلك فلابد وأن أتلعثم أمام شخص يتحدث الآسيوية بطلاقة مثل كارلوس.

ثم قال فى فرنسية ركيكة يعشقها:" إذا أراد مؤتمرنا أن يوصد أبوابه مبكرًا. فإن علىَّ إهداء التاج الإسبانى لبكين."

في الحقيقة تعد فرص توليه منصبه هناك ضعيفة جدًا فوزير خارجيته يمقته لأسباب سياسية غامضة مع الأخذ في الاعتبار أيضًا سنه تصبح تلك هي فرصته الأخيرة تمامًا كما هو الحال معي في ترشيحي لطوكيو.

حدث نزاع ساخر بيني وبين لورو الصغير؛ حيث كان يأمل في ألا يصبح لي حق الموافقة على نص البيان الجديد والذي لا اعلم عدد بنوده التي ستناقش ثم أعلن لي بزهو قائلا:

وها نحن ما زلنا نديره بشكل رائع. ربما تتفوق علينا بعض الدول أحيانًا."

انهلت عليه بالسباب، ولكنه لم يبد أي رد فعل ولا حتى الحزن بشكل آثار السخرية. لم تأتِ كلودين هذه المرة لإنقاذه.

بسبب الجلسات التي لا معنى لها، والتي تنعقد صباح مساء نلاحظ إصابة من يستعصي عليه النوم بنفس ردود الأفعال فعلى سبيل المثال هذا الجفاف الذي يعاني منه كالاجان و ماشيولي و ميلسكو لدرجة أنهم يسكبون زجاجات المياه المعدنية في جوفهم دفعة واحدة بالطريقة نفسها. أما وارنر و السير أليك وميلسكو أيضًا فقد أصيبوا بعدوى التثاؤب. ولاداعي للتحدث عن الأعداد الكبيرة التي لا تستخدم كل عضلة من عضلات وجهها ومن بينهم ميلسكو بالطبع. يقبع ميلسكو تحت أنظاري. فطريقته الأخوية في

التعامل تعبر الحدود والحواجز السياسية بالإضافة إلى الملف الذى يحمله، والذى يبدو أرفع من وحدة قياس الفراغ.

وفى خفل الاستقبال الذى دعانا إليه عمدة لندن وبينما كانت كئوس الخمر البلغارى السيئ فى أيدينا التقينا بنظيرتنا اليوغوسلافية، وتحدثنا لأول مرة عن الوضع فى أوروبا.

فى الحقيقة لم يحدث شىء وفقًا لرؤية "زوريكا بلافيك" فما حدث فى الشهور الأخيرة فى كل من بولندا والمجر افقد حكام الشرق عقولهم فلقد اعتادوا على تدخل السوفييت فورًا فى حال حدوث أزمة داخلية. وهم يعلمون مقدمًا أنه ما دام جورباتشوف تولى الإدارة فسيبذل قصارى جهده لتكون بلاده وهى الشقيق الأكبر بمنأى عن شئونهم. لقد أخذوا احتياطاتهم فى مواجهة القلق المتوقع حدوثه فى قطاعات واسعة بين شعوبهم. بقى أن ينشروا أجهزة عسكرية بشكل دائم وكذلك قوات مسلحة على أعلى درجة من التجهيز وأخيرًا إقناع الطبقات العاملة بأن لديها ما تحميه وتحافظ عليه. حيث لا يمكن التغاضى عن إمكانية الاستيلاء على السلطة بالقبضة الحديدية فى كل من ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وغيرهما. شريطة أن يظل الحكام متصورين أنهم لا يزالون يتمتعون بالشرعية. فالأمر ليس بالشىء الصعب.

وفى محاولة منها لتأكيد ما تقول اكدت فجاة أنه لا يمكن لأحد إنكار التقدم الذى طرأ على الجمهورية

الاشتراكية منذ عام ١٩٦٠م وإلا أصبح مريضًا بمعاداة الاشتراكية والدليل على ذلك هو اختلاف شكل التصويت فى الماضى عنه الآن ولعل صحف العالم كلها قد أبرزت ذلك.

ثم أردفت قائلة:

"ليس عجيبًا أن تقابل ما أقوله بضحكة صغيرة مهذبة. ولكننى أجد حميمية أشد مع زميلنا الرومانى الذى يعلم أنه لن يعيش هذا الواقع وحده.

ظللنا نتحدث لفترة طويلة إلى أن جاء موللر كما لو كان عضوًا فى جهاز الحزب الاشتراكى السوفيتى ليختطفها منى بغيظ شديد؛ لأنها تحدثنى على انفراد. أعتقد أنه لا يزال أمامنا الكثير لطى صفحة الخلاف بين الشرق والغرب.

منذ عودتى إلى باريس، حاولت عشرات المرات أن أعاقب نفسى على الطريقة اليابانية. وبذلت فى سبيل ذلك جهودًا مضنية ولكنها باءت بالفشل. أشعر بالتراخى وعدم الرغبة فى فعل أى شىء. يجب أن أعترف أننى أقوم بتحركات شخصية إزاء ما يحدث هنا. صحيح أنها لا تعنى شيئًا، ولكنها تحركات مع كائنات حية.

الخميس ٢٥ من أكتوبر ١٩٨٩

ثمة مشكلة رئاسية خطيرة اندلعت بين السير أليك وتيد جاريسون. فالطبيعى أن يضطر تيد لترك مقعده للسير أليك عندما يبدأ هذا الآخر فى الحديث مترجلا، ولكن اختيار التوقيت هذه المرة كان سيئًا إذ كان تيد منهمكًا فى حل خلاف نشب بين اليونانيين والأتراك؛ حيث يسعى دائمًا إلى إقناعهم بأنه متمسك بهم وبصداقاتهم. انتظر سير أليك أن يخلى تيد مقعده ولكن دون جدوى مما اضطره إلى العودة إلى مكانه دون أن يستطيع اخفاء غضبه.

قال لى تيد: "لو كان يصطاد الثعالب لأظهرت له تضامنى فى الوقت الذى كنت سأختبئ فيه خلف الأسوار لإصابته."

عن طريق كلودين قمت بدعوة المترجمتين سيبل والسا على الغداء. حيث تحب أن تلقبا بـ" محنكتى لقاءات الشرق والغرب." كانتا قد تعرفتا فى مؤتمر هلسنكى. "كانت تبلغان من العمر فى ذلك الوقت

خمسة وعشرين عامًا". فهما شاهدتان على خمسة عشر عامًا من "حوار الطرشان" الذى قام بين الكتلتين منذ ذلك الوقت.

وأشارت سيبل قائلة: يبدو لك أن مصطلح "حوار الطرشان" مصطلح ساذج، ولكنه بالنسبة لنا يكفى لكتابة أبحاث عن الموضوع بعد أن قمنا بترجمة ملايين الجمل عن ذلك.

تبادلت السا وسيبل النظرات ثم انفجرتا فى الضحك. وبناء على تحذيرات كلودين لم أهتم طوال الغداء إلا بروحهما. ومع ذلك لم أستطع الامتناع عن فحص وجنتى السا الرائعتين. إنها نرويجية فاتنة.

قبل أن أسألهما قالتا لى إنهما تأثرتا بشدة من اليابانيين وأنهم ساعدوهما على المزيد من التحضر.

استغللت الفرصة للتغزل فى الوجوه الآسيوية باستخدام كل الاستعارات المكنية.

- لأن السفير يعلم الملف جيدًا لم يستطع الامتناع عن إرسال كلودين.

أجد كل يومين أو ثلاثة أيام حيلة للإشراف على تقدم المؤتمر مع السكرتير العام.

يعلم شوستر الكثير عن الموجودين بفضل قوة ملاحظته وحكمه الدقيق على الأشياء، والذى لا يخيب أبدًا بخاصة فيما يتعلق بالموضوعات، التى تجد طريقها فى النهاية على مائدة المفاوضات. فهو الوحيد الذى لديه القدرة على إنهاء موقف ما يهدد بانتكاسة

وكذلك لديه القدرة على إقناع أى وفد بسحب مشروعه إذا كان سيثير النزاعات. إنه "رجل المهام الصعبة" بلا منافس وفقًا لما يقوله الجميع.... يكفى بالنسبة له أن ينتهى كل مؤتمر من مؤتمرات أمن وتعاون أوروبا ببعض الابتسامات المتواضعة التى تجعل الوفود تعود إلى بلادها، وهى على الأقل ليست غاضبة هذا إذا لم تكن راضية.

ولد فى بودابست وهو نمساوى الجنسية. يشغل منصبه الحالى منذ أحد عشر عامًا. يتحدثون عنه لترشيحه لفترة رابعة على الرغم من وصوله إلى سن المعاش. وأوضحت لى كلودين أن مسئولى الشرق يعتقدون أنه موالى لأمريكا؛ لأنه درس فى كولومبيا. ولكن هذا الاعتقاد لم يمنع الغربيين من شكهم بإقامته علاقات مع "الجيش" المجرى أو التشيكى ولكن دون أن يقدموا لى دليلاً واحدًا على ذلك. يستطيع شوستر بجدارة نادرة أن يتعامل مع أى وضع مهما بلغ درجة السؤال التى وصل إليها. ورغم جميع الآراء المعلنة يظل مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى حتى وإن لم يخرج بشىء، يظل دليلاً حيًا على كل الجهود المبذولة فى محاولة تخطى تقسيم القارة.

أثناء تناولنا العشاء هذا المساء تذكرت أنا وكارلوس أعمالنا الطائشة المشتركة إبان عملنا فى دول اللغات الشرقية. هو ابن لأحد الأعيان الفرنكيين الذى تربى لدى الآباء الجزويت الساراجوس. وبالتالى فإنه عند وصوله إلى باريس كان متعطشًا لارتكاب كل

ما هو مخالف. ما زلت أستشعر هذا التعطش فيه بالرغم من تدرجه ثلاثين عامًا فى مهنة لها بريقها الخاص.

مرة أخرى قصصنا كيف خاطب سفير إسبانيا فى باريس من كابينة تليفون فى شارع سان جرمان معرفا نفسه بأنه بابلو بيكاسو. وبلهجة أندلسية متقنة أعرب عن رضاه التام لهذه الإنجازات التى قامت بها الحكومة الفرنكية تجاه حقوق الإنسان والتى وإن كانت تعد متواضعة إلا أنها كبيرة.. ثم أعلن أن الشروط التى وضعها لعودة لوحة جيرونيكا(*) إلى متحف برادو قد نفذت بالفعل كما كان يتمنى أيضًا مقابلة محدثه فى أوسع وقت ممكن ليحدد معه تفاصيل إنجاز العملية. حيرة شديدة أمام جرأة هذا الاشتراكى الذى بدا كمن يريد أن يمد يده للذى أمامه فى حين أن هذا الأخير لم يستطع اتخاذ أية خطوة سواء بالسلب أو بالإيجاب. واستمرت القصة عدة أيام عبر التليفون قبل أن ينهيها كارلوس بسيل من السباب للسفير المسكين، وهو شخص يدعى مورلز دى جراتشيا المعروف بكونه أحد أصدقاء فرانكو الحمقى.

تذكر كارلوس قائلا: عندما دخلت الوزارة بعد سبع أو ثمانى سنوات كان هذا القذر مورلز دى جراتشيا قد أصبح السكرتير العام؛ حيث استقبل قرار ترقيتى فى مكتبه الضخم فى قصر سانتا كروز. وهو أول من صافحته بطريقة دبلوماسية.

(*) اسم لوحة رسمها بيكاسو تصف احتلال القوات الألمانية لمدينة جيرونيكا الإسبانية لحساب الفرنكيين.

كرر وهو يطلق ضحكة عالية لا يعرف ما وراءها إلا هو "دبلوماسية ! هذه هى الكلمة المناسبة."

لم يطلعنى كارلوس إطلاقًا على هذه النقطة تحديدًا وليس أكثر من إضافته أن مورلز دى جراتشيا توفى عام ١٩٨١م فى اليوم نفسه الذى أرسلت فيه جيرونيكا من نيويورك لتهبط أخيرًا فى مطار مدريد.

مصادفة عجيبة أليس كذلك. أتصور أنها وضعت نهاية الحرب المدنية. إنها وجهة نظرى فأنا الذى نشأت منذ نعومة أظفارى على قصف المدفعيات وصور الجثث فى الطرقات.

سرح بخياله لبرهة ثم قال: كان يلزمنى ٤٠عامًا لتكوين مثل هذه الذكريات سواء الجيد منها أو السيئ. هل تتخيل كم يلزم من الوقت للبولنديين والرومانيين لو استعادوا يومًا حريتهم.....

فى منتصف جلسة الظهيرة أرادت النائبة اليونانية أن تحضر المؤتمر. إنها كلودين التى لفتت نظرى إلى وصولها. حيث اتجهت وهى تتهادى نحو مقاعد بلدها. كان وارنر على حق، إنها فينوس فعلا. لقد أسترعت انتباه عيون معظم النواب ذكورًا وإناثًا بتموجات جسدها. وكالعادة حاولت تذكر مثل رومانى أو آخر، يلخص الموقف. ومالبث أن دخل بات من باب آخر؛ حيث رفع تيار الهواء رابطة عنقه الخضراء. هنا سحرتنى الابتسامة التى أشرقت على وجه كلودين الجالسة بالقرب منى.

وجدت فى البريد الخاص بى إعلانًا من شركة سياحية بـ"بيكادللى" تعلن فيه عن نزهة يومية بعنوان" على خطا كارل ماركس". تتكلف هذه الرحلة أربعين دولارًا إسترلينيا شاملة الطعام بالإضافة إلى المكان الذى " كان يحب المذكور مقابلة مراسليه فيه." وضعت الإعلان فى ظرف و كتبت عليه عناية ميلسكيو دون أن أوقع عليه. فهو بالتأكيد أحق به منى.

سيكون غدًا آخر يوم لكتابة وإرسال التقرير الذى تنتظره منا وزارة الخارجية ليس بالتأكيد لمعرفة ما يحدث ولكن لمعرفة ترتيب الملفات. انتظرت حتى اللحظة الأخيرة لإتمام هذه المهمة؛ لأننى عادة لا يستهوينى القيام بهذا النوع من الأعمال. ليس لعدم قدرة منى أننى لا أجد ما أقوله ولكن؛ لأنه لا توجد أحداث نعيشها أصلا لكى نحكيها. فنحن هنا فقط من باب المجاملة. لا أعرف كيف أخذت كرة الثلج الشهيرة فرصتها لكى تستمر فى التضخم أثناء تدحرجها من هلسنكى لإنجلترا بهذا الشكل الوهمى الذى نراه ؟ ماذا يحدث فى بلاد السوفييت لنستشعر أصداءه تلك المتباينة. هل تسببت المظاهرات المندلعة فى شوارع جمهورية ألمانيا الديمقراطية فى إحداث قلق لدى زملائنا بالشرق ؟ هل لا تزال رومانيًا لحسن الحظ هى رومانيا؟ ولا تزال ماجى هى ماجى التى تجذبنا بكلمتها العزيز ميشيل.

الجمعة ٢٧ من أكتوبر ١٩٨٩

أقام البولندى والذى يلقبه أميننا العام ـ بكراهية شديدة ـ بالبابا[1] ـ قداسه باللغة الألمانية ليتواصل مع متظاهرى ليبزيج و دريسد. وفى محاولة منه لتوصيل معلومة مهمة لنا رفع القس ماتشيولى للحظة عينيه عن كتابه المبهم وقد اعتلته ثقة شديدة فى نفسه فجأة ليضيف أن قداسته يرى ضرورة التقدم المستقبلى فى الحريات الأوروبية.

من ناحيته أكد جريجورى أخمانوف لمن أراد الإنصات إليه أنهم جورباتشوف والموالون لبريجينيف[2] فى اللجنة المركزية انتهى بإبرام اتفاق

(١) البابا يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان فى ذلك الوقت نظرًا لكونه كان أول بولندى يتولى منصب البابوية فى تاريخ الفاتيكان. (الناشر)

(٢) الموالون لبريجينيف. نسبة لليونيد إيليتش بريجينيف عضو الحزب الاشتراكى منذ عام ١٩٣١م وأمين عام الحزب فى ١٩٦٤، وظهر بقوة فى صورة رئيس الاتحاد السوفيتى الأوحد.(الناشر).

تاريخى أمام تدهور الموقف، ثم اختتم كلامه وقد علت وجهه واحدة من ابتساماته الإجرامية التى تناسب شكله قائلا:

" لقد انتهى عصر الربيع."

كلام فارغ، هراء، ثرثرة. تلك هى أنسب الكلمات التى تصف صخب الردهة، الذى يخترق كل الأبواب، هنا مثل باقى المؤتمرات، ولكن على الرغم من ذلك هناك اتفاق مع المواقف والأحداث. تحدث هذه الثرثرة كنوع من الحاجة لاستعادة الثقة بالنفس أكثر منها رغبة فى إخفاء المعلومات.

ما زلت أندهش من نفسى لاهتمامى بملاحظة أدق الأحداث التى تميز هذا المؤتمر والتى لا دور لى فيها. إنه خطأ "رانكور" بلا شك حينما كان مسئولاً عن تربيتى فى أولى خطواتى السياسية. حيث قال لى وقتها:

حاول أن تكون عرَّافًا فى كل الأحوال. فعلى المدى الطويل ستجد أن هؤلاء هم الوحيدون القادرون على الإمساك بكل خيوط اللعبة. فإذا ما استطعت البقاء طويلا فى هذا المنصب فسوف تعشق كل ما سوف تراه فى مهنتنا العابثة هذه. أضف إلى ذلك إنه إذا كانت لك رغبة فى ذلك فتستطيع إذًا أن تتفاعل وستتوافر لك بعض فرص النجاح. تفاعل. هل تفهم ما أقصد؟ فالطريقة الوحيدة لمعايشة عبث الحياة هو هذا المزيج من التواطؤ و اللامبالاة و السعادة.

أشعر أحيانًا أننى لست إلا مجرد أداة عرض لروح رانكور الخصبة.

رفع سير أليك الجلسة فى تمام الواحدة ظهرًا أمام قاعة نصفها فارغ بالفعل معلنًا أن الاجتماع القادم سيكون يوم الثلاثاء السابع من نوفمبر.

ـ سألتها قائلا: "ما الشىء الجيد الذى ستفعلينه فى بلجراد؟

فأجابت: ـ

ـ وما الشىء السيئ الذى ستفعله فى باريس ؟

وحيث إننا لم نجد إجابة على هذه الأسئلة فقد ألغينا تذاكر سفرنا. فى الحقيقة لم نكن قد رأينا شيئًا فى إنجلترا.

السبت ٢٨ من أكتوبر ١٩٨٩

كان البرد قارسًا جدًا، لذلك أرادت شراء قفاز في حين أردت أنا شراء قبعة عريضة الحافة مثل تلك التي كنت أرتديها لأتباهى بها في طرقات بكين في بدايات الثورة الثقافية. وخلال فترة صباحية كاملة قمنا بزيارة محلات فتحت أبوابها مبكرًا في ضاحية ريجنت ستريت. شعرنا أن هناك شيئًا ما يربطنا بخاصة بعد أن أنجزنا مهامنا في مثل هذه الظروف الصعبة. وبالمثل في المتحف الوطني. اعترفت لها أنني وددت في مرات عديدة وأنا أمام الباب في العودة على أعقابي للحديث على انفراد مع الأعمال الفنية التي أشعر أنني أعرفها جيدًا.

جلسنا في مطعم أنيق بالقرب من "أكسفورد سيركس(*)" بعد مشاهدتنا لأحد الأفلام و في خضم الزحام أدركت عدم قدرتي على دخول السينما بدونها.

(*) أكسفورد سيركس: منطقة تقع في محيط لندن بين شارعي أكسفورد وريجينت بمدينة ويستمنستر (المترجمة).

وفجأة قالت بقوة:

- ولا أنا لا أستطيع الجلوس بمفردى فى حانة حقيرة بهذا الشكل.

بين الفينة والأخرى كانت تحب التفوه بكلمات عامية كانت قد تعلمتها عندما شغلت منصب مستشارة إعلامية فى باريس. تظاهر النادل الفرنسى بأنه لم يسمع شيئًا واندمج فى عمله بحرفية شديدة جعلتنا ننفجر فى الضحك معًا.

أثناء حديثنا تناولنا نبيذ البوردو الغالى الذى اقترحه النادل علينا.

صراحة لا أعلم ما الذى يمكن أن يحدث بيننا فى النهاية. فهى على العكس تمامًا من كل الذى أعجبنى فى النساء منذ سنوات عديدة. هذا الجسد الطليق وهذا الوجه العنيد و هذان الفكان المتطابقان وتلك الطريقة التى تنطق بها كلماتها لتطبعها فى رأس محدثها، كل ما فيها يصطدم بالهدف مباشرة. ومع ذلك أحب هذا المزيج من اليأس الحاد والتفاؤل الشرس، الذى يبدو لى وكأنه هو المكون لمفتاح شخصيتها. لا أستطيع إطلاقًا إنكار مشاعرى فى أننى مسئول عنها تمامًا مثل باقى المسئوليات التى أحملها.

الأحـــد ٢٩ من أكتوبر ١٩٨٩

استكمالاً لمسابقاتنا الماراثونية عبر المدينة كانت زوريكا تمتلك مرونة رياضية مذهلة تظهر فى طريقة سيرها. وقد قالت لى إنها كانت بطلة لا أعلم فى أى نوع من أنواع الرياضات الكروية.

ثم أردفت بمرح قائلة:

لقد أنزلنا بالفرنسيين هزائم ساحقة:

كانت ابتسامتها عندما تناولت هذا الجانب من حياتها تهدف إلى معرفة إلى أى حد يمكن استفزازى.

وصلنا أخيرًا إلى جرينيتش؛ حيث نسينا تناول غدائنا طوال النهار. أخذنا نقفز كالسوقة فوق خط جرينيتش الأصلى مرارًا وتكرارًا! أعتقد أن كلانا عرف أن هذه الحركة لا تنم عن حسن النوايا كما كان يبدو.

و فى المساء وفى أوج الحديث توقفت زوريكا فجأة وقالت:

أعتقد أننى ما زلت أحب الرجال.

وتفرستنى بجرأة وثبات إلى أن أمسكت يدى بيدها على المائدة.

عندما كانت ترتدى معطفها لاحظت أن رقبتها طويلة ورفيعة وشاهقة البياض فأثارنى هذا التناقض مع عضلات جسمها الرياضى القوية. التفتت لى كما لو كانت شعرت بأحاسيسى. فحدجتنى بنظرة مفاجئة شلتنى، ثم سرنا متلاصقين عبر طرقات تمشطها رياح مثلجة إلى أن وصلنا إلى غرفتها.

الإثنين ٣٠ من أكتوبر ١٩٨٩

تتنفس زوريكا الصعداء وهى متكورة على نفسها على حافة السرير. وقالت لى إن هذا الوضع هو الوحيد الذى تستطيع أن تستسلم فيه للنوم. ويبدو أن ذلك بدأ معها منذ أن كانت فتاة صغيرة تعيش فى قلب الجبل.

سحبت مفكرتى التى أدون فيها هذه اليوميات من حقيبتى الجلدية، التى أحملها دومًا والتى تنتزع ابتسامة زوريكا. كانت خصلة شعرها الثقيلة مسدلة كالغطاء الداكن على غطاء الفراش. بذراعها اليمنى كانت تحمى وجهها. وأحيانًا تخرج من فمها ثرثرة غامضة.

تدريب عجيب على الوصف بدلامن الكتابة. وعلى المقعد المجاور للفراش كانت قد رتبت أشياءها بنظام شديد.

حيث فسرت ذلك لى قائلة :

أحتاج للتأكيد على أننى مستعدة دائمًا لمواجهة أى نوع من المواقف بما فى ذلك الموت. أصر على عدم ترك الفوضى ورائى. ومن المفترض كذلك عدم ترك أى شىء آخر.

الثلاثاء ٣١ من أكتوبر ١٩٨٩

أعدت على مسامع زوريكا ما قصته على مسامعى عندما كانت عائلتها مختبئة فى قلب شبكة طرقات صخرية فوق جبل ترافنيك حينما فر أفراد المقاومة فى العاصمة إلى ذلك المكان الوعر مصطحبين زوجاتهم وأطفالهم. وتعهدت الفيالق النازية وزملاؤهم الكروات بإعادة تسكينهم بانتظام.

كانت تتابع روايتها الموصومة بالموت، وحاولت أكثر من مرة استخدام ما تطلق عليه "لازماتى اليابانية" ربما لإحداث توازن فى الحديث على ما أتصور. ولكن كانت مقاطعتى لها للحديث عن المقاهى أو فقرات سحر الكابوكى تخفف من وطأة نار طفولتها فى بلاد البلقان، التى سرعان ما نستشعر أننا بداخلها.

مثل كل يوم اشترت زوريكا كل الصحف المتاحة فى أكشاك الجرائد، الصربية والبريطانية والفرنسية وكذلك صحيفتان أو ثلاث سوفيتية؛ حيث أضحت

قراءة صحيفة "البرافدا" الآن جزءًا من المتعة. ومثلما تفعل فى ملابسها قبل أن تخلد للنوم نظمت بطريقة دقيقة جدًا كتلة الأوراق هذه ذات الشكل الهرمى أسفل المنضدة.

ولدى استغراقها فى النوم سمعتها تتمتم بصوت مكتوم بالفرنسية:

ـ ستشتعل الحرائق ثانية....

أحملق وأنا جالس أمام المكتب والقلم مرفوع كالسيف فى هذا الجسد الملفوف فى الضوء الخافت على حافة الفراش. وكلما ارتفع الغطاء أشعر بالراحة.

نوفمبر

الأربعـــاء ١ نوفمبر ١٩٨٩

تساءلت "زوريكا": لماذا تقرأ فى الجريدة؟ بدأت أشرح لها أن هذه عادة بدأت كنوع من التعبير عن الجزع من الشعور بالاتهام خلال فترة النفى إلى لندن فى الشهرين الماضيين. وقد تزامن هذا مع بداية النضج الشخصى والمهنى رغم صعوبته. ثم تحولت شيئًا فشيئًا إلى عادة كغسيل الأسنان قبل النوم. وهذه العادة صحية لإدراك أهمية الوقت قبل أن نتحول إلى شىء لا قيمة له.

بعد الظهيرة اصطحبتنى إلى (هالليجيت) لوضع الزهور على قبر "كارل ماركس". فموضوع رسالتها كان عن الرأسمالية. وهذا موضوع ليس مبتكرًا فى دولة مثل يوغوسلافيا تؤمن بديمقراطية تيتو. فإذا كانت "زوريكا" تخلت عن الأسس التى وضعها الرؤساء، والتى انتهت باستقالة الحزب. فهى ما زالت تحمل بداخلها تقديرًا قويًا لهذا الرجل.

هذا هو الجد الذى لم أحظَ به. لقد كان رجلاً كريمًا وفاضلاً. ولكن أشد ما آلمنى هو أن يقتل الكثير من الناس باسمه. بالتأكيد، لم يعد هناك من يفكر فيه فى مثل هذا اليوم (يوم الشهيد).

كانت على حق. لم يعد هناك اشتراكيون أقوياء يرسلون باقات وأكاليل الزهور لوضعها على قبره. ثم همهمت بقولها: " لم يعد هناك من يعترفون بالجميل. ورغم ذلك توجد أيدى خفية وضعت أهرامات من الأكاليل متواضعة.

وبحركة مباغتة، بل عصبية، ألقت الزهور الحمراء التى أحضرتها وسط هذا التل من الزهور، ثم أمسكت يدى وضغطت عليها بقوة ناظرة إلى الأفق، ثم خرجنا دون أن نبث ببنت شفة بخطوات قوية وثابتة.

عندما عدنا إلى موقف الأتوبيس استطردت قائلة: حسنًا لابد أن يكون الجد الآن سعيداً.

الخميس ٢ نوفمبر ١٩٨٩

عند وصولنا للناحية المجاورة، تناولنا غداءنا فى مطعم شعبى صغير بجانب هاى ماركت. لمحت "زوريكا" "جريجورى" و"موللر" و"فالشف" البلغارى على مائدة فى الركن وبجوارهم بقايا زجاجات البيرة. مرت بجوارهم دون أن تلتفت إليهم.

قالت بصوت هامس: ثلاثى التآمر. بالفعل من يراهم يقول إنهم ثلاثة من المتآمرين. كانو يتحدثون بصوت يشبه الهمس، ولكننى سمعت تحديدًا ذكر اسم "جورباتشوف" منعوتًا ببعض الصفات قليلة الاستخدام فى السفارات. وربما كان هذا هو وجه الاتفاق بينهم. فهؤلاء الثلاثة هم أهم من فى هذه العصابة. فصديقنا التشيكى مثقف بالنسبة لهم. أما البولندى والمجرى فهما من مجموعة الخونة، الذين يجب مواجهتهم.

وعند وصولهم إلى بوابة الخروج، مروا قريبًا جدًا حيث نجلس. كان القلق الشديد باديًا عليهم

لدرجة أستطيع معها أن أتصور أنهم لم يرونا، ولكن لا أستطيع أن أجزم أن كان "هانز موللر" قد رآنا أم لا فالذى حدث أن وجهه تصلب فجأة بطريقة توحى بالألم ثم التفت نحونا بطريقة بدت لى غير طبيعية.

بعد فترة من الصمت تحدثت زوريكا قائلة:

لن يستريحوا حتى يزيحوا "جورباتشوف" ولا يدهشنى أن يدبروا شيئًا ما فى الخفاء هنا فى لندن بعيدًا عن مرأى ومسمع أى شخص. ولكن هذا بات متأخرًا جدًا الآن. فقد تذوق الكثير من الناس طعم الحرية. والبرهان هو وجود شاب مثل "مالفيتش" فى السلطة. أما الدول المجاورة، كما كنا نقول باستنكار لنغيظ أصدقاءنا على الجهة الأخرى على الحدود، فقد وجدت شعوبهم طريقها، واستطاعت ببساطة امتلاك شجاعة النضال.

أثناء ممارستنا للحب، تمتمت ببعض الكلمات الصربية ـ الكرواتية(*) على ما أظن.

(*) انتشرت هذه اللغة عام ١٩٩١م مع اندلاع الصراع فى يوغوسلافيا بين الصرب والكروات (المؤلف) .

الجمعة ٣ نوفمبر ١٩٨٩

من خلال النافذة المغلقة المتشبعة ببخار الماء، رأينا الجوّ ملبدًا بالغيوم.

استنتجت قائلة: أعتقد أنه من المستحيل الخروج.

ثم استطردت قائلاً: لن نكون مخطئين. لن يكون لدينا سوى العودة إلى الفراش مرة أخرى.

ومع ذلك، قررنا مواجهة العالم الخارجى فى المساء. كان القس "ماشيولى " يتجول فى بهو الفندق. رمقنا من بعيد بضحكة عللتها بأنه يعتبر نفسه متواطئًا، ولكن لم يكن ذلك رأى"زوريكا" . لا أعلم إلى أى مدى تكره "زوريكا" القساوسة. شرحت لى داخل التاكسى:

من مميزات أن تكون يوغوسلافيا، هو أن تؤمن بالقساوسة أو الكهنة أو حتى الأئمة. لم تصنع النظرية العامة حول رجال الدين. فجميعهم يتصفون بالجفاء سواء فى الملبس أو فى الفكر. ولكن بشكل

خاص فى جبال كجبالنا، والتى ليست مثل تلك الجبال السويسرية، يبدو على الواحد منهم وكأنه يرغب فى تحطيم القادم بأول فأس أو سيف أو أى شىء يقع تحت يديه. واحدة من ذكرياتى الأولى حول هذا الموضوع كانت لواحد من مرشدى الأوساتشى الذى كان يقوم بعمل أهداف على السجناء الصرب كان يرسم بالذخيرة المنطلقة من مدفعه الرشاش شكل الصلبان على قطيع البشر الذى أمامه، والذى تجمع أمام باب الحظيرة وأثناء قيامه بذلك كان يصرخ باللاتينية أن ذلك من النعم الربانية. حسنًا لن نتحدث أكثر من ذلك. بالنسبة لماتشولى هذا فأنا متأكدة أنه قديس. بل إننى متأكدة أنه سيستفيد من لقائه بنا فى بهو الفندق ليبارك علاقتنا الآثمة.

من المستحيل أن نبقى بمفردنا! عند عودتنا متأخرين ليلا هذه المرة قابلنا "كارلوس شوستر" فى بهو كارلتون، وكان يبدو عليه أنه بانتظار شخص ما.

قالت "زوريكا" بصوتها الجميل: عزيزى الأمين العام. هل تقوم بحراسة ليلية الآن؟

دون أن يفكر فى القيام ابتسم لنا بطريقة آلية كالتى يقوم بها فى مقابلاته أو أمام الوفود، وتمنى لنا مساء سعيدًا .

قالت "زوريكا" فى المصعد: أحد القساوسة أو البابوات مرة أخرى.

فى النهاية قررت أن تسيطر علىَّ.

السبت ٤ نوفمبر ١٩٨٩

كانت زوريكا تجلس معتدلة فى غرفتها عندما رأيتها أثناء كتابة تلغراف عن التواطؤ بين وفود الوحدة الأوروبية التى تنتظرها باريس يوم الإثنين، وفق ما قاله مدير جريدة "أوروبا" لـ "كلودين"التى لا يرسل فى طلبها إلا من أجل اهانتها. كانت زوريكا ترتدى كعادتها واحدًا من بلوفراتها الأبيض فى أسود، الذى يبدو واسعًا عليها بينما بدت نظارتها مستقيمة على أنفها وهى تقرأ فى جريدة "الجارديان". تتصفح الجريدة من موضوع إلى آخر وهى غير سعيدة. فهى تجد أن استمرار الوضع على ما هو عليه أو زيادته شىء غير محتمل؛ لأنه فى الوقت الذى تقف فيه عشر دول على أرض ترفل بالمناجم، ويحلم أهلها بالحرية فإن وطنها على وشك الانفجار.

ولأول مرة فى حياتى أعشق شفتيها الرقيقتين وضحكتها الغريبة.

وبحركة عصبية ألقت زوريكا الجريدة جانبًا، وانغمست فى أفكارها. بدأت تحرك أصابعها بتوتر

بشكل دائرى وتمسح جبينها ووجهها الممتلئ بالثنايا والبروزات. أعتقد أن حركة أصابعها هذه لم تتوقف منذ أن كانت صغيرة.

وقفت فجأة وقالت: أنا جائعة تلك هى الصيحة التى تتكرر طوال هذه العطلة الأسبوعية دون أن يكون لديها أية رغبة فى الطعام. فكل ما فى الأمر أنها تريد أن تصيح فى هذه الحياة بعد كل هذا النضال من أجل إنقاذ السفينة الغارقة.

كنت على وشك كتابة:"يمكن أن نتساءل فى مثل هذه الظروف إذا..."هذه الأشياء التافهة المعتادة. قمت فجأة تاركًا كل شىء دون أن أنتهى.هذه المرة خرجنا من حجرتها دون أن نتأكد من عدم وجود أحد فى الطرقات.

الأحـــد ٥ نوفمبر ١٩٨٩

رغم الرذاذ الثلجى فى الخارج، خرج متحدثو درس الأحد إلى "هايد بارك" لمقابلة أتباعهم المعتادين ذوى المظهر الساخر. جلس "كوريوليس" فى مكانه المعتاد. بينما أخرج "ميلسكو" من علبته لافتته المكتوب عليها "لا" ليبدو مثل طائر الوقواق السويسرى. وها هو السير "أليك" ونحن أيضًا... "شيش" و"زوريكا". ولكن لم تهتم هذه الأخيرة ولم تفكر حتى فى المحاولة.

ـ اعترفت ما فيه الكفاية خلال حياتى.

عدنا للحديث عن "هانز ميللر" الذى قابلته "زوريكا" كثيرًا فى برلين. فقد كانت أحد الوجوه المألوفة فى الوزارة من بين وجهين أو ثلاثة. فعند قدومها إلى ألمانيا الديمقراطية، اعتقدت أنها ستقابل مسئولين يمكن أن تحاورهم. إن لم يكن مسئولون من الماضى، فعلى الأقل أحد المسئولين عن الماضى والمستقبل. شئنا أم أبينا كان هؤلاء هم نتاج المؤسسين

أنفسهم. وقد عانوا الكثير من الألم حتى أصبح من الضرورى جدًا تبادل الخبرات بينهم.

حتى عندما يوافقون على مشاركتى فى احتساء المشروبات الكحولية، لا يتحدثون معى إلا القليل. غالبًا يكون محور الحديث عن "هونيكر" أو عن قول أشياء سيئة عن أصدقاء الكرملين، ولكن لا يكون الحديث عن تغيرات النظام التى أفرزت بدورها هذه النماذج الموجودة أمام أعيننا. أكثر من مرة، اضطررت أن أفعل ذلك مع "موللر" وآخرين وأنا غير مقتنعة بذلك على الإطلاق. قلت وفعلت ذلك فقط حتى أصبح إنسانة بغيضة من كثرة إنكارى للبديهيات ونصل فى النهاية إلى الانفجار. الانفجار، أتفهم يا عزيزى "هانز".

كتمت ضحكة قبل أن تستأنف الحديث قائلة:

كان "هانز" منفعلا من تصرفاتى. فهو ابن أحد الأبطال الذين قتلوا على يد النازيين. عندما التحق بالجيش الأحمر كان عمره لم يتجاوز الثامنة عشرة. لا أعرف كم مرة حصل فيها على أوسمة لدرجة أنه فى إحدى المرات حصل عليه على يد المشير "جوكوف" شخصيًا. لم يحدثنى عن ذلك أبدًا، ولكننى عرفت ذلك من خلال بعض الأصدقاء. بالنسبة له لم يكن يجد أية غضاضة فى أن يتذلل كالكلب من أجل الوصول إلى أهدافه، وكان نتيجة كل ذلك هى وصوله إلى المراكز المرموقة. فعلى سبيل المثال هو منظم البحوث العلمية فى الدولة. كان أكثر ما يهمه هو

الوصول إلى أعلى المناصب. فالبكاء على الأطلال سواء كان ذلك بسبب أمر جيد أو سيئ هو إهدار للطاقة. حكاياتنا الصغيرة فى يوغوسلافيا والإدارة المركزية واللامركزية أمر يثير غيظه. ولكن جميع آرائى العاصفة معه لا يمكن أن تتم هنا. ففى مؤتمر مثل الذى نحضره الآن فإنه يشعر أنه فى معسكر الأعداء وأن "خيانة السوفييت" على حد تعبيره وكذلك"المظاهرات التى تركها عديمو الأهلية تندلع بانحطاط فى ليبزيك" جعلت الكيل يطفح. لكن ذلك لا يعد موضوعًا جيدًا للحديث معه.

توقفت لبرهة ثم استأنفت:

فى برلين، تأكد لى ضرورة أن أكون غير مرغوبة، حتى "هانز" كان يفكر بجدية أن يأتى بى إلى فراشه. حاول ذلك أكثر من مرة ولكننى هددته بقطع العلاقات بين الدولتين.

شعرت بالراحة لابتسامتى

ظللت فى ألمانيا الديمقراطية خمس سنوات، ونجحت فى الاختفاء قبل الاحتفال بالعيد الأربعين لبناء حائط برلين. كان يجب علىَّ أن أستعد لقيادة وفدنا الذى سيحضر هذا المؤتمر المهم فى لندن. لم تكن هذه السنوات بالفترة السعيدة فى حياتى. قابلت بعض الأشخاص كنت أود أن أضع نهاية لعلاقتى بهم، ولكننى فهمت سريعًا أننى سأقابل مشكلات كثيرة. ولذلك كنت سعيدة بقضاء عطلات نهاية الأسبوع

بمفردى؛ لأن أصدقاءك من الغرب لهم مكانة مرموقة... من الأفضل ألا أقول لك. لقد مررنا بأوقات عصيبة. فى الحقيقة نحن نعيش فى عالم قد انتهى؟

وضعت البلوفرين المفضلين لديها: الأبيض فى الأسود والأسود فى الأبيض على الفوتيه شممت رائحتهما عن قرب ووضعتهما بين أحضانى وكانت أساورهما متساوية تمامًا بشدة. خرجت فجأة من الحمام، فأعدتهم بسرعة وأنا ابتسم كطفل صغير وضع إصبعه فى المربى.

لقد عاشوا فترة طويلة، ولكن مع ذلك عاشوا لفترة أقل منى.

الإثنين ٦ نوفمبر ١٩٨٩

بعد خروجها من الحمام، قامت "زوريكا" بعمل شينيون كبير فى شعرها لا أعرف حتى الآن كيف جعلته ثابتًا فوق رأسها. لم أكن سعيدًا بقدر إحساسى أنها على طبيعتها وهو ماجعلنى أشعر بشعور غريب لايمكن وصفه حتى أنه لم يعد يدهشنى رؤية الروب دى شامبر ذى الوردات الحمراء والخضراء الكبير الذى ترتديه صباحًا.

كان آخر يوم لنا فى السير بخطى واسعة حول أحواض السفن والجلوس بشكل تلاصق داخل التاكسيات. وتبينت أننى رغم عشقى للسيدات الصغيرات فى السن، إلا أننى أعشق عبق السنين التى عاشتها زوريكا والتى أضفت عليها بعض التجاعيد الصغيرة التى ارتسمت على صدغيها.

فى بار الفندق انهمك القس "ماشيولى" فى حوار طويل مع "مالفيتش". كانوا يتحدثون الروسية. أكدت "زوريكا" أن ممثل الكرسى البابوى قد بذل

جهداً كبيراً فى الأيام الأخيرة وشرحت لى أنه خلال جلساتنا كان يستغل فترات الراحة من عمله فى "اقتصاد الخلاص على يد المسيح" لكى يدرس بكد ونشاط ملخصات القواعد.

إنهم يناقشون بوجه عام جميع الاحتمالات المهنية الممكنة. واستنتجت قائلة: كل شىء يتحرك بسرعة.

ونحن ملتصقون ببعضنا تماماً وضعنا النقاط فوق الحروف فيما يخص الأسبوع الذى قضيناه معاً.

أنهت المسألة قائلة: فى النهاية، ليست الحياة صعبة لكى نحياها. ولكن الصعب فعلا هو أن نحياها. أليس كذلك؟

اضطررت أن أنتظر لفترة قبل أن أكشف عن جملة "برانكوزى" التى نوهت عنها فى خاتمة خطابى فى افتتاح المؤتمر.

قالت ضاحكة: لحسن الحظ أننى أسمعك أكثر مما تستمع فيه لنفسك.

رددت عليها قائلا: "الماعز غربى والكرنب اشتراكى".

منذ أن ألقت خطابها وكلمتها تدور فى رأسى. فمنذ سمعتها وهى تلقيها، وأنا أشعر بالاستمتاع. ولكن شيئًا فشيئًا، بدأت تصيبنى الدهشة. فهى تبدو كأنها تعكس شخصية "زوريكا". فهى خليط من الصدمة والإثارة واليأس الذى يؤثر فيه بشدة. وها قد حان الوقت لقول ذلك.

نحن لا ننتظر إلا تلك المناسبة حتى نتقابل مرة آخرى.

عندما عدنا إلى رشدنا، قالت لى بسرعة: احذر! إن الظروف لم تعطنى الفرصة لمعرفة نفوس وقلوب الرجال، بل إن تجربتى بأجسادهم أقوى. فأنا أعتبر نفسى ساذجة، بل قل جريئة. يجب أن تخاف على نفسك.

ولكى تبرهن لى على ذلك، أنشدت بصوت متذبذب أغنية "كارمن" أتاح لها شعورها الجارف أن تكملها حتى نهايتها.

الثلاثاء ٧ نوفمبر ١٩٨٩

عدنا اليوم إلى قاعتنا البيضاء التى تشبه السفينة التى أصبحنا طاقمها منذ الأول من أكتوبر. نعلم كل شىء عنها: فتحات الدخول والخروج والجسور وحتى مستودعات الفحم. أما الركاب: فهذا السير "أليكس" الذى لم يجد الوقت الكافى ليتحرك. وهذا "تيد جاريسون" الذى افتتح الجلسة. لم يكن سعيدًا بالدرجة الكافية وهو يلقى علينا سلامًا حارًا مرحباً بنا فى بيتنا.

فى محلات "هارودز" التقيت فى قسم البلوفرات ب"سيبل" و"إلسا" حيث كانتا واقفتين أمام جبل من السويترات متعددة الألوان. ورغم إغراءاتنا المتبادلة إلا أنهما قابلتانى كصديق قديم للعائلة وأهدونى بعض خدماتهما.

قالت "إلسا": لن نسألك أى سؤال يتعلق لمن تشترى لها البلوفرات. فنحن مهذبتان.

ووسط الضحكات العالية، قاموا بقياس البلوفرات التى طلبتها بجانب بعض البلوفرات الأخرى. ولكنهما سخرتا من المقاس مؤكدتين أنه لا يمكن لأية امرأة فاضلة قبول ارتداء ملابس بهذا الشكل الفضفاض، ولكننى فرحت بهذا الاهتمام وهو يتصارع فى محل للملابس أمام البائعات وإن كان بحسن نية.

نداء من صديقى الأزلى "رانكور". كان يريد أن يعرفنى باكتشافه الجديد: فتاة اسمها "إيريكا" ولكن كان يبدو أنها لا تناسبه. أعلن لى أنه بعد أن قلّب الأمور على جميع الأوجه استطاع أخيرًا فهم لماذا تدهورت الأوضاع فى الاتحاد السوفيتى عكس ما هو متوقع فقلد كان لانفجار المفاعل النووى تشيرنوبل عام ١٩٨٦م التأثير النفسى نفسه على الشعب كالذى حدث فى هيروشيما فى اليابان عام ١٩٤٥م فقد أعاد إلى الأذهان تأكيد الإحساس بعدم قدرة الدولة الاشتراكية على السيطرة على المستقبل. فبعد هذه الكارثة التى كشفت نقاط الضعف للأعداء أصبح من المستحيل الاستمرار على النهج نفسه. فكما استغل "هيروهيتو" انفجار هيروشيما لإنقاص رتب عساكره إلى أقل رتبة ممكنة، فقد استفاد "جورباتشوف" من انفجار تشيرنوبل فى الالتزام بتحطيم النظام التقليدى للسياسة، الذى فقد فجأة ما تبقى له من شرعية أمام العالم.

قبلت على مضض هذا التحليل؛ لأننى كنت فى عجالة من أمرى.

الأربعـــاء ٨ نوفمبر ١٩٨٩

اللقاء المحدد مع سكرتير عام المنظمة.

بدأ حديثه قائلا: لقد أصابتكم حالة من الفزع الرهيب إزاء مواجهة انفتاح البولنديين والمجريين على الصحفيين والموجات القصيرة (الإذاعة) لقد آن الآوان لإظهار قدرتكم على الصراع.

كرجل سياسة محنك، استخدم كلمة "أنتم" للإشارة إلينا نحن - الغربيين -.

وعند مغادرتنا قال لى: احذر إن الأمور يمكن أن تتحرك أسرع وأبعد مما هو متوقع. فلتكن مستعداً لكل الاحتمالات.

ومن أجل استعادة العادات الحسنة بدأنا نتحدث مع "كارلوس" بالصينية إلى أن جاء صديقنا الفنلندى مبتهجًا وقال:

لن يستطيع السوفييت تصديق أعينهم. ففى اجتماعهم المقدس صباح يوم الثلاثاء، لم تكن فقط

مقاعد البولنديين والمجريين خالية، بل مقاعد التشيك أيضًا، فقد نسوا الموعد! انتابت "جريجورى" جميع المشاعر، وأرسل برقية فورًا إلى موسكو؛ لذا استدعوا السفير إلى هناك لتوبيخه كما كان فى السابق. أما التشيك! أين سنذهب يا أصدقاء؟

استنكر "كارلوس": سنغرق فى قصة أجاثا كريستى "الزنوج العشرة الصغار"! من سيكون المختفى التالى من مداخل "جريجورى" هذا هو السؤال المهم الذى يجب طرحه فى مؤتمرنا.

استفاد "هيكى" من هذا السؤال بأن ذكرنا بالمزحة التى ألقاها "جورباتشوف" فى زيارته الأخيرة إلى "هلسنكى". ففى سؤال لصحفى عن موقفه من نظرية "بريجنيف" حول شرعية تدخله فى "تشيكوسلوفاكيا" عام ١٩٦٨م ودور كلب الحراسة لروسيا. أجاب أن له نظريته الخاصة: نظرية سيناترا. ثم بدأ يدندن أغنية :"هذا هو طريقى".

لقد أغلق عيونه لبرهة من الوقت رغم وجود الصحفيين والكاميرات وذلك لاستعادة اللحن. هكذا شرح الفنلندى مضيفًا:" لقد كنت قريبًا منه. أعرف القليل من الروس. وهذا النوع يكون شديد الإخلاص. فأنا مقتنع أنه سيترك حركات جمهورية ألمانيا الديمقراطية السيئة هذه لتنحل دون تحريك ساكن. يبقى علينا أن نعرف إذا كان رجال الأجهزة المعنية لديه لن يضعوه قبلا خارج المخاطر.

سألت الشاب"لورو"عما يعرفه عن القس "ماشيوللى" والذى يريد على حد تعبيره تناول غدائه معى. فقد علمت منه أن الأسقف يقوم بأداء صلاته يوميًا فى كنيسة الدير التى استضافته عندما كان فى "بلومسبرى". فهناك صلاة تقام يحضرها الكثير من طائفتنا باستمرار بينهم "لورو" نفسه. يقومون بتناوب الحضور بحيث يتواجد منهم أربعة أو خمسة على الأقل. وهو تنظيم بسيط بين العسكريين. أما الدوليون فلا يتباركون بالماء المقدس.

وقبل أن يغادر، صرح لى "لودو" خجلا أن أحد أعضاء الشرقيين -لا يستطيع ذكر اسمه - قال له إن اللجنة المركزية لألمانيا الشرقية ستقدم استقالة جماعية. وذلك يعد ثانى أو ثالث تغيير فى المجموعة بعد مغادرة "هونكر"المؤسفة منذ ثلاثة أسابيع ولذلك سألته عن استنتاجه الشخصى:

فأجابنى قائلا: أعتقد وجود تردد هناك وبالتأكيد سيتسلح جيدًا للقيام بمهمة كبيرة.

وصلنى كارت من "ستسوكو"، تلمع فيه المياه تحت وهج الشمس. وفى الأسفل ثلاث جمل: طرفة عين ترسلها فتاة مرهقة لوالدها القابع فى المنزل.

الخميس ٩ نوفمبر ١٩٨٩

كنت بالصدفة وسط جماعة منا نحن المحاصرين. - "هارى ماركس" لا يثق أبدًا إلا فى "هيكى" على ما أظن فإن اليهودى الصغير القادم من الغرب الأوسط يشعر كأنه على قدم المساواة مع هذا الفنلندى، فالاثنان لهما شكل الحطاب وضحكات رعاة البقر. فالأخير استطاع أن يقنعه أن التغيرات الحالية ستستمر وستصل إلى ألمانيا الشرقية؛ حيث لا يستطيع أحد منع خروج أى شخص من الشعب عبر الحدود المجرية التى تم فتحها منذ سبتمبر. قرر"هارى" أن يرسل رسالة شخصية بذلك إلى نائب الرئيس والتى وصل بسببها إلى لندن. كان دائمًا يردد فى الطرقات بصوت الوعاظ السود أغنية "يجب أن يصعد الجميع إلى القطار".

تناولت غدائى مع "بول دو جريير" البلجيكى. فهو دبلوماسى حتى النخاع، يبلغ من العمر خمسين عامًا، وكان يتباهى بأنه يبيع أو يهدى الأمير تشارلز ثلاث

قطع من مناديل الجيب المماثلة للكرافتات. ولكنه مثل أغلبنا، يعتبر حضور المؤتمر نوعًا من العقاب. ولكنه أكثر تماسكًا، وصل إلى استنتاجات من خلال الظهور الثانوى المركز. فهو يرسل من خلال ابتسامته الساخرة رسالة تقول: "فلنترك للدول الكبيرة حل المشكلات الكبيرة.

هو فلمندى [1]. هنأته على طلاقته فى اللغة الإنجليزية التى يستخدمها عندما يكون فى حاجة إليها. ومع ذلك لم يستاء من هذا الرأى.

عرفت من مساعده الفالونى[2] أن والدته فرنسية وصديقته الحالية أيضًا فرنسية. فإننا نراها أحيانًا أمام مركز المؤتمرات جالسة بلا حراك فى الخلف داخل سيارة فارهة يقودها السائق.

شرح لى فى نهاية الدعوة قائلا: نحن ـ البلجيكيين ـ نعيش فى مواجهة داخلية غرست جذورها منذ عمق التاريخ داخل قلب كل واحد منا. فلابد أن يأتى اليوم الذى تجنى فيه بلجيكا النتائج. فعلى الفرنسيين أن يعرفوا أننا ـ الفلمنديين ـ لا نكن لأحدهم أى شعور معاد. فنحن نقدرهم حتى عندما يسخرون. ويقدرهم الفلونيون أكثر منا.

منذ زمن بعيد تمتلك عائلة"جريير" قصرًا كبيرًا فى "ميدوك".

---

(١) فلمندى نسبة إلى فلندريا التى تقع اليوم بين فرنسا وبلجيكا وهولندا(المترجمة).

(٢) فالونيا: هى منطقة تقع فى بلجيكا. (المترجمة).

ثم أنهى حواره قائلا: تعال إلينا يومًا لتتذوق الخمر. فهى تستحق.

فى هذا المساء، أهديت "زوريكا" البلوفرين اللذين اشتريتهما لها من محل "هارودز": الأبيض فى الأسود والأسود فى الأبيض. هما أكبر بدرجتين من مقاس "سيبل" و"إلسا". هما بلوفران من الكشمير. تلك هى هديتنا الأولى. أرادت أن تبكى، ولكنها اعترفت أنها نسيت كيفية البكاء.

الجمعة ١٠ نوفمبر ١٩٨٩

قضينا ليلة حب رائعة بالروح والجسد معًا كما لم نحيها من قبل. ومع أننا لا نحب الاستيقاظ متأخرين إلا أننا صحونا على دقات التاسعة. وبحركة تلقائية أدرت التلفاز قبل الذهاب إلى الحمام.

فجأة سمعت صوت صراخها، فجريت مسرعًا فرأيت الدموع تغطى وجهها.

ثم صرخت: إنهم مجانين بالتأكيد، سوف يحطمون كل شىء.

على الشاشة، بدأ بعض الشباب فى الظهور وعلى وجوههم الفرحة وهم يضربون بمعاولهم أحد الأسوار. إنه هو حائط برلين بالتأكيد. بدأت أشرح لـ"زوريكا"إنه بالتأكيد أحد المشاهد المأخوذة من أحد الأفلام من القطاع "بى".

قالت لى:لا. أنا متأكدة، إنها لقطات حية من برلين. أكد ذلك أحد المراسلين منذ لحظات. ماذا

يفعل هؤلاء الحمقى؟ سيطلق عليهم حرس الحدود النار ويحصدهم كالأرانب.

بدت منهكة ومتخشبة وهى جالسة فى انتظار سماع صوت طلقات الرصاص. ولكن فجأة، ظهر فى جانب الصورة رجلان وبدون تردد ولاخوف ضحك أحدهما ضحكة صغيرة وأخذ معولاً وأعطاه للآخر وبدأ يضرب بمعوله كالآخرين.

شكرًا على سلامة صحتنا العقلية. وإذ عادت إذاعة البى. بى. سى إلى الاستوديو، وأكد المذيع الخبر غير المتوقع، نعم أكد نبأ فتح الحدود بين بلدتى برلين الشرقية والغربية.

فى هذه اللحظة أطلقت "زوريكا" دموعها وتلفظت ببعض الكلمات غير المفهومة: كانت إما صربية أو كرواتية أو سلوفينية، ولكنها بالتأكيد ليست روسية. وبعد أن هدأت، أخذتها من يدها إلى مرآة الحمام. فى النهاية قبلت أن تضحك بعد أن رأت وجهها ممتلئًا بالدموع.

تم هدم الحائط بيد سكان مدينتى برلين أنفسهم وأمام أعين حراس الحدود. وظل المشاركون فى المؤتمر طوال النهار يغيرون قنوات التلفاز الموجودة فى البار. حتى "هانز موللر" تجرأ أخيرًا وحضر معنا جزءًا من جلستنا بعد الظهيرة. سلمنا عليه وكأن شيئا لم يكن. مضت خمسة أسابيع بالضبط على الاحتفال بالعيد الأربعين لألمانيا الشرقية. ومنذ ذلك الوقت ظلت قبلة "جورباتشوف" الروسية على فم "هونيكر".

أما "وورنـر" فقـد فعل كل مـا فى وسـعه حتى لا يعبـر عن شعوره. ولـكن أحضـان زملائه الغـربيـين فى الطرقات اختلست الشعور بالفرحة من بعيد.

وفق آراء البـريطانيـين، أن قـرار فتح الحدود بين الألمانيتين جاء دون طلب اتفـاقية أو حتى رأى موسكو. ظل كرسى السوفييت فى الجلسة المصغرة ممثلا من قبل اثنين من الروس العظمـاء الذين لم نرهم من قبل. يبدو أنهم حراس شخصيون فهم لا يتكلمون وبـالتأكيد لا يسمعون. طالما أنهم لم يكتبوا أية ملحوظة حتى الآن

ضحك "هيكيى تيومنينيان" وهـو يقول فى كل مكان: "لقد خرج كل السوفييت إلى لوبريانكا احتفالا بانهيار السور.

ظل يتجول طوال النهار وهو سكران. وسمعوه فى أكثر من مكان وهـو يحـرض أصـدقاءه عـلى المواجهة بصوت مـرتفع قبل فوات الأوان؛ لأن المـأسـاة أخذت أبعـادًا أخرى لم تكن متوقعة حتى أن "تيد جاريسون" أجبره على أن يغلق فمه.

كرر "ماركس" بأكثر من لهجة: "غير معقول". ظل يـكـرر ذلك أكثـر من مـرة كـان يبـدو عـليه أنه غيـر مصدق. بل وأعلن لواشنطن ما يمكن حدوثه. حتى أن أفراد الوفد المرافق له ظلوا ينظرون إليه بسخرية.

وظل "ميلسكو" وتوأمه كما نطلق عليه الذى كنا نتخيل أنه لا يتحدث وهادئ الأعصاب، ظلا يتحدثان

لفترة طويلة بطريقة حادة. كنا نعتقد أحيانًا أنهما كانا على خلاف منذ البداية. وهكذا ظل السور يخلق العديد من المشكلات حتى فى وسط العائلة المتحدة.

سنعود إلى الثنائى المثالى الذى يكونه "سيبل" و"إلسا" اللتان لم تستوعبا بعد الصدمة فى هذه الأحداث. ففى بداية الظهيرة سكت الصوت الفرنسى فى ميكروفون الترجمة. لم نر سوى أنف "سيبل" على المكتب الزجاجى. أما فى الكابينة المجاورة ، فقد صرخت "إلسا" فجأة وأسرعت إلى صديقتها. أما السير "أليكس" فقد اضطر إلى تعليق الجلسة.

فى المساء، أكدت لى "كلودين" أن "سيبل" استطاعت الوقوف على قدميها. فقد استشعرت أن القلق الذى أحسته ليس بغريب عن قصة حدثت منذ سنتين أوثلاثة. فقد دخلت حياتهما مترجمة ألمانية شرقية شديدة الجمال مثلهما، ثم خرجت بعد أن استدعتها حكومتها فجأة إلى برلين بطريقة عنيفة، ثم سحب منها الباسبور الخاص بها. إن انهيار حائط برلين يهدد بتغيير الكثير من المعطيات بضربة واحدة. استنتجت "كلودين" قائلة: إنهم يضغطون بقوة لدرجة أننى لم أعد أستطيع معرفة إلا القليل من الأخبار. لكن الأحداث قوية جدًا.

السبت ١١ نوفمبر ١٩٨٩

ما كادت قاعة الطعام تفتح أبوابها هذا الصباح حتى هجم الجميع عليها. لقد منعنا سقوط الحائط من النوم. و بعد ٢٤ ساعة من هذا الحدث، كان يجب علينا أن نتأكد من حقيقة ما حدث. كذلك معرفة كل التفاصيل وكلما مر الوقت زادت التفاصيل. فالحدث كبير جداً لدرجة أنه لا يوجد من يستطيع أن يتكهن بالتطورات القادمة.

ليست هناك ضرورة أن نقول إن زملاءنا من الشرق فضلوا أن يطلبوا الإفطار فى حجراتهم، ولكن "زوريكا" نزلت إلى قاعة الطعام. بوصفها يوغوسلافية فقد تجرعت من الكأس نفسها التى تجرع منها الجميع حتى لو لم تتذوق العذاب. ولمواساة أصدقائنا الحاضرين أخذت تردد دون داع أكثر من مرة إنها كفتاة عاشت خمس سنوات فى برلين، ولم تتوقع أن الأمور ستنتهى بهذا الشكل.

وفى النهاية تجرأ أحدهم وألقى بحجر فى المياه متسائلا: " ماذا سيحدث خلال الساعات القادمة فى برلين أو خارجها؟ لقد اختلط علينا الأمر حول المعطيات المطروحة. وكذلك اختلطت علينا المعايير فى مقهى التجارة وبدأت الحقيقة تتوارى. بدت "زوريكا" كمن تلقى صفعة. وقد ردت على ذلك بعنف قائلة:"عندما يكون النظام شموليًا لابد أن نكون جميعًا معًا."

أسكتت هذه الجملة برغم صدقها كل الهمهمات فى المكان، مما ساعدها على الانسحاب إلى حجرتها.

قمت بطرح الأسئلة السخيفة فى هذا الموضوع قبل أن أنسحب انا الآخر. بقيت "زوريكا" فى حجرتها. فقد كنا نعلم استحالة المقابلة قبل عطلة نهاية الأسبوع.

الأحد ١٢ نوفمبر ١٩٨٩

وفى بار الفندق، أكد "هيكى تومينان" الواثق من نفسه بشدة ليعطينا إيحاء بتصديقه أن هناك اجتماعًا فى الكرملين قد عقد فى مساء التاسع من هذا الشهر لمناقشة اختيار التدخل العسكرى فى برلين. كان هناك ٣٥٠ ألف جندى سوفيتى متمركزون فى المدينة للاستعانة فى مثل هذه الظروف. وبعد الاستماع إلى الآراء المختلفة، فضل "جورباتشوف" عدم التدخل وفق نظرية سيناترا(*). أما جميع أتباع "جريجورى"أخمانوف" يريدون النيل منه. من السهل إعادة إحياء النظم القديمة فى ظل أن مؤسسات الحزب والجيش ينخر فيهما السوس من الداخل. فالجميع يعرف ما ستئول إليه الأمور إذا ذهبت السلطة إلى الخلفاء المعروفين أو "يلتسن" أو أمثاله.

(*) نظرية سيناترا: هى النظرية المقابلة لنظرية بريجينيف. وصفت بأنها نظرية جورباتشوف السياسية فى الحكومة السوفيتية والتى يسمح فيها للدول المجاورة من أعضاء حلف وارسو بإدارة شئونهم الداخلية بطريقتها الخاصة وقد سماها بهذا الاسم استنادًا إلى أغنية فرانك سيناترا" فى طريقى". (المترجمة).

يتحدث هيكى دائمًا الإنجليزية. وهى إنجليزية جامدة تشبه أشجار صمغ الغابة الشمالية الكبرى. وبمجرد أن بدأ حديثه حول ردود الأفعال المنتظرة من قائمة الأسماء ذات الامتيازات حتى تحول حديثه من الإنجليزية إلى الروسية. ظل هو و"زوريكا" يتحدثان بالروسية لفترة طويلة من الزمن. ذكرنى حديثه بنص لا أتذكر مؤرخه التاريخى حول شخصية "ألاريك" الذى يجهز باللاتينية حقيبة روما مع الجنرالات الألمان.

أبدت "زوريكا" ملاحظتها فى التاكسى قائلة:

"إنه غريب. هذا النوع من البشر يحمل بداخله كرهًا شديدًا للسوفييت، وهو لا يكف عن إعلانه. ومع ذلك فهو الوحيد من بيننا الذى على علاقة قوية معهم. فأنا لا أعرف كيف يصل إلى هذه المعلومات الدقيقة حول ما يحدث فى كواليس الكرملين.

بعد استبعاد مبدأ التواطؤ بين الضحايا والجلاد، ظهر لنا اثنان أو ثلاثة تفسيرات. ولتبسيط الأمور قررنا أن التفسير الوحيد المقبول هو الفودكا. بالفعل يقال إن "هيكى" يظل لما بعد منتصف الليل يحتسى الشراب مع أحد أعضاء الوفد السوفيتى فى أحد البارات الروسية البيضاء، التى فتحت أخيرًا فى سوهو كان قد تعرف عليه فى موسكو.

وبعد انتهاء العشاء، قررنا الذهاب إلى هذا البار لشرب كأس من الفودكا. يكاد يختفى مكانه بين

مطعمين باكستانيين. كانت "زوريكا" قد جاءت هنا مع صديقها "هانز موللر" فى بدايات المؤتمر. كان المكان مزدحمًا وأخذت تتعاقب عليه الوجوه نفسها.. أكدت "زوريكا" بحاستها السادسة أن الحمر والبيض قد امتزجا. وعلى طاولة فى نهاية البار لمحنا "جريجورى" يتحدث مع شخص يشبهه. قالت لى "زوريكا" إنه السفير فى لندن. وهو أحد الوجوه البارزة فى البريسترويكا داخل الدبلوماسية السوفيتية.

شربنا كأسًا من الفودكا فى البار وتوهجنا مع الأجواء المحيطة. وعند خروجنا وجدنا سيارة "هيكى" المرسيدس وهى تركن. فتحت له الباب حيث خرج منه بصعوبة شديدة. وعند خروجه ارتمى بين أحضان "زوريكا" مما أجبرنا على العودة معه. وفى الداخل، قبله أغلب الحاضرين لا فرق بين أحمر وأبيض. ومع الكأس الرابعة أو الخامسة وافق على أن ينشد أنشودة "كالينكا" بصوته القادر على إسكات مدافع اللوبيانكا. لاذ الجميع بالصمت المطبق فور سماعهم هذه الأنشودة. حتى "جريجورى" وصديقه الجورباتشوفى. وفور انتهائه من الغناء وبينما كانت عيناه مترقرقتين بالدموع تركناه بتخاذل شديد. استنادًا إلى أن لديه العديد من الأصدقاء الذين يمكنهم أن يرافقوه.

أكدت لى "زوريكا" إنه لا ينام سوى ساعتين فى اليوم.

كان لابد لى من المزيد من الوقت حتى أتفهم مدى التناقض بين اليدين القويتين "لزوريكا" وذقنها التى تبدو ضامرة.

قالت ضاحكة وإن كانت فى الأصل انزعجت: رقبتى التى تراها نسائية هى التى ستضعك على الطريق. فأنا لاعبة كرة طائرة ألعب كالأميرات وقد كتب عنى بكل اللغات فى الصحف. وليس بالسريالية! كان من الممكن أن تجد يدى كما تريدها كامرأة مثيرة. ومع ذلك، يجب أن تأخذنى كما أنا أو تتركنى على أول الطريق! .

تكره زوريكا مثل شبيهاتها أن يتفحصها أحد أو بمعنى أدق أن يصفها. وهى على عكس "ستسوكو"، فهى تعشق أن تذهل من يراها. ويرى كل قطعة من جسدها دون أن ترفض بالطبع إبداء رأى جماعى. وهو أسلوب تعامل على ما أظن. ولكننى لا أشعر أننى بحاجة لأكون حكمًا فى مثل هذا الموضوع.

ولذلك جلست: زوريكا" على طرف السرير فى وضع الهروب فى أى وقت. أخذت أحد الكتب التى اشتريتها من بوبورج حتى أشعر بألفة مع الأصدقاء الرومان. وفجأة وقعت عيناى على هذه الجملة:" عندما ترى السمكة، لا تهتم بقشرها ؟ ولكن ابحث عن بريقها و جودتها" أشعر أن هذه الجملة مكتوبة خصيصًا من أجل "زوريكا" . لذلك كتبتها فى ورقة صغيرة ووضعتها فى حقيبتها.

الإثنين ١٣ نوفمبر ١٩٨٩

قابلنى "كوريوليس" مسئول "ممثلين بلا حدود" عند خروجى من قاعة المؤتمرات وقال لى بصوته الأبوى الحنون: سقوط الحائط ! كان مجرد مسرحية! مسرحية بإخراج مسرحى حى ورائع. مسرحية كبيرة! دعنى أقول لك صراحة إن هذا معناه أننا لو كنا تركنا لجميع فنانى الكوميديا من جميع أنحاء القارة حرية الصعود على المسرح، لكان الحائط قد وقع منذ فترة طويلة.

ثم انطلق ضاحكًا بشدة وسعادة لدرجة أننى لم أستطع أن أوقفه.

أخذنى القس "ماتيولى" الذى أصبح يرتدى زى القساوسة دوما من ذراعى. لقد سمع ما قاله لى هذا المجنون "كوريوليس" كما رأى ضحكتى التى لم أستطع أن أمنعها وقال لى بلهجة الأب.

لا تقلق فإن سقوط السور تسبب فى اضطراب سلوكيات كل منا.

بين الجلستين، اتصلت "ستسوكو" من مكان بعيد جدًا وقالت:

"مع قصة سقوط الحائط هذه سيتوقف المؤتمر. أليس كذلك؟

شعرت أن هذا الاحتمال يهمها. وهو ما أكدته لها.

"عديم الفائدة فى جميع الحالات". عبارة فوجئت أننى أستخدمتها مرتين أو ثلاثة خلال اجتماع اللجنة هذا الصباح. هذا المصطلح يستخدمه "رانكور" كل ربع الساعة. وعلى ما أظن أنه يستخدمه منذ التحاقه بالعمل منذ ستين عامًا.

ففى داخل كل عشيرة فى الغابة التى نحيا فيها سمات رئيسية تميزها. أما فى عشيرتنا، التى تضم ممثلى الدولة فى الخارج، فإن الشكل الظاهرى هو أننا نعيش فى اندماج كامل. فـ"رانكور" يتحدث بنفس طريقة رئيسه المباشر"بونتيو" وهذا الأخير يتحدث بنفس طريقة السفير"فيفيان" وهلم جرا وصولا إلى "فيرجينى" بلا شك.

وفى صراع الحصول على الوظائف فإن المواجهة هى التى تجعلك تكسب أو على العكس تجعلك تخسر. فالمواجهة هى التى ترهق اللاعبين. أعلم أن "رانكور" عاش معى فترة خسارتى الشخصية ـ وكأنها خسارته ـ سواء إقالتى من منصبى فى إدارة آسيا وإحلال "أمبيريو"مكانى، والذى يعد شبه منافسه

القديم "بايو". بالإضافة إلى أننى لو لم أحصل على إدارة طوكيو سيحزن لى.... لحسن الحظ أنه عرف أخيرًا ـ على ما أعتقد ـ أننى لم أعد أرغب فى هذه المسألة الآن.

أقصى ما يمكن فعله الآن فى هذا الموقف من أجل"رانكور" هو أن أرتب أمورى حتى يتوقف هذا الـ"لورو" عن التدخل فى أمورنا خاصة وأننى ضبطته وهو يردد مرتين أو ثلاث جملة"عديم الفائدة" فى أحاديثه. فلنكتفِ بهذا التطفل فى شئوننا. ولتصبح المواجهة أشبه بالقومية. أن نظل معا، ولا شىء سوى أن نكون معًا.

الثلاثـــاء ١٤ نوفمبر ١٩٨٩

جاءنى "لورو" منتشيًا حاملاً لى أحد خطابات "تشاتشيسكو" التى يتحفنا بها ميلسكو صباح كل ثلاثاء. الخطاب تحيط به لمبات الفلورسنت الخضراء لتضيئه من جميع جوانبه. وأجاب عبقرى الفكر الدانوبى على سؤال لجريدة "بارتى"بأنه يرجع انهيار حائط برلين إلى الصيحات المتعالية للإعلام الغربى ضد المعسكر الغربى، معلنًا عن زيادة ملحوظة فى الإجراءات المخصصة للتشويش على الإذاعات الأجنبية. وأكد قائلا: نحن لا ننخدع بالمناورات الإمبريالية.

هنأت "لورو" على بصيرته الثاقبة التى لا تخطئ أبدًا ولكن دون أن أقول له إن سفارتنا قامت بإرسال برقية رائعة بخصوص الموضوع. أتصور أن يد ميلسكو السمينة هى التى تقف وراء هذا التصريح للزعيم الرومانى. خرجت من الفندق دون أن نضع صيغة واضحة للبيان.

التدخل القوى لهذا السوفيتى الذى تصور نفسه مضطرًا لمناقشة أحد البنود علنًا فى محاولة لاستعادة عالمه الصغير بعد ما أسماه باختصار مأساة برلين قد أطلق الضحكات المتتابعة من صديقى الفنلندى.

بعد أن أطلق "جريجورى" جملته الأخيرة من قلب الصمت الرهيب كان"هيكى" قد تلقى ضربتين أو ثلاثة من يديه الفولاذية الضخمة. وبغضب بالغ كان المتحدث يريد أخذ الكلمة للاحتجاج. ولكن "جاريسون" لم يعطه الفرصة إذ أعلن عن إنهاء الجلسة للاستراحة. ولا أعلم من أين ظهر شوستر ليقطع صوت الميكروفون.

جذبنى"بات كالاجان" من ذراعى برابطة عنقه ليست ذات اللون الأخضر الزرعى ولكن تلك التى تشبه الخيط الأحمر والأسود قائلا لى: "لقد افترقنا أنا و"مينرفا" أمس. فبرغم طلاقتها فى التحدث باللغة الإيطالية إلا أن اليونانيين لا يطاقون. لقد كنت على حق. إنها لم تكن بالنسبة لى سوى مجرد عشيقة بدون مستقبل.

لم أتذكر أننى قلت ذلك أو حتى ما يشابهه. لقد كان ما قاله القس "ماتيولى" حقيقيًا. إننا جميعًا فى حالة عدم اتزان.

وكعادة البلجيكيين، دعا "بول دوجير" بعض الزملاء للعشاء فى ناد مقصور الدخول فيه على الأعضاء فى "ريجنت ستريت(*)". وكان من بين

(*) ريجنت ستريت هو واحد من الشوارع التجارية الرئيسية فى لندن ويست إند ، معروف جيدًا لدى السياح وسكان لندن على السواء ، واشتهرت به إضاءات عيد الميلاد.

المدعوين"كارلوس" و"تيد" و"فاشيلاف" البلغارى وصحفى سوفيتى والقس "ماتيولى" الذى لم يعد هناك مفر من وجوده بعد الآن، وكذلك اثنان أو ثلاثة آخرون. وبناءً على رغبتى، وجه الدعوة إلى "زوريكا". لتصبح هذه هى أول مرة نتقابل فيها معًا فى مكان عام.

وللترحيب بنا شرب نخبنا وشرح أسباب وجودنا فى هذا المكان:

إن الحدود لا تكون حيث نتوقع. بالتأكيد ما زالت الحوائط موجودة حتى ...

حتى فاشيلاف بدت ثمة ضحكة على وجهه.

استمر قائلا: ولكن هناك حدودًا غير ملموسة ولا يمكن تخطيها وتقطع كوكبنا إلى نصفين: فى ناحية يعيش الذين يشربون الخمر ويتذوقونها، وفى الناحية الأخرى تعيش باقى الإنسانية. كنت أتمنى ولو مرة واحدة على الأقل خلال مؤتمرنا أن يحاول من هم فى الناحية القوية أن يعبروا الحدود وأن يحتفلوا بـ" باكوس"(*) ويعيشوا نشوة الصداقة بين عالمين.

من مزرعته فى "ميدوك" كان دوجرى قد جلب لنا زجاجات معتقة وتحدث معنا بالفرنسية

فوجئنا بأن البلجيكى يتعامل مع "فاشيلاف" على أنه سيده فى صناعة الخمور. بينما أكد لنا هذا الأخير أنه ليس له أى فضل. فالبلجيكى مولود فى

(*) باكوس أو باخوس فى الميثولوجيا الإغريقية: هو إله الخمر عند الإغريق القدماء، و هو من أشهر رموز الميثولوجيا الإغريقية.

قبو الخمور أصلا فوالده كان مالكًا لمصنع خمور كما أنه كان أحد أبرز ملاك مزارع الكروم قبل الحرب.

ثم شرح "فاشيلاف" قائلا:" لقد كان والده اشتراكيًا على حق ويجب أن نقول إنه كان لديه المدراء الموجودون من أجل ذلك. فهم أرستقراطيون يعاملون المزارعين كأيام العصور الوسطى. وبعد تأميم الأراضى لم يستمر فقط، بل قام بتقديم منتجات جديدة على رأسها "قصر لينين" الذى يعد بحق أفضل أنواع الخمور الموجودة حاليًا. إنها الخمر التى تستخدم إلى الآن على الموائد فى الزيارات الرسمية.

أراد والده أن يكون له مكانة فى الإدارة الجديدة، ولكن عشقه الحقيقى كان لتصنيع وحفظ الخمور مما لا يعد شيئًا غريبًا من مواطن يعيش فى مدينة كمدينته ـ كما أشار ـ مكونة كلها من زراعة الكروم منذ أربعة آلاف سنة.

"فاشيلاف" ما زال يتذكر الفترة التى كان يعمل فيها سفيرًا فى فرنسا بعد وضع نظام صارم فى القاهرة وبكين. ومع مرور الأيام، استطاع أن ينخرط فى بعض الأعمال تحديدًا فى "بوردلييه"، كما شهد بذلك سكان المدينة فى المناطق التى بها توأمة مع القرى البلغارية.

فى البداية، لم تكن "زوريكا" مندمجة مع المجموعة، ولكنها قررت الاندماج معهم بناء على حالة السكر التى كانت فيها.

في التاكسي الذي كان يقلنا بدأت في رسم وجه الاثنين اللذين استضافونا اليوم. الأرستقراطي البلجيكي والبروليتاري البلغاري.

ثم استنتجت قائلة: "دوجري" على حق فالخمر فعلا تتجاوز صراع الطبقات. ولكن هل لاحظت أن أنف كلا منهما لها الشكل نفسه.

الأربعـــاء ١٥ نوفمبر ١٩٨٩

بعد العاشر من نوفمبر، عانى ممثل ألمانيا الشرقية من الركود لمدة يومين أو ثلاثة. فمنذ هذا اليوم، بدأ "هانز موللر" فى استعادة ثقته بنفسه، إذ بدأ يخفف من حدة نقاشاته أثناء مداخلاته خلال الجلسات، ولكن دون أن يعارض مباشرة الحلول الهشة المقدمة من قبل المؤتمر؛ حيث استمر فى مباشرة المصاعب خلف الكواليس.

وبدأ يشرح للصحفيين الذين يلاحقونه قائلا:" مازال أمام الجمهورية الديمقراطية أيام جميلة. لا يمكننا تغيير أى شىء فى ظل أننا عشنا أربعين عامًا منفصلين. فإن لنا نظامنا وقيمنا الخاصة وما زال أغلب السكان متمسكين بهما سواء أردنا أو لم نرد وحتى لو أرادوا بعض الإصلاحات فسيكون لك لصالح المنافع المشتركة.

تعتقد "زوريكا" أن هذا ليس ما يؤمن به من داخله، فهو ما زال يحكم على المواقف من بعيد. وقد

استخلصت "زوريكا" هذه النتيجة من خلال أحاديثها الكثيرة معه.

ما زال السكرتير العام للمنظمة يأمل أن يصل المؤتمر إلى أبعد مما هو متوقع. ومن خلال إرسال مبعوث موثوق فيه إلى لندن أعلن جورباتشوف أمله فى أن تنجح نتائج مؤتمر لندن فى إظهار حقائق البريسترويكا للفكر الغربى وذلك عبر وسائل الإعلام. كانت نهاية الصراع لا تزال تشوبها المخاطر. وكان "فيكتور مالفيتش" يجلس فى مواجهة "جريجورى أخمانوف"، وهو شخصية لها وزنها فى هذا النظام كما أنه مدعوم بقوة من قبل الأجهزة المحافظة. ويعود نجاح مالفيتش المتتالى إلى شجاعته ومهارته إضافة بالطبع إلى الظروف الراهنة. وهو ما لم يكن ليكتسبه فى حالة الرحيل.

إذا لم يكن شوستر قد وضع هذه الظواهر كشروط فإنه يستحق الجزاء.

جاءنى القس "ماتيولى" حيثما أجلس فى نصف الدائرة، ثم أقترب منى وهمس لى قائلا: " كن حذرًا من شوستر! هذه نصيحة صديق. صحيح أن سكرتيرنا العام هو شخصية متميزة. ولكننا لا نعرف اتجاهاته الشخصية ولا نعرف مع من هو.

ملاحظة غريبة من رجل دين، وهو الذى كان منهمكًا طوال الوقت فى كتابه المقدس حتى لحظة انهيار الحائط.

لاحظنا منذ فترة من الوقت، تردد كوجلمان خبيرنا في الصحافة المكتوبة على مكتب أعضاء وفدنا. وعندما قلت هذه الملاحظة لـ"كلودين"احمرت خجلا حتى أذنيها. إننى لم أسجل حتى الآن كم هما رائعتان.

منذ العاشر من نوفمبر، بدأت عيون كل من القس "ماتيولى" و"كراتوسكى" وشركاه تلمع وتعاملت مع سقوط الحائط على أنه حدث يدل على القدرات المقدسة. سقوط الحائط المقدس بأى شكل. لم تكن هذه الفرضية بالشىء العبثى. ما دمت أنا و"كارلوس" قد اتخذنا قرارًا بدخول فئة الخوارق.

فنحن - الاثنين - جئنا إلى لندن ولدينا نفس الفكرة وهى ألا نلتزم إلا بأقل حضور ممكن للمؤتمر بشكله العادى حيث يمكن أن نلقى فقط بجسدينا. أقل خدمة ممكنة! وها نحن على سبيل المثال جاءتنا فجأة هذا الصباح فكرة تكوين مجموعة سرية تعكس ما يمكن أن نطلق عليه بجدارة "الإعلان الأوروبى للأخبار". وطلبنا من أربعة أوخمسة أشخاص من زملائنا التعاون معنا. فوجودنا قريبًا جدًا من بؤرة الأحداث تجعل بإمكاننا تبديل الملفات غير المنطقية التى كنا بصدد مناقشتها فى المؤتمر. ومن خلال نص محدد يتم إعلان وتنسيق حرية الإعلام داخل قارتنا. من حسن الحظ إننا نسكن فى المكان نفسه، وهذا جيد؛ لأننا أصبحنا لا نحتاج أن نضيف صيغة "إلى كل النهايات التى بلا فائدة"

ولقد اتفقنا ألا نتأثر بما يقوله ميلسكو وأنصاره حيث لم نعد ننصت له منذ انهيار الحائط.

الذهاب لرؤية روايات شكسبير تهديك عدة فوائد إحداهما هو التحليل المختلف للأدب المتخصص. لست متأكدًا إنه استطاع أن يجذب الانتباه نحو المساعدات التى ستساعدنا على مواجهة الحقائق الغريبة للتاريخ. شاهدنا مسرحية "الملك لير" فى صالة "بابريكان" المليئة بالأترية. ومع ذلك فقد فتحت هذه المسرحية أعيننا على كيفية مواجهة حقيقة الأحداث التى تدور فى الخارج الآن تحت أعيننا.

أردفت "زوريكا" قائلة: ليس على سبيل المصادفة أن يكون شكسبير هو الكاتب المفضل لكارل ماركس.

أتصور أن "زويكا" هى آخر شخص فى أوروبا يتحدث عن "ماركس" وكأنه لا يزال حيًا. ويبدو أنها أحست بما يجول فى خاطرى فقالت: أمضيت معه خمس سنوات كاملة عندما كنت أقوم بتحضير رسالتى وعشت معه أكثر من أى شخص آخر. حتى أننى تمنيت أن يكون والد أبنائى.

وعند خروجنا من المسرح، قابلنا "كوريوليس" وصديقته "مارى" أو "جان" لا أعرف بالضبط. ولكن "برونتيه" بالتأكيد. واقترحوا علينا الذهاب إلى مطعم فيش أند شيبس الذى يقع فى المنطقة. وكما يحدث دائما أحست "زوريكا" بالجوع مع ولعها الشديد بالتعرف على الأماكن الجديدة. وجدنا أنفسنا

محاطين ببقايا الطعام وقد جلسنا على مائدة من الفورمايكا المضاءة بلمبات من النيون منذ الخمسينيات. ويبدو أنه قد ظهر على الغضب حتى أن "زوريكا" قالت:ولكنك أيضًا سفير البطاطس الفرنسية المحمرة هنا أليس كذلك. أضحكتنى جملتها ولكننى شعرت أن مُزاجى قد ساء.

تأثرت "زوريكا" بالحديث مع "كوريوليس" عندما كان يروى عن دور قام به فى أحد الأفلام عن حياة "كارل ماركس". بدا كالملاك ولكن ماذا بعد.

الخميس ١٦ نوفمبر ١٩٨٩

كانت لبرقيتي الخاصة حول تداعيات انهيار حائط برلين وتأثير ذلك على تتابع مؤتمرنا السبب فى إشعال غضب المسئول عن الملف الأوروبى مرة أخرى. فلم يقبل أن أكون أنا ـ غير المتخصص ـ استعرض بفخر تخوفات شخص قوى مثل هانز موللر حول مستقبل دكتاتورية البروليتاريا فى ألمانيا الشرقية. صحيح أننى كجنتلمان كما تقول سيبل والسا لم أعلن عن مصادرى الخاصة. تصور بورلييه من خلال برقية أرسلها إلى جميع مكاتبنا أنه مجبر على التحذير فيه من بعض الأفكار غير المسئولة للبعض. ثم ضرب مثالا بفريق "إيجون كرينز"(*) الذين استعانوا بمجموعة من الوسائل المدهشة للوصول للحكم.

(*) إيجون كرينز ولد فى ١٩مارس ١٩٣٧هو سياسى شيوعى سابق من الجمهورية الديمقراطية الألمانية (ألمانيا الشرقية). جاء خلفاً لاريك هونيكر. شغل منصب رئيس الدولة فى ألمانيا الشرقية وتزعم حزب الوحدة الاشتراكى الحاكم فى ألمانيا لمدة ثلاثة أشهر فى عام ١٩٨٩م قبل انهيار النظام الشيوعى.

وأكثر من ذلك، إن الشعب من داخله يخاف من إمكانية الائتلاف مع ألمانيا الفيدرالية والذى يعنى بالتأكيد نهاية الحياة الاجتماعية بخبراتها. وأضاف فى النهاية أن هذا هو أكثر ما يفكر فيه متحدثونا فى بون.

وعندما أخبرت وارنر بهذا التأكيد الأخير انفجر ضاحكًا وقال لى: لقد فهم الجميع الآن ما عدا صديقك "بورلييه" أن السلطات الجديدة فى برلين تحرث فى البحر.

يحب وارنر دائمًا استخدام بعض من هذه المصطلحات أمامى والتى تعلمها منذ أن كان يدرس العلوم السياسية. ولكن يتعين عليه أن يعرف أن المناسبات التى تستخدم فيها هذه المصطلحات لا تكون دائمًا مناسبة.

ونظرًا لأننا بدأنا نتعرف أكثر وأصبح بيننا نوع من الود، فلقد أضاف لى أنهم فى بون لا يعرفون كيف يتعاملون مع التطورات السريعة لهذا الموقف. لم توجد أبدًا خطة لمواجهة حدث انهيار الحائط الذى ما زال الجميع يتصور أنه المستحيل. واكتفت الحكومة اليوم بالمرور بين صخوره ولا داع للقول بأنه حتى هذه اللحظة مثلا لم يصل المستشار ووزير خارجيته إلى رأى موحد.

وأضاف فى النهاية: إننى متأكد أنكم أنتم - الفرنسيين - تفضلون أن تستمر ألمانيا فى هذا الاضطراب.

وقف رجل"سوليدارنوسك(*) "مرتديًا رابطة عنق زرقاء وهو يقول:

لا يبحث"سولوسكى" عن الحرب ولا حتى يفكر فيها. لقد استوعب هو وأصدقاؤه أنهم لم يأتوا إلى هنا إلا من أجل التصوير. فالخطوة القادمة ستقودهم إلى مزبلة التاريخ. أليس كذلك. مثلما يجب أن نأخذ فى الاعتبار العدد يجب أن نأخذ فى الاعتبار أيضًا مساحات الأراضى.

توقف "كراتوسكى" عن الكلام لأنه لم يكن متأكدًا من استيعابى لما يقول:

ابتسمت له تلك الابتسامة التى ينتظرها.

أضاف قائلا: لا يوجد فعليًا وزارة للخارجية فى وارسو. فأنا الذى أعطى التعليمات لنفسى. فى الحقيقة، هذا أفضل سواء لبولندا أو حتى للمؤتمر. وهو الإطار المناسب لميزانيتنا البائسة التى وضعوها لوفدنا.

تحدثت معه عن فكرتى أنا و"كارلوس" فى تكوين مجموعة عمل غير رسمية حيث يمكننا التفكير معًا فى احتمالات التغيير الخاصة بمؤتمرنا على ضوء الأحداث الجارية. رحب بالفكرة على الفور. فلقد رأى فى وجود رجل "جورباتشوف " معنا بالإضافة إلى "زوريكا بلفيك" والسويدية فكرة رائعة.

(*) سوليدارنوسك: هو اتحاد نقابات العمال البولندى. تأسس فى ٣١ أغسطس، كان فى الأصل بقيادة ليخ فرنسا. فى ١٩٨٠م ولعب دورًا رئيسيًا فى معارضة نظام الجمهورية الشعبية فى بولندا. (المترجمة).

بعد الوفاة المفاجئة لـ"بلانشون" فى صوفيا تمنت "كلودين" أن تحل محله. وكانت بالفعل تستحق ذلك. فهى تتحدث البلغارية بطلاقة. ولكن لسوء الحظ كان أحد أقارب السيدة رئيسة الدولة فى حاجة "لزيارة دولة جديدة" فتولى هو المنصب. استقبلت "كلودين" الخبر بروح فلسفية عالية إذ قالت: هذا يعلمنى ألا أتمنى ما لا يجب. وفى سبيل التخفيف عنها قام "كوجلمان" التى كانت لا تخفى عنه شيئًا باصطحابها إلى إحدى الجزر الأيرلندية.

كنت قد نسيت مفكرتى اليابانية. وجدتها "زوريكا" بعد جهد جهيد وسط مجموعة من الملفات أثناء بحثها عن كتيب ما على مكتبى وشرحت لها أصول وكيفية تجسد الأفكار فى هذا العمل. وبحكم أنها كانت ولا تزال تلميذة نجيبة فقد استاءت بشدة من لامبالاتى رغم تأكدها من أهمية هذا الموضوع بالنسبة لى.

إن كنت قد انتهيت من هذا العمل، كان من المفروض أن تهتم أكثر بالتغيرات التى تخص تعيينك القادم.

أشعر أحيانًا أنى أكرهها بشدة.

الجمعة ١٧ نوفمبر ١٩٨٩

لم يستطع أتباع جورباتشوف المملوءون بفورة الحرية المطلقة أن يتحكموا فى أنفسهم. لذلك كان "فيكتور مالفيتش" بعد ظهيرة هذا اليوم موجودًا فى لجنة تناقش ظروف عمل الصحفيين. بدأ حديثه بقراءة نص كتبه أعضاء بريجينيف القدامى فى الوفد. بدأ بقراءة جزء من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس والخاص بعدم التدخل فى الشئون الداخلية. بدأ صوته يتلاشى وسط ضجيج الجلسة. وبحركة انفعالية ألقى الأوراق التى أعطوه إياها على الأرض ثم بدأ يرتجل بشكل جامح حول العلاقات القوية بين التقدم الاجتماعى والاقتصادى وتطور وسائل الإعلام.

ثم أضاف قائلا:

"إن حرية المعلومات هى نتيجة طبيعية للحرية التى أعطاها "جورباتشوف" باسم

"الجلاسنوست"(*)، وهي الأكسجين اللازم لكل الأعمال الديمقراطية.

ولكي يبرهن على ما يقوله أخذ يخبط على المكتب بقبضته دون أن يرى وجوه أصدقائه التي أصابتها الرهبة. ظل لوقت طويل وهو شديد التأثر هكذا. انسحب أحد أعضاء الوفد ليتدارك ما يرتكب باسم تحطيم المقدسات. ما أن انتهى"مالفيتش" من كلمته حتى صخبت القاعة بتصفيق حاد بسبب إمساكه ببراعة بخيوط موضوعه. كانت هذه هي أول مرة يتم فيها التعبير بهذه الطريقة. في الوقت نفسه الذي غادر فيه العديد من أعضاء وفده القاعة ووجوههم واجمة.

لم أستطع أن أمنع نفسي من كتابة عدة أسطر وإرسالها إلى باريس عن هذه المداخلة والانفعالات التي قادت إليها. وفي محاولة مني للولوج إلى قلب المسئول عن الملف الأوروبي، والذي يصر على عدم فهم او رؤية أي شيء ولأنني مجبر على التعامل معه فقد بدأت في إشراك نفسي في كل هذه الأحداث.

منذ أن اقترحت على "كراتوسكي" المشاركة في تحرير نص البيان الجديد بهذا الاسم وهو آخذ في الدوران حولي. روى لي كيف انضم منذ البداية إلى السوليدارنوسك، وهو لا يزال شابًا صغيرًا متخصصًا

(*) الجلاسنوست كلمة روسية تعني الشفافية صارت مصطلحًا سياسيًا حين انتهج ميخائيل جورباتشوف في النصف الثاني من ١٩٨٠م، إذ كان ينتهج فيها الدعاية القصوى ، والانفتاح ، والشفافية في أنشطة جميع المؤسسات الحكومية في الاتحاد السوفيتي، جنبًا إلى جنب مع حرية المعلومات.

فى منطقة "بيزنطة" وهى إحدى المناطق ذات التخصص النادر فى التاريخ حيث كان الصراع الطبقى فيها على أشده. وشرح لى كيف كان القس "ماتيولى" يعمل فى السفارة البابوية فى وارسو بقرار شخصى من "جون بول الثانى" دون أن يعلم البوليس أن الشاب الإيطالى يتحدث البولندية. وظل لفترة طويلة هو وسيلة الاتصال الرئيسية بين الفاتيكان والسوليدارنوسك . وعندما علموا بذلك، رحلوه على أول طائرة. ولذلك فإن تعيينه فى الكرسى البابوى كمراقب لمؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى أعاد للكتاب المقدس مكانه الرئيسى فى ظل قلة العمل المسند اليه.

قبل رحيلها إلى الجزيرة الأيرلندية، عرفتنى "كلودين" على أحد أصدقائها الذى يعيش فى برلين الغربية، وعايش الأحداث بشكل مباشر. كانت دهشتها الكبرى عندما علمت بالتحول المفاجئ للشرطة الشعبية المسكينة لألمانيا الشرقية، التى تم إرسالها إلى الحدود. فلقد كانوا يؤكدون دائمًا ـ سواء رجالا أو نساء ـ بأنهم الأحق بأن يكونوا خير خلف لـ "كابو"(*) الرايخ الثالث". فبعد أن كان الجنود قد

(*) كابو: تشير إلى الأشخاص الذين كانوا مسئولين عن الإشراف على السجناء فى معسكرات الاعتقال النازية. وهم قد تم تجنيدهم من بين السجناء العاديين الأكثر عنفًا أو بين أولئك الذين لديهم دهاء أو خنوع أو وحشية. وكانوا غالبًا من المحكوم عليهم الذين تم عرض هذا العمل عليهم فى مقابل تخفيف الحكم أو الإفراج المشروط، إلا انهم ـ عادة ـ ما قتلوا وتم الاستعاضة عنهم بدفعة جديدة من السجناء.

تعودوا على سب الزائرين من تحت كاباتهم الخضراء حتى الذين يحملون أوراقًا سليمة. فجأة تحولوا فى غمضة عين إلى العكس تمامًا. أصبحوا يتمتعون بدرجة عالية جدًا من اللياقة فى التنظيم. بل إن بعضهم تطوع بشرح خرائط المترو والشوارع ليلبوا طلبات الزائرين والسائحين. بالطبع هى مبادرات نابعة من داخلهم ولكنها كانت مختفية وراء الإحباط. فما عايشوه لم يستطع أن يعطيهم ولو أقل القليل من الإحساس بالإنسانية.

بالطبع يحاول هؤلاء الأشخاص تجنب الإساءة للمستقبل. ولكن ما هو أعمق من ذلك، كما أشارت "كلودين"، هو أن التغير الأساسى فى المواقف حولنا يطرح السؤال حول مرونة الطبيعة الإنسانية. والأكثر من ذلك، كلنا نعرف أن ما حدث هو فرصة لا تأتى إلا نادرًا.

السبت ١٨ نوفمبر ١٩٨٩

تجمهر ما يقرب من خمسين ألف طالب فى ميدان" وينسلاس"(*) فى براج حيث لا يزال الجمود هو المسيطر على كل شىء منذ شهر. لكن هذه المرة ووفق تصريح لنائب وزير الداخلية فى إذاعة الـ بى. بى. سى قال فيه إن الشرطة فتحت النار على هذه العناصر المناهضة للاشتراكية والراغبة فى زعزعة استقرار البلاد. لحسن الحظ لم يقع قتلى فيما يعد معجزة، ولكن هناك مئات الجرحى

أليس ما حدث هو الشىء نفسه الذى وقع لدى التحول التاريخى المشابه الذى جرى فى الصين

(*) "وينسلاس"هى واحدة من ساحات المدينة الرئيسية ومركز لرجال الأعمال والمجتمعات الثقافية فى المدينة الجديدة من براغ ، بجمهورية التشيك. وقعت فيها كثير من الأحداث التاريخية كما أنها هى المكان التقليدى للمظاهرات و الاحتفالات وغيرها وبها عدد من التجمعات العامة.

عندما اصطدمت القوات الصينية مع متظاهرى" تيانانمن(*)"؟

أم أن الأغبياء فقط هم الذين لا يفهمون أن الرياح قد غيرت اتجاهها.

ردت "زوريكا" على ذلك قائلة: لن يستطيعوا التغلب على ذلك

ذكرت لى أيضًا أن "هانز موللر" لم يكن بعيدًا عن التفكير فى ذلك. بالنسبة له فإن ما هو أكثر من انهيار حائط برلين هو التداعيات التى جعلت الأمور بهذه الخطورة. فالغبى الذى أشعل النار فى الفتيل يوم التاسع من نوفمبر بوقوفه أمام كاميرات التليفزيون لإعلان حرية السياحة إلى الخارج لم يكن قد أخذ تصريحًا من الحزب بذلك. ولم يتواجد مسئول واحد لينفى فى الحال هذه التصريحات غير المسئولة. وطبيعى أنه منذ أن ألقى "جورباتشوف" بـ"هونيكر" فى الفخ ، فإن الاستقالات الجبرية أو الاختيارية قد وصلت إلى أعلى مستوياتها ليحل محلها فراغ مدمر فى السلطة. لقد حدثت الكارثة بالفعل، ولا يوجد من له سلطة إعطاء التعليمات لقوات الأمن بالانتشار بطول الحائط ومنع عمليات الخروج. سينهار النظام نفسه بالكامل خلال ثلاثة أسابيع.

(*) مظاهرات ساحة تيانانمن هى مجموعة من المظاهرات الوطنية التى وقعت فى جمهورية الصين الشعبية، بين ١٥ إبريل، ١٩٨٩م و٤ يونيو، ١٩٨٩م، و تمركزت فى ساحة تيانانمن فى بكين التى كانت محتلة من قبل طلاب جامعيين صينيين طالبوا بالديمقراطية والإصلاح.

قلت لها:"طالما قال لى معلمى الأول رانكور أن الانفجار هو محرك التاريخ"

قلت ذلك فقط لذكر اسم "رانكور" أمام "زوريكا"

ردت على هذه الماركسية قائلة: ربما انفجار بطريقة ميكانيكية. ثم عقدت حاجبيها بالطريقة التى أحبها.

ظل فاكلاف فاسيك فى طوكيو لمدة عشرين عامًا لأنه ما زال مهذبًا ومتحفظًا فى تصرفاته. ولذلك فمجرد فكرة سؤاله عن انفعالاته عما حدث فى براج لم تستهونى. فأنا لا أعرف عنه أى شىء سوى أنه استكمل جزءًا من دراسته فى موسكو. ففى مدارس الحزب علموه كيف يكظم جميع انفعالاته. بينما لم يهيئوه بالطبع هو وأمثاله لمواجهة أية ثورة. على الأقل ثورات الآخرين.

كان رانكور حاضرًا فى ذهنى بشدة طوال اليوم. أتذكر عندما أراد إخراس أحد المزعجين المنفعلين باعتبار أنه عالم ببواطن الأمور، إذ قال له "رانكو": لا أعرف كيفية التصرف فى فترة ما قبل التاريخ، ولكن التاريخ يوضح أنه......." كانت هذه النقاط تريد أن تقول إن التاريخ يوضح لنا أنه عندما تتخبط انفعالات رجال السلطة تصبح الغلبة للمهاجمين.

جاء اللقاء غير الرسمى الذى رتبت له أنا و"كارلوس" مع"إيفا بنجستون" و"مالفيتش" و"كراتوسكى" و"زوريكا" كأحسن ما يكون وأفضل مما

كنت أتوقع. اتفقنا جميعًا على صياغة نص يطمح إلى إرساء الخطوط العريضة لنظام المعلومات الأوروبية الجديدة على أن يتم ذلك فى منتهى السرية. فإذا كانت المقدمات المأخوذة عن مختلف النقاط الفنية المدرجة فى جدول أعمال المؤتمر ستتوالى فإن الوقت قد حان لكى نضع النص معًا على مائدة المؤتمر.

اتفقنا على أن نلتقى هنا فى "بلو بارروت". فى حانة "بيمليكو" البعيدة لتفادى جميع اللقاءات غير المرغوب فيها. بدا أن "كراتوسكى" يألف المكان جيداً إذ أخذ يشرح لنا كيف أن اجتماعات أعضاء جمعية البيزنطيين التى كان هو أحد أعضائها كانت تتم هنا. وعندما نظرت إلى الوجوه الناعمة الموجودة فى المكان والحركات التى يقوم بها الزبائن، أقسمت إن هذا المكان كان خاصًا باللقاءات السرية للقساوسة.

الباخرة الكبيرة ناصعة البياض التى نستقلها منذ سبعة أسابيع لم تصنع لتبحر فى البحر على الإطلاق. صحيح أن الشواهد تؤكد أن هناك تيارًا ما خفيًا ينتزعنا بعيداً عن الشاطئ، وكذلك الماء يحيط بنا شيئًا فشيئًا من كل جانب وأنها سترسو بالتأكيد على أحد الموانئ، ولكن لا أحد يستطيع أن يتكهن أين سترسو.

الأحـد ١٩ نوفمبر ١٩٨٩

كان "ميلسكو" يجلس وحيدًا أمام المتحف الوطنى للفن البـريطانى "التـات" وكـانت هـذه أول مـرة أراه فى الهواء الطلق بعيدًا عن قاعة المؤتمرات. كان منهمكًا فى قراءة كتالوج المتحف رغم العتمة والبرد اللذين يلفان المكان. كان ممسكًا فى يده بكيس فيشار يأكل منه على فترات. أردت الذهاب لأقول لهذا الشبح صباح الخير

صاحت زوريكا قائلة:"لا رحمة لأعـداء الرحمة".

ابتعدنا بخطى ثابتة. ولكن بعد ذلك سألت نفسى ألم يأتى "ميلسكو" لهذا المتحف الوطنى لرؤية أتباع "برانكوزى"المعروضين هنا فى هذا المكان. إنها قصة التحريض ضد أعداء الطبقة الذين سخروا من بلاده فى المؤتمر.

فى أحد المسارح القريبة من "كوفن جاردن" تم عرض مسرحية "مقاومة ارترو يو المتصاعدة"(*).

(*)"مقاومة ارترو يو المتصاعدة " مسرحية لبرتولت بريخت كتبها بالفنلندية عام ١٩٤١ ، ولكنها لم تعرض إلا عام ١٩٥٩م.

كانت "زوريكا" ترغب بشدة أن أكتشف هذه المسرحية لأنها جسدتها عندما كانت طالبة.

وعندما عدنا إلى حجرتها علقت قائلة:"

عندما كنا فى الجامعة، كنا متأكدين أنه لو كان "بريخت" قد كتب هذه المسرحية قبل عام ١٩٣٣، وإذا كان جميع الألمان أجبروا على رؤيتها، لم يكن "هتلر" وصل إلى السلطة أبدًا. كما لو أن الكلام فقط بالنسبة لهم كان قادرًا على تغيير أفكارهم! ولا داع للقول إن لا أحد منا كلف نفسه فى عمل المقارنة بين العرض الذى نقدمه كل ليلة وبين تطور ثقافة شخصية زعيمنا الذى نحبه.

فجأة ارتبكت زوريكا من هذه الحقائق وكأنها تكتشفها لأول مرة ثم شردت أفكارها وهى تنظر لى دون أن ترانى ودون أن اعرف فيما تفكر وإن كانت بدت أجمل بكثير. ثم همست قائلة وكأنها تكلم نفسها:

ـ لا تؤثر الكلمات إلا على العقول المقتنعة بالفعل

ـ أحبك

جاءت كلمتها كطلقة خرجت من فوهة مسدس. كانت تلك الكلمة عكس إرادتى، وعكس سلوكياتى، وعكس أدبياتى الشخصية، بل هى عكس كل معتقداتى فى الحياة. فقد كان هدفى البائس هو معرفة ما يدور فى رأسها الصغير.

بدت مندهشة فى البداية، ثم رمقتنى بنظرة قوية جعلتنى أخجل من نفسى.

لم أكن قد استخدمت فعل "يحب" منذ فترة طويلة. شعرت بسخط شديد من تلك الهفوة لدرجة أننى لم أستطع النوم فى هذه الليلة.

فى الصباح الباكر همست زوريكا فى أذنى بعدما أحست بأرقى طوال الليل قائلة:

لنتفق بيننا على أنك لم تقل شيئًا.

طبعت قبلة رقيقة على فمى وفى النهاية استطعت النوم.

الإثنين ٢٠ نوفمبر ١٩٨٩

لم تخرج أخبار هذا الصباح عن وصف ما حدث ليلة أمس فى العشاء الذى أقامه ميتران بقصر الإليزيه لنظرائه فى المؤتمر الأوروبى بمناسبة ترأسه لهذه الدورة. من السهل تخيل هذا المشهد فهو يشبه مشهد العشاء الأخير. كانوا اثنى عشر شخصًا حول رئيس اللجنة الأوروبية "ميتران". كان "كول" يحاول أن يبدو أصغر من سنه للتعبير عما يشعر به من سعادة داخلية. كان يشعر بسخط "ماجى" وبحذر مضيفه وبقلة حماسة كل المدعوين. الجميع يعلم أن إعادة التوحيد مسألة حتمية على المدى القصير بشكل أو بآخر. فهناك ما يقرب من ثمانين مليونًا من السكان لاحظوا تغير التوازن الجيوسياسى. وفى الوقت نفسه من المستحيل إخفاء هذا الفرح الطاغى من هذه الأحداث الجارية. فحتى عدم الشعور بهذا الفرح هو الذى أضاف مزيدًا من السخط على مشاعر المشاركين فى هذا العشاء.

فى كل مرة ـ وما أكثرها من مرات ـ تلتقى فيها عيون تاتشر الباردة مع عيون ميتران المتكدرة أتصور مشهد العشاء الأخير. ولكن ذلك المشهد الذى رسمه وأعاد رسمه "ليوناردو دافنشى" والآخرون مختلف تمامًا. فالموقف هنا يحوى وراءه قوة داخلية لدرجة أن كتَّاب المسرح سيعجزون عن إيجاد خائن من ضمن الاثنى عشر "حواريًا".

ولمرة واحدة كنت أنا الذى أوجه الكلام إلى رجل «ممثلون بلا حدود» الذى كان يتدرب فى الطرقات. طلبت منه قبل أن يفتح فمه أن يتحدث الآن عن هذا الموضوع لأكبر عدد ممكن من الأوروبيين. فمنظمته ستعمل على تعبئة المؤلفين والممثلين فى حالة الطوارئ. فتلك هى فرصتهم التى طالما حلموا بها فى إقناعنا بقدرة المسرح. نظر لى"كوريوليس" ليتأكد أننى لا أهزأ منه وعندما وجدنى لا أفعل ذلك نهرنى طالبًا منى الصمت.

حاول شابان من أعضاء وفد ألمانيا الشرقية أن يتخابثا أثناء تواجد عدد من أعضاء الوفد فى البار حيث أعربا صراحة عن رضائهما من تطور الموقف. قالوا ذلك فى اللحظة نفسها التى كان فيها أحد الجواسيس يمر بالقرب منهم ليرحلهم سفيرهم على أول طائرة إلى بلادهم.وجه "هانز موللر" حديثه لـ"زوريكا" التى كانت مندهشة بشدة قائلا لها:

أن يصبح رد الفعل هذا هو ما يحدث اليوم على أرض الجمهورية الديمقراطية فهذا شىء جيد جدًا!

ما دام المسئولون أو من لهم حق اتخاذ القرار ضعفاء لدرجة أنهم يوافقون على ذلك بمباركة من نعرفهم جيدًا... وأن يحدث ذلك فى الغرية فهذا ما لا يحتمل. على الأقل أنا لن أقبل بهذا الوضع وإذا لم يرض وزير الخارجية الجديد فليعين غيرى.

فى الأسبوع الماضى واستكمالاً لحالة التهور غير المعقولة التى أصابت فيكتور مالفيتش بعد صدمة أتباع جورباتشوف هاهو يقفز فوق سلسلة من التحفظات السوفيتية إزاء النص الخاص بحرية الاستقبال والذى أذاعته الإذاعات الأجنبية. هرع "جريجورى أخمانوف" إلى السير"ألكس" ليخبره بكل ما يحدث. فهو الوحيد الذى يستطيع رفع التحفظات عن وفده. فى الوقت الذى نرغب فيه فى إعادتها بشكل طارئ. وبعد تعرضه للتوبيخ بشكل رسمى من عاصمته اضطر أن يعلن هذا الصباح وهو ذليل للرئيسه أن دولته سترفع كل التحفظات مثار الخلاف.

تسببت أيام شهر نوفمبر اللندنية المملة فى إصابة "كارلوس" بأزمات نفسية شديدة. فعندما وصلنا هذا اليوم إلى بلو بارروت، كانت "إيفا بنجستون" جالسة على المائدة المحجوزة لنا وسط العديد من الملفات المرتبة أمامها بعناية. عندما وجدت "كارلوس" بهذه الحالة المزاجية بدأت كسويدية براجماتية فى إعطائه بعض التدريبات النفسية التى تطلق عليها بالفرنسية: وقت غروب الشمس.

قالت لنا:

"بالنسبة لكم أنتم يا سكان الجنوب فإن مشهد غروب الشمس، والذى تعجز فيه عن التمييز بين الكلاب والذئاب يعد فقط مشهدًا رائعًا. أما بالنسبة لنا نحن فإن الكلاب والذئاب هى مشاهدنا اليومية. نعيش معها، وليس هناك شىء أكثر سكينة ولا اطمئنانًا من خلودنا إلى الراحة التامة فى مضاجعنا بنوربوتن لمدة ستة أشهر فى العام شريطة ألا نحاول المقاومة بشكل طبيعى. انظر من النافذة" يا كارلوس"! وانس كل همومك. هيا انظر إلى الخارج وانس نفسك فى هذا السواد الحالك، الذى هو بالتأكيد أحلك مما بداخلك. تخيل نفسك وسط البحر واترك الأمواج الحرة ترفعك أينما تشاء. ألا تشعر بتحسن؟ عد إلى عملك إذًا.

بالفعل، بدأت فى فتح أحد الملفات التى تقدمنا فيها كثيرًا بفضل حزمها الشديد.

يصر "شوستر "على تسمية البولندى بـ"يوحنا بولس الثانى". حيث قال إن البولندى لديه النية فى استرجاع أجزاء من الكنيسة الأرثوذكسية مستغلاً الاضطرابات الحالية فى أوروبا. فهناك العديد من القساوسة البولنديين والتشيك يتحدثون اللغتين بطلاقة ولديهم استعداد من وجهة نظره لعبور الحدود السوفيتية والرومانية بمجرد صدور الأوامر من روما.

فى تلك اللحظة أطلق كل منا لخياله العنان. حيث شاهد شوستر أمامه مواجهة الألفية بين روما والقسطنطينية، أما "كراتوسكى" فقد شاهد أمامه

الماسونية إذًا وشرح لى أكثر من مرة أن السكرتير العام يحظى بمكانة سامية ومن ثم فسيعمل سرًا على إعادة الماسونية فى دول الشرق.

ثم أضاف لى قائلاً: "هو علمانى حتى النخاع. وهو يكرهنا. ومع ذلك فلايزال حليفًا حتى الآن على الأقل.

بدأت الخطوط العريضة فى الظهور.

الثلاثـــــاء ٢١ نوفمبر ١٩٨٩

تنام "زوريكا" نومًا سيئًا هذه الأيام. فى الصباح الباكر شرحت لى قائلة:

أشياء كثيرة تحدث فى الوقت نفسه. لدينا وفى أوروبا وهنا... ولكن دون أن يتحدثوا عنا.

قضيت صباح اليوم فى باريس لمقابلة "ماسار" الذى عاد من جولة فى الشرق الأقصى . وفى أثناء انتظار لقائه مع ميتران حيث إنه كان أقرب أصدقائه أثناء الحرب أعلن لى انه يتمنى أن نتبادل وجهات النظر كما فعلنا قبل ذلك عندما كنت مسئولاً عن الملف الأسيوى. استمتعت جدًا أثناء استماعى له وهو يتحدث عن جزء من العالم قضيت فيه ثلثى شبابى. ولكننى تنبهت وأنا أتحدث معه أن اهتمامى الرئيسى فى تلك اللحظة كان تلك البقعة الصغيرة من العالم التى يقبع ممثلوها الآن فى لندن.

وعدنى "ماسار" أن يطرح موضوع طوكيو على من يهمه الأمر.

كان "رانكور" يجلس فى بون رويال كما هى عادته كل مرة. كانت الكأس خاوية فى يده. عندما أهديته نسخة رائعة من كتاب"توكفيل" الذى يعشقه وكنت اشتريتها خصيصًا له من لندن بمناسبة عيد ميلاده الثمانين. وجدت نفسى منزعجًا عندما تصورت ماذا سيعنى له هذا المصير. ولكنه كان يبدو فى أحسن حال. أكد لى أن كل ما يدور حوله يؤثر فيه بشدة. فكل شىء يعاود التحرك فى النهاية. والعمل الجدى بدأ يدب فى كل الأركان.. صحيح لا تزال هناك بعض السلبيات ولكن سيأتى الوقت لطى صفحات الخلاف.

طلب لى كأسًا أخرى من الويسكى، ولكنه كان يبدو الثالث أو الرابع بالنسبة له. ليس من طبيعته أن يشرب بهذه الطريقة. يبدو أن هذا العيد ميلاد يؤثر فيه بشدة وهو يريد أن يثبت ذلك. وفى النهاية قرر أن يبدأ جولته التحليلية العالمية المعتادة. فقدت روسيا من وجهة نظره أهميتها إلى الحد الذى تحولت إلى مجرد لاعب ثانوى على الساحة العالمية. رغم تفوقها على الجميع فى سباق التسلح بلا منازع ونجاحها فى إحكام قبضتها الحديدية على أوروبا الشرقية . وعلى العكس فرغم أن الولايات المتحدة كانت على وشك فقد صوابها إلا أنه سمع أحد أصدقائه القدامى فى الخارجية يصيح قائلا: "لقد ربحنا" لقد غرقت أوروبا الغربية فى مشكلات الحدود والقومية، بل أصبحت المسألة أكبر من ذلك، لأنها نبتت من الضفة الأخرى أمام الحائط الحديدى. الخلاصة إن الحقائق

الجيوسياسية المختلفة فى طريقها لأخذ مكانها. ولكننا نعلم من الآن أن الغد مثل الأمس وأنه لن يهتم أحد بالمشكلات الحقيقية للكوكب مثل الطعام والشراب والتعليم حيث سيصبح هناك نفاد للموارد وتلوث وعدم المساواة المتزايد والبقية تأتى ...

بالتأكيد سنستيقظ فى الوقت الضائع. لن يمتد بى العمر حتى أرى ذلك ومن الممكن ألا يمتد بك أنت أيضًا.

وعندما أصابتنى الحيرة أمام كل هذه الحقائق قال لى:

لقد حان الوقت أن تتشابك كل الخيوط يا "تروملين". هل تتذكر نصيحتى الأولى لك عندما دخلت لى أول مرة فى الخارجية: احذر من الشباب وتلك هى الأخيرة احذر من الشيوخ.

وضحكنا ضحكة قوية ولكنها ليست من القلب.

وقال لى وأنا أهرول تاركًا إياه تحت أضوائه الخافتة لأذهب للمطار: استفد جيدًا من هذه الحرب الباردة.

لم أحاول أن أتصل بـ ستسوكو خلال الساعات القليلة التى قضيتها فى باريس فلست فى حاجة لاستعادة مصطلحها الشرير "الفاصل الترفيهى الآسيوى". كما لم يكن لدى رغبة أن التقى بالفتاة التى أعتبرها ابنتى؛ لأنها نضجت بالدرجة التى تجعلها فى غنى عن الاحتياج لأب.

وصلت إلى كارلتون فى الساعة الواحدة صباحًا. كانت لدى رغبة جارفة فى مقابلة "زوريكا" لأقول لها مساء الخير. ولكننى تأكدت أن التراجع قد خُلق لمثل هذه المواقف.

الأربعاء ٢٢ نوفمبر ١٩٨٩

لم يكن هناك حديث هذا الصباح إلا عن العشاء الذى أقامه السير "أليك" بالأمس فى فندق كبير بالعاصمة. وعكس كل الآراء التى ذكرها "جاريسون" من قبل فقد عزم على إعداد خطة بطريقته الخاصة، فهو يعتقد ألا أحد ستكون لديه الشجاعة الكافية فى هذا المجال لمعارضة الأمور البديهية لأحد أعضاء غرفة اللوردات. ومع ذلك، فقد استاء بعض أصدقائى الكبار من الخروقات التى حدثت فى القواعد الثابتة للبروتوكول الدبلوماسى، بل إن أحدهم تحجج بإصابته بوعكة صحية لكى ينسحب.

صورتنى كلودين فى هذا العشاء كما لو كنت متوحشًا. فقد رددت لى وهى تضحك أنها لا تستطيع أن تكون على طبيعتها وسط هذه الفوضى. كانت جالسة على طرف المائدة رقم ٢ لم يسمع لها أحد صوتًا. ورغم أنها دائمًا جادة ورزينة إلا أنها بدأت تستخدم حاستها الاستمتاعية، والتى كانت تقمعها من قبل فى واحد من مخابئها التى لا أعلمها.

أما "شوستر" فقد تحدث عن هفوة السير أليك البروتوكولية حديثًا ساخنًا. "لم يكن دقيقًا فى أى شىء لقد استغل حديثنا فقط ليسقط ملاحظة قوية على القس "ماتيولى" الذى تم استدعاؤه إلى روما للمشورة بناء على كارثة وقعت.

قال شوستر:

"إننى أتساءل ما المؤامرة التى يدبرها الكرسى الرسولى؟ فالبولندى لم تكن لديه الرغبة فى القيام بذلك الآن.

ومع أنه حذر جدًا فى مثل هذه المواقف، ولكنه فاق كل الحدود فيما يخص هذا الموضوع الذى يطلق عليه اسم "حيوانات الرب الطيب"

من عادة "زوريكا أن ترتدى ملابس ضيقة، ولكنها اليوم قررت أن ترتدى البلوفر الأسود فى أبيض الذى أهديته لها. فى البار اقتربت منى "إلسا" وهمست فى أذنى وهى تبتسم:

لقد كنت محقًا عزيزى السفير. فهذا النوع من البلوفرات لا يتم ارتداؤه إلا وهو شديد الاتساع. تأكد مما قلناه لك من قبل إننا فى منتهى اللطف.

قالت ذلك ورحلت بعيدًا كانت وجنتاها بارزتين وعيناها كأنهما لوزتان. كانت تعلم أنها جديرة بأن تشغل اهتمامى.

ليس من المستبعد كما يؤكد المعاونون سيئو النية هارى ماركس لم يأت إلى لندن إلا فى وجود "كارل".

وعلى كل حال فهو يتعلم بسرعة. فقد أشرت عليه أن يتفقد مقابر هالجات وقد فعل ذلك فعلا. وعندما شكرنى اليوم قال لى بدهشة: ألا ترى أنه دائمًا متأنقٌ ونراه كما يظهر فى الصور. إلاّ يستحق أن يكون هو المسئول وليس أنا؟"

من الصعب إدراك الأسباب التى تجعل صغار العمال وسائقى القطارات فى كل العالم يحبون هذا العجوز الطاهر الذى يرأس جميع اجتماعاتهم.

ومع ذلك، فإن ملاحظة "هارى" جريئة وقوية. وإذا استمر الأمر كذلك، سننتهى إلى تناول العضو الثالث فى العائلة وهو "جروشو".

تعاملنا مثل كل المراهقين ذوى النزعات الرومانسية منذ قضائنا لأول إجازاتنا معًا. نظمنا مكان اللقاء بحيث لا يكون هناك أحد سوانا. مكان رائع ويبعث على الفضول. إنه متحف "سوان" الذى من فرط الذكاء تم إنشاؤه على خط سير الأتوبيس الذى يمر على بعد خمسين مترًا من مركز المؤتمر.

كانت هناك قاعدة أساسية وضعناها فورًا: فمن يصل أولا يختار المكان الذى يرغب فى أن يشاركه فيه الطرف الآخر ليترك له انطباعًا لا ينسى. أعلم أن فرصة عثورى على "زوريكا" ستكون قوية فى حجرة المجموعات الأسطورية للمدينة الفاضلة. أما هى فستبحث عنى فى غرفة النقوش الإمبراطورية القديمة أو خيول المينج. تقابلنا فى النهاية. ذهبنا عبر

السلم والكتف فى الكتف بحثًا عن اكتشافات جديدة. حيث لم نتكلم إلا عن أنفسنا.

كم من مرة حاولنا أن نشعر أننا معًا. أما اليوم فإننا معًا بالتأكيد بعيدًا عن كل ما يخص المؤتمر.

الخميس ٢٣ نوفمبر ١٩٨٩

فى أحد الأروقة الدبلوماسية التى لا تزال خاوية حتى الآن فوجئنا بوجود مراقب من السفارة الصينية. كان شابًا يرتدى نظارة كبيرة، ويكتب ملاحظات دون أن يتحدث مع أحد. أعتقد أن حادثة سقوط الحائط ووجود أصدقائهم القدامى أمثال "هونكر"وشركائه أدت إلى قلق السلطات فى بكين ودفعتها إلى زرع عيون لها فى كل مكان تحدث فيه التغيرات. لم يستطع "كارلوس" منع نفسه من الحديث معه. بدا له أن الشاب يفهم جيدا ما يدور فى المؤتمر فى الوقت نفسه الذى لا يهتم فيه كثيرًا بالمراهنات الدائرة. إن الانطباع الذى أخذته إبان الثورة الثقافية، والذى تعدى حدود الإثارة الواقعة أثناء الشهور الأولى جعلنا نلخص المسألة وفق رأى كارلوس بأن هذا الشاب لا يشعر أنه فى وطنه.

عندما التقيت بمينرفا اندرو بوليس فى أحد الأروقة لم تكن على طبيعتها وقد استوقفتنى قائلة:

صديقك بات هذا شخص قذر. وهو لن يدخل الجنة أبدًا.

منذ فترة طويلة وأنا لا أعطى أى اهتمام بما تعنيه كلمة "الجنة" بالنسبة للبشر. ولكن على الأقل لا يستحق"بات" الطيب منا أن نرهقه فى رقدته الأخيرة.

على هامش لقاءات عملنا فى بلو باروت حكى لى فيكتور مالفيتش عن قاعدته الموجودة فى قلب سيبيريا لإطلاق الصواريخ. إنه الشعور بالانتماء الذى قاده بعد إنهاء دراسته الجامعية إلى هذه البقعة المنعزلة عن العالم والواقعة أمام عدد كبير من الشخصيات المهمة إضافة إلى خيبة الأمل التى بدأت تصيب عملية تعيين الشخصيات السياسية فى مواقع السلطة، وكذلك الأخلاقيات المنحطة لمسئولى الحزب كل ذلك كان وراء هذا الاختيار الغريب.

ومثل الآخرين، لم يتصور أن رئيس الكرملين الجديد يرغب فى مهاجمة النظام بشدة. ولكن كان عليه أن يعترف أن النظم قد تغيرت، بما فى ذلك إدارة أماكن إطلاق الصواريخ فى الاتحاد السوفيتى حيث كان يعمل. ولذلك وافق على طلب أحد أساتذته بالجامعة بأن يلتحق بجماعة جورباتشوف. ويالخسارة "زوريكا" الكبيرة عندما لم يستطع أن يمنع نفسه من إطلاق لقب "جنسيك" على "جورباتشوف". وهو لقب السكرتير العام الذى استخدمه لينين لكى يستعبد الحزب والدولة.

كان قد تم تعيين "مالفيتش" فى المجموعة الصغيرة المسئولة عن تنفيذ إصلاح السياسة الإعلامية روسيا. وفى هذا المكان تعرف على "ساخاروف"(*) الذى علمه ليس فقط الشجاعة، ولكن أيضا أعطاه النصائح الأساسية لكيفية التعامل مع الشغب والمشاجرات ذلك لأن الحرب كانت دائمًا ولا تزال تتم باستخدام الآلات الحادة. فكما أن "جورباتشوف" قد فهم سريعًا أن الإعلام هو خطوة أساسية للوصول إلى البريسترويكا". فإن أعداءه كانوا على علم بذلك أيضًا. ولحسن الحظ أن المبادرات فى

(*) أندريه ساخاروف، هو الرجل الذى كرس شبابه وعلمه لصنع القنبلة الهيدروجينية الفتاكة، ليصبح فيما بعد من ألد المعارضين لتجريتها أو استخدامها. وكان بعض زملائه من العلماء السوفييت يطلقون عليه "الرائد فى صنع الحرب والسلام".

ولد ساخاروف فى موسكو فى ٢١ مايو عام ١٩٢١م .وسلك طريق البحث العلمى منذ التحاقه بالدكتوراه فى علم الفيزياء عام ١٩٤٤ م حيث تخصص لاحقًا فى الأبحاث العلمية فى مجال التحكم فى التفاعلات الذرية. كان العالم يؤمن بضرورة ألا تنفرد الولايات المتحدة وحدها بامتلاك السلاح النووى.

وفى ٢٢ يناير عام ١٩٨٠م نفته السلطات السوفيتية إلى مدينة نيجنى نوفجورود دون أن يصدر قرار المحكمة بهذا الصدد نظرًا لمعارضته دخول القوات السوفيتية إلى أفغانستان . وتم حرمانه من كل الجوائز والألقاب التى منحته إياها الحكومة السوفيتية

فى ديسمبر عام ١٩٨٦م تم تحرير أندريه ساخاروف من المنفى حيث قضى مدة سبع سنوات ، وذلك مع بدء "البريسترويكا" فى الاتحاد السوفيتى.

توفى أندريه ساخاروف مساء يوم ١٤ ديسمبرعام ١٩٨٩م على إثر نوبة قلبية أثناء تقديم مشروعه للدستور فى أحد الاجتماعات .

الدولة تضاعفت لإلغاء وسائل الإعلام القديمة وتبديلها بأخرى جديدة. وهكذا بدأ إعلام جديد كان الاتحاد السوفيتى فى أمس الحاجة إليه لوضع أسس أفضل. ولكن لم يتوان الخونة فى كل مكان عن محاولة قلب النظام الجديد.

ولكى يتمكن من التعايش مع المؤتمر، كان يجب على "مالفيتش" دائمًا تعبئة أصدقائه فى موسكو حتى "ساخاروف" نفسه الذى أصبح أباه الروحى ولذلك؛ لأن "جريجورى" وزملاءه حاولوا أن يغيروا من سلوكه.

اكتشفت بعد مرور ثلاثة أسابيع الشامة الموجودة خلف أذن زوريكا اليسرى.

الجمعة ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩

تم استدعاء ميلسكو إلى بوخارست لحضور اجتماع اللجنة المركزية. تلك هى المرة الأولى التى يحل فيها مكانه من يلقبه الجميع بشبيهه نظرًا لتمتعه بنفس الهيئة والجاذبية. وهذا بالطبع ليس صحيحًا تمامًا. فكما المحت لى "كلودين" فإن ابتسامته الخائنة والتى تشبه ابتسامة "تشاوشيسكو" آخذة فى الاتساع منذ توليه هذه المهمة. لقد تمرن على هذه الابتسامة بلا شك لسنوات عديدة أمام المرآة واضعًا أمامه صورة لتشاوشيسكو.

ظل الشبيه صامتًا طوال اليوم. ولكن عندما حان وقت التصويت على إقرار أحد الموضوعات التى لا أتذكرها فى الوقت نفسه، الذى كان يرفع فيه لافتته صرخ بحماس وبأعلى صوته قائلا: "لا" مما جعل القاعة تضج بالضحك، فقد اعتادوا على أن الرومانيين هم الذين يقولون "لا". أوضحت "كلودين" أن "كورنليو" قد أكمل دراسته فى موسكو وهو أيضًا

أحد آمال اللجان السوفيتية فى رومانيا. لقد مكث طويلا يعترف بأخطائه قبل أن يكون له الحق فى العودة الى الخارج. ولكن لا أحد يستطيع أن يغسل مخ شخص ما ولكنه ظل موضع اهتمام ميلسكو.

وبسبب فوز الحزب المحافظ فى الحرب استمر هيلفيت وفق ما قاله لى فى الحفاظ على العلاقات الخاصة مع مارجريت تاتشر التى كانت متأكدة من أنه كما تسببت عملية جزر الفوكلاند فى سقوط النظام العسكرى فى الأرجنتين. فإن حزمها الشديد فى وجه موسكو منذ بدء عملها سيسحق الاشتراكية نهائيًا. فهى تتابع تطور أعمالنا وتتمنى أن تحظى بالمكاسب بناء على الجهد المبذول لدى انتهاء المؤتمر حتى لو تظاهرت باحتقار ما تسميه بـ "القفزات الدبلوماسية".

همس لى الشاب "لورو" فى أذنى بصوت منخفض بعدما أخبروه أن آذان الجواسيس منتشرة فى كل مكان قائلا: إن التمرد يسيطر على الأباراتشيك فى الدول الشقيقة. أعتبر زميليلورو هذا أحد زملاء الشرق الذين تآلفت معهم منذ أول مؤتمر فى هلسنكى، ثم أضاف قائلا: "تأكد من وجود جميع الاحتياطات أيها السفير" ثم ذكر لى هذا الزميل كلمة قالها أحد زملائه الذين عملوا كثيرًا فى الجزائر: "لن نكون العرائس التى يحركها الروس."

حدثتنى كلودين أكثر من مرة بابتسامة صغيرة عن هذا البولندى الذى يدعى "ويتولد". وهو يتابع مثل

"لورو" ملف المؤتمر منذ بداياته كما أن الشابين يتبادلان الملفات بحذر شديد.

كما أكدت قائلة: "مع الأخذ فى الاعتبار التطورات المتزايدة للموقف الدولى فأنا لا أستبعد أن علاقة هذين الشابين الرائعين لم تتوطد إلا فى لندن.

أسفرت لقاءات أعمالنا السرية الليلية فى بلو باروت عن نص به تقريبًا كل ما نطمح إليه. وقد أدلى كل منا برأيه حتى أنا الذى لا أعرف الكثير عن هذه الأشياء مثل كارلوس تمامًا بل إننى على العكس منه فأنا ينقصنى الكثير من أسلوب التطبيق. كان أصعب شخص يمكن ترويضه هو"مالفيتش"؛ لأنه كان يرغب دائمًا فى الوصول إلى أبعد مما هو متوقع. واستنادًا إلى باعه الطويل فى إطلاق الأقمار الصناعية، وكان دائمًا يردد أنه علينا أن نستفيد من فتحات التصويب. والغريب أن "كراتوسكى"هو الذى قام بتهدئة الوضع عندما استعرض أمامه التجربة القاسية التى تعلمها فى صفوف السوليدارنوسك. علت أصواتهم قليلا ولكن كان لـ"زوريكا" جملة مشهورة لإنهاء هذه المناقشة "هذه الحكايات لا تهم أحدًا".

السبت ٢٥ نوفمبر ١٩٨٩

أعيد انتخاب "تشاوشيسكو" بالإجماع كسكرتير عام للحزب. لم يسمع أى صوت إزاء ما حدث عكس ما حدث فى الشهور الأخيرة فى الديمقراطيات الشعبية الأخرى وحتى فى بلغاريا. من جانبه قام زميلنا "ميلسكو بواجبه على أكمل وجه. كنت أتمنى أن أراه فى بوخاريست محاطًا بأصدقائه الصغار وهم يشربون نخب إعادة انتخاب "بطل الفكر الدانوبى"

فى الأيام الأخيرة نسيت أن أبعث له فى الخفاء ببعض الأمثال التى أعرفها. تذكرت ذلك أمس على يد القس "ماتيولى" عندما وضع لى ورقة صغيرة فى جيبى، مكتوبًا فيها بعض الأبيات الشعرية لعدد من الشعراء الرومانيين ثم أضاف عليها:

من الأفضل أن تحفظها عن ظهر قلب ثم تقولها لـ"ميلسكو"، فقد اعتاد على نبرة صوتك الآن.

أصبح القس "ماتيولى" لديه وقت أكبر لحضور المؤتمر منذ إن شاء الله بحكمته أن يسقط حائط برلين.

التقى "ماسار" بـ"ميتران" ليحدثه عن رحلته الآسيوية. وحدثه عنى كما وعدنى من قبل. لقد اندهش "ميتران" عندما وجد مستشاره يفكر أن يتركه، ثم كتب فى ورقة صغيرة كلمة طوكيو واضعًا أمامها علامة استفهام أو علامة تعجب لا أعلم فـ "ماسار" لا يتذكر نهائيًا.

تلقيت رسالة من الصديق "هيتوشى". بالتأكيد علم بوجودى فى لندن من "ستسوكو". كان يسألنى عما سيقوم به البريطانيون لحماية سلمان رشدى. فقد انتهى من الترجمة اليابانية لمقاطع آيات شيطانية. وهو يعلم بفتوى الخومينى بإهدار دم كاتب الكتاب وشركائه وناشريه والمترجمين والموزعين. لم يأخذ البوليس اليابانى هذه التهديدات بجدية مع أنه تلقى شخصيًا رسائل عديدة بهذا المعنى. وقال لى: لا أخاف على نفسى، فأنا بعيد عن العاصمة والإعلام لا يعرفنى، ولكن اضطراب المقربين منى بدأ يصيبنى بالتوتر.

الأحـــد ٢٦ نوفمبر ١٩٨٩

سـنـقـضـى هـذا الـيـوم فـى الـفـراش. ومن أجل التغيير مكثنا فى غرفتى. تبدو الشمس و السماء بلون أزرق باهت فى الجهة المقابلة من الزجاج لذلك لا نشعر بأدنى رغبة فى لقاء العالم الخارجى.

و جاءتنى تحية الصباح المعتادة من ستسوكو عبر اتصال هاتفى محمل بالقبلات يقلق هيتوشى. انتهزت الفرصة بعد انتهاء المحادثة لأحكى لزوريكا عنها وعن أخريات.

كانت تعتبرها قصصًا خيالية.

أعربت قائلة:

كثيرًا ما أحببت الرجال الصغار. لماذا لا أحب نساءك الكبار؟

على الرغم من دعوتى لها لتحكى لى عن رجالها إلا أنها كانت ترفض الخوض فى هذا الحديث.

وبالدور أخذ كل منا يقرأ بصوت عالٍ رواية "كاداريه" التى أحضرتها معى من باريس. إنها طريقة

لقضاء يوم الأحد معًا وتذكر البلقان. اعترفت اكثر من مرة دون أى ضغوط منى أن هؤلاء الألبان القذرين يستغلون كل الفرص. وقالت بثبات وهى تغلق الكتاب :

- جاء عشيقى الأول من أعماق كوسوفو. كان أحد أساتذتى فى الماركسية - اللنينية بجامعة سراييفو. كان يعجبنى كرجل ولأشعر بقربى نحوه تعلمت اللهجة الألبانية المستحيلة بسكناتها المائعة كما لو كانت السماء تمطر. باختصار بذلت كل ما فى وسعى لأصبح يوغوسلافية جيدة. استكملت لها العبارة بطريقة آلية قائلا:

"واشتراكية جيدة."

ودون التفوه بكلمة، جمعت حاجياتها وتركتنى فى مكانى. و بعد مرور ساعة ورغما عنى وجدتنى أطرق بابها. وبسماحة مؤكدة، أوضحت لى أن بعد فراقهما بعدة سنوات وجدت أستاذها متهمًا أمام المحكمة بتحوله السياسى، ثم وافته المنية فى معسكر إعادة التأهيل؛ حيث ظل بالتأكيد اشتراكيًا.

ثم أنهت الحديث بنبرة بعيدة قائلة:

- إنها "دراما التاريخ" لست متأكدة أن معنى هذا المصطلح لديك هو المعنى نفسه لدينا.

الإثنين ٢٧ نوفمبر ١٩٨٩

أصابتنى الدهشة لدى ظهور ديدييه بيرلات أحد أعلام الصحافة الباريسية بابتسامته الجميلة قبيل بداية جلسة الصباح. كنت أظن أنه تجاهل مؤتمرنا بشكل نهائى. هذه المرة كان لديه الوقت ليحادثنى. كان يبدو مهتمًا بالفعل بتصاعد الأحداث الجارية، لذا أجبته عن أسئلته بكل بصبر. وفجأة سألنى بفظاظة عن مجموعة المكاتبات الرسمية التى يسمع عنها. بالقطع كان سؤال لحسابه الخاص، ثم علق دون اكتراث و هو ينهى حديثه معى :

ـ لا ينبغى أن يأتى السياق السياسى الجديد، الذى ننتظره جميعًا بفارغ الصبر بنتيجة معاكسة وإخضاع صحافة الدول الحرة لنوع جديد من القسر. فأنا أعرف على سبيل المثال أن فتى جورباتشوف المؤازر له مالفيتش أو ما شابه، يعكف جاهدًا فى حصر المواد التى تبث عبر وسائل الإعلام على الرغم من ذلك ستصبح كارثة أن تعطينا بلاد البرافدا دروسًا فى الصحافة.

يعد ميلسكو هو الضمير السياسى فى شكل إنسانى. وكان يجب أن تصيبه فكرة ترك توأمه وحده فى إنجلترا بالمرض. ولدى افتتاح جلستنا هذا المساء كان قد عاد جالسًا ملء مقعده و ممسكًا لافتته فى يده. و بعد ساعة وجد أخيرًا الحافز له ليوقف أعمالنا مجددًا. فرددنا عليه أنا وكارلوس وهيكى بنصوص رومانية مأخوذة عن القس ماشيولى. استقبل هذا السيل العارم من الردود المفحمة الطريقة نفسها التى استقبل بها نجاح سيده فى استفتاء عام.

وللمرة الأولى يشير سكرتير عام المنظمة إلى النزاع الصغير الذى قاده بعضنا ضد الوفد الرومانى. قائلا:

-" المهم هو الإبقاء على المسافة . حافظوا عليها حتى نهاية المؤتمر. أسمعتم؟. لطالما تمنيت رؤية ميلسكو فاقدًا لأعصابه و لو لمرة واحدة.

وتردد شوستر قليلا ليؤكد أنه لن يقترف خطأ فادحًا إذا ائتمننى على سره. ثم هز كتفيه وهو يهمس فى أذنى:

"إن أصل ميلسكو هو من لائجى من ترانسيلفانيا حيث عاشت فيها عائلتى لخمسة أو ستة قرون قبل أن يطلب منها أن تعود إلى مسقط رأسها عام ١٩٤٥م. ليس لدى أى دليل على ذلك. و لكننى مقتنع بأن هذا الوغد قد استولى على منزلنا القديم. فلكل منا تصوراته. استكمل مؤامرتك الخفية.

قبل أن تخلد إلى النوم أصرت زوريكا أن تقص لى قصة أبت أن تخرج من رأسها حيث قالت:

"عندما كنت فى برلين كان طبيعيًا أن أهتم بالصيد. وفى الشتاء كان هونيكر وزملاؤه يستضيفون السفراء فى منازل الريف الروسى الخاصة بالدولة والمتناثرة فى أنحاء الغابة. وهى من الفرص النادرة التى يتحدث فيها الدبلوماسيون على راحتهم بعد تناولهم للعشاء الرائع.

وعند الفجر الشاحب تركت عالم الصيَّادين الصغير يموج وتلحفت فى فراء المليونيرات. فذهبت إلى إحدى تلك الشرفات التى صنعت من أجل النفوس المرهفة. وتركونى هناك ومعى زوج من الساندويتشات الممتلئة. ومن أعلى شاهدت عددًا كبيرًا من المشاهد سأقصها عليك. ولكن لا تقاطعنى. ذات مرة رأيت اثنين من الأيائل العجوزة قد خرجا إلى الغابة وقد راقب كل الآخر كثيرًا قبل أن ينقض عليه. وبعد برهة تشابكت قرونهما ومع ذلك ظلا يتصارعان بوحشية مذهلة. وأثناء ذلك سمعنا صوت أقدام الكلاب فى الغابة. أوقف الأيلين عراكهما برهة من الزمان، ثم عادا إلى سابق عهدهما كما لو لم يحدث شيئًا. عندئذ صاح عضو الحزب الاشتراكى الذى أجلسوه بجانبى حتى لا يتركونى بمفردى قائلاً :

– لقد أصابهما الجنون. الزما حدودكما أيها السذج!.

رددها كثيرًا بلهجة سكسونية متكسرة، صاح بهذه الكلمات التى أترجمها من أجلك بفرنسيتى البسيطة.

لست فى حاجة أن أقول لك إن النتيجة كانت سيئة للذكرين الواثقين من نفسيهما. كان المشهد صعب الاحتمال بل مثيرًا للاشمئزاز. تلك هى الصفة المناسبة والمحفورة فى ذهنى بعمق.... فكرت فيه للتو بكل تفاصيله عندما كان أحد السوفييت الأعضاء الدائمين يعرض شعاراته فى إحدى اللجان تحت سمع وبصر السفاح فاسيلى. كان القساة والإصلاحيون فى الدول الاشتراكية يتناحرون فى ذلك الوقت تمامًا مثل هذين الأيلين اللذين أكلتهما الكلاب أمام عينى. كلهم قساة. هم أيضًا سيصبحون وليمة للكلاب.

الثلاثاء ٢٨ نوفمبر ١٩٨٩

جاءت زوريكا لتزورني في مكتبي في سابقة هي الأولى من نوعها. كنت ما أزال تحت تأثير المفاجأة عندما حدثتني عن ردود الأفعال التي تتفاقم يومًا بعد يوم وأصبحت واضحة جدًا بين أعضاء وفدها ذوي الهويات المختلفة. لقد استبدلتهما باثنين من نوابها.

"حمقى." هكذا وصفت الأوضاع في بلادها. في الغربة لا يتم استشعار الأمور بدقة بينما الاتحاد الفيدرالي على شفا الانفجار في أية لحظة. فجنون الصرب وعناد الكروات يهددان بإشعال الفتيل سريعًا. حتى وطنها الصغير سلوفينيا، والذي يقطنه بالكاد مليونا نسمة قد بدءوا يفقدون عقولهم هم أيضا رغم أنهم معروفون ببراجماتيتهم الليبرالية. رغم أن عدد الموجودين هنا على مائدة المفاوضات، والذين تربطهم صلة وثيقة بيوغوسلافيا حوالي من ١٤ إلى ١٨ شخصًا. يظل من هم على شاكلتها من المتزوجين بأجانب من الصرب مثلا كما في حالتها والذين

أنجبوا للحياة طفلين لا يشعرون بأية غضاضة من العيش فى هذه السلة متعددة الألوان.

أتتصور أنه حتى هذه اللحظة لم يتسبب لنا هذا الاختلاط أبدًا فى إثارة أية مشكلات بينى وبين زوجى "إيفو" أو بين أحد من أصدقائنا!.

ستبدأ زوريكا فورًا لدى عودتها إلى بلجراد بعد كل سنوات الغربة هذه فى البحث عن حلول منهجية ومرضية. فالواقع يؤكد أن الدود كان فى قلب الفاكهة منذ البداية.

كانت تلك هى المرة الأولى التى تقول فيها اسم زوجها والمرة الأولى أيضًا التى تتحدث فيها عن ولديها. كانا يدرسان فى بلجراد، ويقيمان فى المدينة الجامعية. كانت تحب الثلاثة حبًا جمًا ولكننى استنبطت أن هذا الحب يعود إلى "التاريخ القديم."

لن يعود جريجورى أخمانوف إلى لندن بعد استدعائه إلى موسكو. طالما تحدث فى كل مكان عما يختلج فى صدره. سيحل محله الشخص الثانى سابقًا فى السفارة السوفيتية فى باريس والذى تعرفه كلودين جيدًا. أبدى فيكتور مالفيتش ارتياحه فجأة بينما أكد لى هيكى تيومينان أن المناصب التى حصل عليها اخمانوف من شأنها أن تعرضه للخطر.

فى تلك اللحظة شعرنا بحميمية شديدة تجمعنا أثناء وجودنا فى بهو قاعة المؤتمرات. بعد قليل من التردد قال لى تيومينان وهو يحاول أن يخفض نبرة

صوته: "لقد وثق فى أخمانوف بشكل كبير جدًا واعتقد أنه هو الذى سيبلغكم ذلك بنفسه وهو أن أصدقاءه فى موسكو قد وعدوه بمساعدته. فلقد وضعوا فى اعتبارهم إمكانية انضمامه فى المستقبل لنص البيان، الذى كان بصدد العمل عليه معنا. نعم لقد تعلمت من مبادرتكم فلنستكمل المسيرة إذاً." لاذ بالصمت بعد أن علت وجهه ابتسامة ثم استطرد قائلا:" لم أتصور أبدًا أن أشهد مثل هذه الأحداث وأنا لا أزال على قيد الحياة. أنتم لا تتصورون ماذا يمثل ذلك بالنسبة لى، ثم انفجر فى البكاء فجأة حيث غطت الدموع وجهه قبل أن ينصرف مبتعدًا عنا.

عاد المسكين بول كاليجان هو الآخر إلى عاصمته بشكل طارئ ولكن عودته كانت لأسباب خاصة... . إنها سلسلة من الخطابات بدون توقيع وصلت إلى زوجته "بربارا" التى تشغل حاليًا منصب وزيرة الدولة لشئون الأسرة فى الجمهورية الأيرلندية. وقد افقدتها هذه الخطابات صبرها. وقبل أن يغادر إلى المطار أقسم على أن أدلى بشهادته إذا لزم الأمر فى حالة الحضور الاستثنائى لاجتماعات المؤتمر ثم أنهى كلامه معى قائلا وابتسامة حزينة تعلو شفتيه:

"إن أفضل وقت كان وقت الثورة الثقافية"

أتذكر أننا فى هذه الحقبة تقاسمنا طويلا منصب سكرتير فى السفارة الهندية. كانت سعادتنا ـ رغم بساطتها ـ تخلق جوًا من الود رغم أنها بالتأكيد لم تكن السعادة النموذجية.

شاهدت مع زوريكا عبر التليفزيون تحقيقًا مصورًا بثته الـ"بى. بى. سى" حول ما يجرى من هدم لتماثيل قساوسة العهد الاشتراكى.

من براج إلى "فلاديفوستوك" حتى لو كانت المسألة لم تمس حتى الآن سوى الطبقة البرجوازية والمناطق البعيدة عن المدن. لم يتبق سوى تمثال ماركس النصفى ليصبح هدفًا للتصويب ممن وصفتهم المعلقة التليفزيونية بالهمج والمخربين للآثار وذلك قبل أن تصحح هى عملية التصويب التى تقوم بها.

مثل كل مرة منذ انهيار حائط برلين كانت زوريكا تشاهد الأحداث بمزيج غريب من الرضا والغضب.

ما إن انتهى التقرير حتى اندفعت زوريكا كأنها طلقة رصاص قائلة: "لقد قام أعظم باحث فى تاريخ الماركسية اللينينية فى لينينجراد فى السبعينيات بالتحرى عن عدد التماثيل النصفية لكارل ماركس التى سافرت عبر العالم. كان مثالاً للعظمة بالتأكيد وأتذكر أنها وصلت فى مجملها إلى حوالى ستة ملايين تمثال. إنها ثلاثة أضعاف سكان بلدتى سلوفينيا. إن هذه الإبادة الجماعية التى تهدد تماثيل العالم سوف تتطلب تعاون كل السكان الطيبين!.

الأربعـــــاء ٢٨ نوفمبر ١٩٨٩

بهدوء شديد وبدون التحدث مع أحد ولا حتى وزير دولته للشئون الخارجية ـ وفق ما أكده وارنر ـ قدم كول للبوندستاج خطة تهدف إلى الوحدة. استشاط الجميع غضبًا لدرجة أن تاتشر وفق ما أكد لى تيد جاريسون أقسمت بتفجير فضيحة فى المجلس الأوروبى القادم. لا أعلم من أية لجنة من لجاننا الفنية وجه مدير إحدى الإذاعات المغمورة فى "نوفجورود" هجومًا حادًا ضد إذاعة أوروبا الحرة مستندًا إلى بعض الوثائق من عهد بريجينيف. نظر جميع الحضور إلى بعضهم البعض حول مائدة المفاوضات بما فى ذلك أكثر الأباراتشيك البلغاريين وقاحة. هل أدرك المتحدث الرسمى أنه تم خداعه؟ أنهى الآخر كلامه قائلا: "سيدى الرئيس أشكرك." ثم انغمس فى تدوين ملاحظاته. أبلغنى كراتويسكى برابطة عنقه هذه التى لا أعلم كيف عقدها بأن سولويسكى قد غادر لندن نهائيًا لذلك لم نعد نراه فى الجلسات.

-"لقد سأم من الانتظار بلا أمل"

رفع أصبعيه بعلامة النصر قبل أن يقول:

"إلى النجاح يا سولويسكى".

وبعد النجاح وغيره شعرنا أن سفينتنا أصبحت شيئًا فشيئًا سفينة شراعية للمجانين.

إبان هذا الوضع لم يجد عشقى البائس لليابان مكانًا يوضع فيه سوى أعماق آخر درج فى غرفتى. طلبت منى زوريكا أكثر من مرة أن أتنحى عن مهمتى فربما لن تكون إذا هى مارست عملا فى عالم لا تعلم عنه شيئًا. يبدو أنها جنت وأصبحت تفضل ما يقربنا من بعضنا أكثر مما يبعدنا.

الخميس ٣٠ نوفمبر ١٩٨٩

بدأت بعض الكلمات المجهولة فى التسلل إلى مائدة مؤتمرنا فى أواخر أيامنا. فمثلا كلمة حرية والتى يختلف معناها بشكل راديكالى مع كل معسكر تم تداولها بشكل مشترك. وفى الاجتماعات بين المتخصصين والبولنديين والمجريين وبعض الروس وبعض التشيك وحتى أحد صحفيى ألمانيا الشرقية والتى لم تكن قد صاغت ولا كلمة واحدة حتى الآن هاهم استطاعوا منذ ثلاثة أسابيع فقط أن يتشجعوا ويتناولوا المسألة بعيدًا عن الخيالات.

وفى بار قاعة الاجتماعات نفسها بدأنا فى الحديث والنقاش والمداعبة بمبدأ شرق - غرب.

وصلت الشائعات مداها عندما قالوا إن ناتاشا وهى المسئول رقم٣ أو٤ فى الوفد البلغارى تواعد نظيرها الأمريكى "جيف" فيما اعتبره مخضرمو مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى بمثابة صدام حربى.

ماذا عن أخبار الطقس لديك فى شارع سيريزيار:

سألنى رانكور هذا السؤال فى التليفون هو أيضًا صبيحة هذا اليوم.

أكثر ما أذهله كانت النشرات الإخبارية التى تقدم ساعة بساعة التقدم الذى يحدث . لم يكن قادرًا على البقاء فى مكانه فى ظل تتابع الأحداث بهذه السرعة فى الدول الاشتراكية، ولذا فقد وجد فى ذلك طريقة بارعة من أجل إرهاقى فى تقديم أدق تفاصيل الوضع.

أخيرًا أنت على حق. هكذا علقت كلودين، ونحن نصيغ البرقية التى من المفترض أن ننكب عليها سريعًا. ثم أضافت قائلة:" أظهر لنا لقاؤنا أن الأشياء ليست صعبة فى القيام بها. ولكن اعترف أنك عندما استعنت بجملة برانكوزى لم تكن تفكر سوى فى اصطياد هؤلاء الرومان البائسين.

اعترفت.

كان الموظف الصينى هو الوحيد فى المنتدى الدبلوماسى الذى يتابع تقدم سفينتنا الثقيلة من وراء نظاراتيه اللتين تكبلانه كما يقول كوروليوس ليبدو فى هيئة رجل مسرح متحمس للأساليب اللاذعة. كانت العلامات الغامضة تغطى بطاقاته ذات الغطاء الأحمر الدموى. وبفضل هذا العمل الغامض كان مسئولا وزارته يستطيعون يومًا بعد يوم توجيه الانتقادات بينما يتبادل أعضاء المكتب السياسى الشتائم حول التعريف الواجب إعطاؤه لما يدور داخل غلافنا المغلق.

ديسمبر

الجمعة ١ ديسمبر ١٩٨٩

جورباتشوف بالفاتيكان : قرر الطرفان ترسيخ العلاقات الدبلوماسية. كما قال ماركوس شوستر حيث استمر البولندى فى تقديم آرائه وتبادل الطرائف. أخبرنى القس ماشيولى أنا وزوريكا أنه سيذهب نهاية هذا الأسبوع إلى "رهيلجيت" لتحية قبر كارل ماركس.

جعلنا نعده بعدم قول ذلك لكراتووسكى حتى لا تصبح هناك مشكلة!

حيث إنه فى وسط هذه الاضطرابات ومع عدم الحضور فلقد اكتسب شهرته بفضل كارلوس. وهو حذر ويمتلك روح الفكاهة! بالتأكيد لم يستطع أن يمنع نفسه أن يجذبنى من بعيد لحياة أكثر انضباطًا. ولكن هذه المرة فقد نصحنى بطريقة أخلاقية من أن الوقت كان متسعًا أمامى لكى أجد الزوجة المناسبة وأن أنجب منها أطفالا، باختصار أن أنظم نفسى

لبقية حياتى حتى النهاية. "عمرك ستون عامًا" ألقاها لى بطريقة حادة.

أدهشنى هذا الاقتحام فى حياتى الخاصة. ولكن حبى له منعنى من أن أطلب منه أن ينشغل بأحفاده الذين وهبهم له الله. رغم أن ذلك كان أفضل.

كانت "كوريوليس" تتمنى ألا يكون اجتماعنا سوى مشهد داخل هذا المكان الرائع الذى تظهر فيه أوروبا فى اللحظة نفسها. فتمثيل المسرح على المسرح حيلة قديمة قدم العالم . ومرة أخرى فإن العمل كشف عن فعالية مسرحية .

أضاف قائلا:"فى كل مرة أفتح فمى فى السفينة (قاعة المؤتمرات)؛ حيث نحن محبوسون يتولد لدى انطباع بأننى أريد أن أقرأ مذكرة مكتوبة بواسطة شخص آخر. محترف آخر. محترف جيد أليس لديك أنت الآخر هذا الانطباع ؟

فضلت أن أحتفظ لنفسى بالإجابة على سؤاله. فلقد تحولت اتجاهاته أثناء أحد تحليلاته الجذابة فى اجتماع "ماركوس شوستر" . بالنسبة له فإن أميننا العام هو أولا وبصفة خاصة "مفسر العرض المسرحى":

إنه مدير صالة عبقرى. فهو يعرف تمامًا فى أى وقت يضرب الضربات الثلاث إيذانًا ببدء العرض وفى أى وقت يرفع الستار ويسدله.

ولا يتردد أبدًا فى لعب دور الملقن عندما يتلعثم الممثلون.

صحيح أنه على طول مشاهدنا فإن الشبح المتحرك وحمالة الملح والفلفل الخاصة بـ شوستر لايتوقفان عن التحرك خلف منضدة الرئاسة أو بين مقاعد الوفود دون أن نفهم مطلقًا أسباب هذا الاضطراب الخفى الذى هو أكثر منه عنادًا.

ارتأيت أنا وزوريكا أن نستعد للانسحاب من جانب السينمات فقد أقنعونا أن نتبعهم حتى صالة الإيست إند؛ حيث عرض فيه أحد أصدقائه مشهد ريتشارد الثالث وهو نفسه كان يمثل فيه دوراً صامتاً:

- أريد أن أتذكر عندما كنت أمثل دور حملة الرماح على مسرح الكوميدى فرانسيز. كنت أتمنى أن أقدم أكثر من ذلك ولكن للأسف لغتى الإنجليزية لم تكن ضمن طموحاتى!.

تلعب جماعة اولد نيك(*) فى مكان ضيق بين مخزنين غير مخصصين لذلك على الإطلاق. عمل المخرج من ريتشارد الثالث رجلا استطاع أن يقود الناس إلى فكرة تعدد الجنسيات. مشت زوريكا من البداية حتى النهاية لإيجاد سبب كل هذا البغض الذى تحمله لـ "شركاتنا المالية" هذا الاسم الغالى على اليساريين والذى لا يزال موجودًا فى أعماق القلب.

(*) ظل لفترة طويلة من أرفع أماكن المسرح الطليعى اللندنى - بنى مسرح Old Nick فى أواسط التسعينيات (١٩٩٠) فى مكانه كان يوجد مقر شركة مالية كبيرة.. (الناشر).

شعرت بالنفور منذ الدقائق الأولى وبأننى لا أتحمل هذا العرض المسرحى.

أسدل الستار، بينما نحن جالسون على مقهى مجاور نتناول نصف زجاجة بيرة احتفظت جين أو بارى أو بمعنى أدق برونتى التى كانت رائعة فى دور كلارا احتفظت لنفسها بآرائها. ولكن "كورليوريس" وزوريكا كانا متفقين ضدى مع المخرج الذى جاء ليلحق بنا. صاح الثلاثة فى صوت واحد أن شخصًا مثلى من المتخصصين فى السياسة من السهل عليه جدًا أن يرى أن كلمات هذا النص لابد وأن تقال بصوت عال كى يسمعها جمهور هذه الأيام! وضعت ساقًا على ساق بعصبية كما لو كنت أرى جريجورى أو فيليسكو أمامى شعرت بالغضب فجأة من زوريكا ولكنها ظلت ضدى. لدرجة أننا تبادلنا ردودًا سخيفة أمام الآخرين الذين بدوا مستاءين قليلا .

لم يكن سوى المسرح هو القادر على تذكير المخرج بالشيطان الأيرلندى الكبير الذى لم يسعده النجاح الذى حققه فى إحلال الشقاق بين زوجين سعيدين .

وبين سفيرين أيضًا:

شعرت بنعاس شديد لكيلا أقرر أخيرًا التعرف بصوت واهن على كاتب مسرحى قادر على إعطاء قليل من التميز لهذا الفقير شكسبير، ولكن جاء نعاسى ليضع نقطة نهاية للمناقشة .

فى اللحظة التى قمنا فيها ذكرت ملاحظة وهى "فن إدارة المسائل الكبرى فى موسكو".

ولكن زوريكا لم تكن راغبة فى الضحك. ولكن لحسن الحظ وعلى عتبة المقهى فتحت الصغيرة برونتى أخيراً فمها كى تقول إن المسرحية كان من الممكن تسميتها "الصعود بلا مقاومة لريتشارد الثالث" كانت الجملة سببًا فى تصالحنا جميعًا وشعرنا بالارتياح وتأبطنا الأذرع فى الشارع الصغير المضاء بالكاد حيث ننتظر التاكسى فى نهايته .

السبت ٢ ديسمبر ١٩٨٩

في ساعة مبكرة هذا الصباح بالفندق: تلقيت تليفونًا من "هيلمونت". أبلغني المدير بخبر سحب" رجل الإليزيه" لترشيحه. ومراعاة للوضع الدولي رفض الرئيس أن يتركه يرحل . كل شيء كان حينئذ مرتبًا عمليًا بالنسبة لي. وكان عليَّ أن أتوقع الذهاب إلى طوكيو في حوالي العاشر من إبريل. كان صوته دافئًا وودودًا حيث قال لي ضاحكًا : هذه المرة أنقل لك معلومات سعيدة " .

دعوت النائب "ماسارد" لأشكره لتدخله الذي استوجب أن يكون قاطعًا لدى "ميتران". كان سعيدًا ولكن في الوقت نفسه خائفًا أن تتقرر الأمور بطريقة تفتقر إلى الديمقراطية في وطننا الجميل . ألقى على مسامعي جملة لم يعرف اكثر منها: "مأساة فرنسا أن تصبح دولة قياصرة : حيث أي وضع لن يتخذ أبدًا بالطرق الطبيعية " .

معنى ذلك أنه إذا كانت سعادتى بالانتصار ليست قليلة فإن رغبتى فى العودة إلى الطرف الآخر من العالم قد انتعشت. فقد كان هناك الكثير من العوائق المخزية وغير المنصفة. وقد أتيحت لى كذلك فرصة أن أرى أمامى العقبات التى لا يمكن إهمالها فى مهمتى الجديدة فى طوكيو. وعلى كل حال فوجود زوريكا قد خلط الأوراق ثانية .

وفى نهاية الأسبوع فى أكسفورد، وأنا أتجول مكتوف الأذرع تحت مبانى كلية الملك" ذهابًا وإيابًا تقابلت وجهًا لوجه مع "الألمانى" الذى كان يصاحب شابًا جميلاً ذا سحنة سمراء. وللمرة الأولى شعرت لدى وارنر بطبيعته المتخصصة بنوع من التردد الخفيف. ولحسن الحظ فإن المثقف عاد إلى الركض. ومثل الكائنات المتحضرة، فلقد أخذنا فنجانًا من الشاى ونحن نتحدث بطريقة ودية قبل أن نغادر المكان كل منا فى طريقه.

الأحد ٣ ديسمبر ١٩٨٩

عند عودتنا من إجازة نهاية الأسبوع فى أكسفورد قررنا أن نعيد ترتيب أنفسنا سريعًا بناء على التعبير الذى استخدمته "زوريكا" بأن "الوضع كان خطيراً".

ومنذ مكالمة "هيلموت" التليفونية لم أفعل شيئًا سوى التفكير. وكانت لدى زوريكا مشكله حقيقية لابد من تسويتها مع بلدها. فبعد سنوات بعيداً عن أهلها كانت ترغب عمل كل ما يمكنها لإنقاذ بلدها يوغوسلافيا المسكينة التى تأخذ المياه من كل الجوانب ولكن بلا جدوى. تعلم جيداً أن جهودها لن تفلح فى شىء، ولكنها لن تسامح نفسها أبداً عن عدم بذل كل شىء. من جانبى لم يكن علىَّ أن أفعل أى شىء آخر سوى أن أصحبها هناك .

بدأت ماكينة العمل تؤثر على الواقع فى أعماقى. الحب الحقيقى وأدوات "الساموراى" التى أحتفظ بها منذ طفولتى كانتا على جانب: لكن ما الذى أتى بى من جديد لأقيم فى "كايوكيزا" لأنتفض على بساط

حلبات المصارعة اليابانية فى أماكن تناول الشاى: وأن أسخط من التحولات المتسارعة للبلاد وللسكان وأن أحن إلى الوطن؟ دون الحديث عن (ستسوكو) خفيفة الظل التى بدأت تطنطن فى رأسى .

لم أكن أعرف شيئًا عن دول بلقان زوريكا المستحيلة ومع ترددى عليها قليلا وبقوة، تأكدت أننى سأجد فيها طريقى فى النهاية. وبأننى سأوافق إذا أتيحت لى الفرصة على متابعة الأحداث الدرامية دون أن يكون لدى خلفيات مسبقة.

تعد "بلجراد" دولة بعيدة عن أهوائى، ولكن ربما أجد أخيراً الدافع الواجب كى أستعيد مخطوطى والذى ربما أخط فيه نقطة النهاية... عندما وضعت هذا العرض النهائى والمستحيل على المنضدة أمام زوريكا بدا لى بالنسبة لها نوعًا من الإقرار بالحب القديم.

الإثنين ٤ ديسمبر ١٩٨٩

كان العنوان الصحفى بالبنط العريض يشير إلى إعلان جوربا تشوف أمس فى مالطة: "أن العالم يترك عصر الحرب الباردة" بينما نحن هنا فى لندن نقوم بإطلاق النار طوال اليوم فى اجتماعنا الختامى عن "الحرب الباردة. ماذا سنصبح لو انتزعوا منا ما نحمله من عنوان؟

لا أعرف تحديدًا من الذى اتخذ المبادرة بنشر هذه الصورة السيئة التى كانت لغلاف مجلة "التايم" عدد ٣٠ ديسمبر ١٩٨٣ فى مختلف الأماكن فى المركز. فبدلا من نشر الصورة التقليدية لـ "رجل العام" نشرت المجلة على ما أتذكر صورتى "ريجان" و"أندروبوف" بشكل غير واضح. حيث نراهما بوجهيهما البارد وقد أدارا لنا ظهريهما. "لقد قتلوا الانفراجة" تهدأ الأسطورة وهى تشير بوضوح إلى مشروعات كل منهما فى الترسانة الباليستية.

ما الرسالة التى يريد أن يرسلها لنا المسئولون عن هذا الإعلان الفظ ؟ سخرية التاريخ ؟ كل شىء على ما يرام فأطراف الحرب تم اختيارهم بعناية كبيرة ليعلنوا فى صوت واحد عن نهاية "الحرب الباردة"! هل هو إعلان احتفالى فى الاجتماع على عكس ما أتصور: إن عجلة التاريخ متقلبة، غداً ستدور فى الاتجاه الآخر! على الأقل إذا كنا نأمل فى السخرية من أنفسنا باعتبارنا نقوم بأهم شىء فى هذا المكان.

رغم أننا لسنا سوى مهرجين على سطح هذا الكوكب الذى قذفتنا عليه الأقدار.

بواسطة مصادره الشخصية علم الفنلندى أن زميلنا (جريجورى) قد دخل السجن بتهمة التآمر ضد جورباتشوف . وسيتورط عشرات من ضباط المخابرات الروسية والجيش فى هذه القصة. وانتشر الخبر أثناء الاجتماع دون أن يسبب اى رد فعل كبير من جانبهم طلب ثلاثة أعضاء آخرين من الوفد السوفيتى العودة سريعًا إلى بلادهم. فنوعية هذه القضايا تتراكم وتتضاعف حتى يصبح العلاج كما يؤكد (هيكى) هو إعادة تشكيل المخابرات الروسية

أكد ميجور ماشيوللى دخول"جريجورى السجن. لقد استفاد هذا الأخير من إقامته فى لندن لكى يرفع لأوروبا الغربية شبكة من الشخصيات الشيوعية أو المتعاطفة و المستعدة فى الوقت نفسه للمشاركة فى

زعزعة (جورباتشوف) وفريقه بخاصة عبر الوسائل الإعلامية. كانت التحقيقات لا تزال فى بداياتها ولكن المسألة لها تشعبات كثيرة.

هذا الجريجورى الطيب كان قد تابع محدثى. صحيح أنه عندما كنا نعيد النقاش فى أمر ما كان دائمًا يكون فى طريقه لمقابلة أشخاص ليس لهم علاقة باجتماعاتنا وأحيانًا أشخاص معروفين لنا. لقد لمحته فى بعض المرات... بالتأكيد لمحتموه أنتم أيضًا. حسنًا - أتخيل أن البعض فعل ما كان يجب فعله لتنبيه المسئولين. والكرة الآن أصبحت فى ملعب جوربا تشوف!

كل هذا تم التعبير عنه بشكل واضح كى نكون أمناء. فطالما أن أسرار الاعترافات لم يؤخذ بها... فلا شىء يصبح ذا قيمة!.

يومًا بعد يوم أجلت إعادة صياغة تلغرافى الذى يجمع شهر نوفمبر. وأعدت قراءة ما كتبته فى نهاية أكتوبر. لم يكن فى الحقيقة مجرد رؤية وإنما هو على الأقل ما يمكن قوله! أصبح لنا الحق فى أن نسلك نهرًا عاصفًا استطاع أن يمحى أمامه نصف قرن من المسلمات بدلاً من أن نسير بثبات وتمهل على طريق السفير "تروملين". ولأسباب يلزم البحث عنها خلال القرون القادمة فإن الحائط الذى كان رمزًا ومفتاحًا للنظام ها هو انهار محطمًا معه حفنة من الأنظمة التى تصور المراقبون المتشددون أنها ستستمر عقودًا

أخرى. حتى لو أن جورباتشوف ـ وهو فى الواقع آخر المسئول عن هذا الزلزال ـ تم استبعاده بواسطة عدد من رفقاء جريجورى فإن الديمقراطيات الشعبية لن تحيا من جديد.

الثلاثاء ٥ ديسمبر ١٩٨٩

طلب من هارى ماركس أن يأخذ تعليمات جديدة من "واشنطن بناء على تلاحق الأحداث بسرعة ولكنه كالعادة لم يتلق أى رد .

قال لى هارى ماركس وهو يرتعش: "إذا استمر هذا ـ سأكون ملزمًا أن أرفض مشروع التسوية حول رحلات الصحفيين وهو قرار مفاجئ . سأكون وحدى مع الرومان المعارضين لى لقد طفح الكيل! هؤلاء الأغبياء بوزارة الدولة لا يمكن إصلاحهم. دائمًا متأخرون!.

لقد بدأت أحب ماركس هذا فهو يتعلم سريعاً ويعرف جيدًا ما يجب فعله فى الوقت المناسب.

أما ماركس الآخر فهو مستمر فى رؤاه وفق أهوائه الشخصية. ولحسن الحظ أن الرومان دائمًا مستعدون..

هذا الصباح وفى المظروف الضخم الذى نحصل عليه كل ثلاثاء أضاف لنا ميلسكو ورقة بها عرض

متعدد اللغات لمتحف الماركسية اللينينية الذى افتتحه القائد فى (كلوج). ولا أعرف عدد الأمتار المربعة فى وسط المدينة التى احتلها مع قاعات المحاضرات والاستوديو التليفزيونى بوسط المدينة. إنه يلبى إعجاب الزوار بعرض مكتب ماركس فى لندن وكذلك نسخة من الجرانيت " من مقبرة "هيلجيت". وهو على حد تعبير المسئول عنه (روميلوس) - يلبى رغبات كل متخصصى الآثار المجتهدين كما أن الدخول مجانى .

قالت لى سيتسوكو إنها أرسلت لى مقالا مأخوذًا من مجلة أوزاكا سوف يساعدنى فى كتابى . وبصوت بدا لى بعيدًا بشكل غريب كررت لى أن علىّ أن أتقدم فى الكتاب . كان هذا الكتاب مهمًا ليس فقط بالنسبة لى! ولكن بالنسبة لمجموعة من البشر فى أوروبا واليابان . وبالتأكيد بالنسبة لها كذلك؛ لأنها تابعت عن قرب الجهد الذى بذلته فى هذا العمل.

وبشكل مفاجئ استأنفت القول عن تعيينى فى طوكيو . وبدون سماع ردى قالت:

- سيسعدنى أن نلتقى ثانية

ثم سكتت.

صحيح أن سيتسوكو عبرت كثيرًا عن اهتمامها بالكتاب، كذلك هى الوحيدة التى قرأت المخطوط بالكامل، وهى الوحيدة التى شرحت لها بالتفصيل مشروعى. معنى ذلك أن قولها كان له معنى وهدف آخر .

أشعلت كلودين حماس كل من سيبل وصديقتها إلسا حيث وعدونا أثناء التزلج بمساعدتنا سرًا فى طرح فكرة "بيان" هادف تحت رعاية المبعوثين الذين تعرفنهم جيدًا أنهم بالنسبة لهن لعبة أطفال! كل مرة تخرج فيها واحدة أو أخرى من كبائن الترجمة لتأخذ نفسها، يثبت لها بعض البارعين حاجتهم للقيام كى لا يضطروا لتناول القهوة بمفردهم. استطعت أن أثبت بنفسى أنهن اللاتى يشعن الكلمات الجميلة بموهبة تستحق كل هذا المديح.

لم يتم بعد تعداد ضحايا سقوط حائط برلين. أعتقد أنه منذ الأمس كان يجب أن نضيف على القائمة عجوز بورلييه هذه التى كافأوها بإبعادها عن كل شئون سنغافورة المعطلة بسبب جهلها الراديكالى بشئون آسيا.

تناولت زوريكا العشاء مع هانز موللر. وقالت لى: "لقد تعامل مع الأمر بشكل سيئ مع أنه كان يبدو أقوى من هذا!".

الأربعـــاء ٦ ديسمبر ١٩٨٩

دعتنى سيتسوكو من جديد كما توقعت لكى تعتذر عن عدم إبلاغى بمهمتها الرئيسية أمس. لأنها وكما يقال فى الوسط الذى تعمل فيه انشغلت بمقابلة شخص آخر.

وقد شكرتها على صراحتها دون الحاجة أن نتكلم عن وضعى. ولم أكن أرى ما يستدعى معرفتها أين كنت . ولكنها لم تتركنى أغادر :

- أنا على يقين أنك من ناحيتك وجدت أميرة أحلامك. فى زمرة مترجمى الاجتماع، على الأقل لم تتعب نفسك كى تبحث عن المستحيل فى قاعة ويستر بـ "تات" .

ولم أستطع أن أمنع نفسى أن أرسل لها عند العودة أنها أروع صحفية يابانية تقوم بمهمة فى لندن.

ردت قائلة - لا أصدقك نهائيًا - إنك لم تعد تتحمل يابانيات اليوم بأطوالهن ذات المتر وسبعين سنتيمترًا وسيقانهن المستوية! .

ضحكنا كثيرًا

عاد فاكلاف فاسيك من رحلة سريعة إلى براغ حيث قابل أصدقاء مقربين من الوزارة والحزب. وبدا لى سعيداً، وبالتالى لم أكن مندهشًا حقًا عندما أخذت المبادرة بدعوته على العشاء. بعد سنوات عديدة!.

بدأ حديثه بأن حكى لى المشهد الذى أعطاه فجأة ميزان الأحداث: فى مساء ٢٤ نوفمبر، عندما ظهر"فنسيسلاس دى دويكيك" فى شرفة المكان ممسكًا بيد هافيل أمام جمهور مكون من حوالى ٣٠٠,٠٠٠ شخص فإن هذا معناه وداع للشيوعية والانشقاق الجامح!.

كنت عائدًا مع الحاضرين مصحوبًا برفيق قديم. ووجدت نفسى أغنى بسعادة و بصوت مرتفع مثل الآخرين. أنا، الذى كنت أعرف أنهم لو فازوا فسأخسر بخلاف كل نشاطى ولقمة عيشى وإقامتى وكل شىء .

انفجر ضاحكاً وهو ينظر لى فجأة متأملا قبل أن يستأنف كلامه قائلاً:

- لقد كنا كثيرًا نبتغى إنشاء بديل للرأسمالية وقد أقمنا نظاماً اجتماعيًا وجهازًا تعليميًا لتولى المسألة. ولكننا ارتكبنا الكثير من الأخطاء فى التحليل والاستراتيجية والتكنيك.. كما كنا غير مؤهلين لاكتشاف الأفضل والاحتفاظ به.

توقف تماماً، واندهش من أنه وجد نفسه وقد فتح قلبه لى .

– شىء واحد على الأقل لا اعتراض عليه: من ناحية وجودنا ووجود "خيول طروادة" هذه أو كما أسميتها بالأحزاب الشيوعية التى كانت قائمة لديكم. لقد كنا رأس الحربة ضد انطلاقكم الأهوج فى نظامكم الرأسمالى. وبسببنا كانت حكوماتكم مضطرة لأن تكون معتدلة. وقد انتهت إلى منح الحقوق وسلطة الشراء للعمال وفرض القيود على مطالب رجال الأعمال، وقد يكون مبالغًا فيه القول إنه كان يجب علينا أن نكون قديسين بالنسبة لكم ولكننا لم نكن كذلك.

"حسنًا سرعان ما سنصبح مفككين على أيديكم. الـ "بريسترويكا" والتعدد الحزبى فى (بولندا) "والمجر" والمظاهرات عندى فى بلادى وحتى "بلغاريا" كلها تنذر بالتفكك. لقد انهار حائط برلين على النموذج الاشتراكى بكامله، ولكن يجب عليك كذلك أن تعلم جيداً أنه لن يكون هناك من الآن فصاعداً نموذج للقائد الذى سيلزم قادتكم الرأسماليين بترك جزء من الغنيمة حتى لا يخسروا الغنيمة كلها.

فالعالم فى طريقه إلى الدخول من جديد فى عصر الـ "كراب" و "وندل" و"باتا"مع كل المصائب الناتجة عنهم والأزمات مثل ما حدث عام ١٩٣٠م، وكما أشار إلى ذلك "لينين" بذكائه الذى لا نستطيع

تجاهله وما يرتبط بذلك بالضرورة من الحروب الاستعمارية الأوروبية وغيرها .

كان دليلاً صعبًا هذا البوح الذى جاء لمن كان يمثل عدوًا لتصوراته الشخصية حرك رأسه بطريقة بدت مؤلمة قبل أن يبدأ من جديد :

ما سيحدث أولا وهو ما يصيبنى بهلع شديد أكثر منه مرعب هو بلقنة بلادنا. فى براغ استطعت أن أعرف أن المتملقين بدءوا فعلا فى اللعب مع نزعتنا القومية الصغيرة. وتشيكوسلوفاكيا التى جاءت بعناء فى سنة ١٩١٨م ستصبح شظايا قبل خمس سنوات وأنا مستعد أن أراهن على ذلك. فهذا ما يستحقه أولئك الأغبياء من جنسى مع أنهم "تشيك" و"سلوفاك" الذين سيصبحون مشتبهًا فيهم بالنسبة للشرطة فى كلتا الجمهوريتين مستقبلاً. وأفضل ألاَّ أفكر فى المخاطر التى ستتعرض لها دولة مثل يوغوسلافيا .

لقد كان الوقت متأخراً جداً ـ قبل أن نفترق عندما طلب منى فاكلاف ألا يتملكنى الغضب بالنسبة للبيان الذى كان يعرف أننا نستعد له. وكان يعود للكلام عن براغ وشرح ما يجب أن نفعله للم الشمل فى اللحظة القادمة. وقد كان له العديد من الرفاق بالوزارة يكفون لإعطائه حرية التصرف.

الخميس ٧ ديسمبر ١٩٨٩

تصدر لقاء ميتران وجورباتشوف فى كييف عناوين كل وسائل الإعلام هذا الصباح وعند وصولى إلى مركز المؤتمرات قوبلت وكأننى ملك الحفل. وماذا بعد وماذا بعد؟ معلوم جيدًا ـ فأنا لا أعرف سوى ما سمعته على إذاعة الـ بى. بى. سى عندما استيقظت. ولعدم الإصابة بالملل ألقيت بإشارتين أو ثلاث بصوت خافت كما تفرضها هذه الظروف وقد شكرنى الزملاء على الإشارات التى قمت بتقديمها وكانوا مجتمعين معًا كى يحرروا التلغراف الذى تنتظره بفارغ صبر عواصم بلادهم .

نداء من الوزارة . سكرتير الدولة للشئون الخارجية شخصيًا ! بصوت متذمر قال:" إذا كانت السيدة تاتشر هى التى ستختتم مؤتمركم فلابد أن أكون حاضرًا أسعى سريعًا للإشراف على الوضع فى مجمله!" كل شيء كان على أهبة الاستعداد لاستقبال ديفال فايرون الذى من المفترض أن يصل إلى لندن

يوم ١٤ مساءً. وبفضل معروف "تيد جاريسون" استطعت أن أجعل السيدة تاتشر تهدى له وجبة الإفطار وتلتقط معه صورة فى البداية. وسأقول لماجى بلا حياء إن "العزيز ميشيل كان ممتنًا جدًا بهذا التصرف.

أصبحت الأمور أكثر جدية: فزميلنا الصينى أصبح مزودًا الآن بزوجين من النظارات المقربة. من مكانة أعلى المنصة الدبلوماسية؛ حيث يجلس دائمًا وحيدًا كان يريد أن يقرأ الحقيقة على وجه أعضاء الوفود. كما كان على الأقل يمتع بصره من خلال النظر إلى الديكولتية الذى ترتديه مينرفا كما تقول كلودين.

أخذ هارى ماركس على عاتقه رفع التحفظات التى صاغها وفده وتحديدًا النص الخاص بظروف عمل الصحفيين وذلك فى غياب التعليمات الجديدة لوزارة الدولة.

قال مازحًا: "إن هذه المبادرة تخاطر بوضع نهاية لمستقبلى الدبلوماسى الموعود!"ولكن يجب أن نتعلم أن نعيش فى ظل الخطر.

أوضح لى تيد جارسون أن ماركس أصيب بنوع من اللوكيميا التى لا ترحم، وكان يمضى يومًا من كل أسبوع فى عيادة بكنسنجتون وكان يعرف أنه سيظل هكذا لمدة ستة شهور .

ـ أعتقد أنه كان يتمنى أن يموت وسطنا. أثناء إحدى مداخلاته فى المؤتمر ولكن للأسف حتى إذا

أطالت (ماجى) جدول أعمالنا بعض الوقت فإن التقويم لن يتيح للصديق (هارى) أن يرى تحقق أمنياته!

كانت لجاريسون علاقة مع اليأس الذى يحالفنى على هذا الكوكب الذى قذفتنى عليه الأقدار.

وقد حدث أن لاحظت ميلسكو لا يتحرك فى كرسيه ولا نعلم إلى أى شىء ينظر مما جعلنى أتساءل عما يدور داخل هذا المخيخ، فجأة تثاءب ميلسكو ببطء وقوة شديدة دون أن يكلف نفسه عناء أن يرفع إحدى يديه ليغطى بها فمه ويستكمل التثاؤب .

حدثنى السير ماشيولى عن الفائدة التى عمت عليه عقب زيارته لمقبرة هيلجات .

خمن من الذى قابلته هناك؟ زميلنا هانز موللر! كما لو كان فى الظروف الحالية كانت لديه دائمًا حاجة للتزود بالمعلومات! هكذا هى دائمًا الطبيعة البشرية. وإلا ما معنى أن يذهب شخص مادى ـ من هذا النوع فى هذه الأيام الحالكة إلى مقبرة هيلجات. إنه درس لنا جميعًا. أليس كذلك ؟ بالطبع تظاهر بأنه لم يرنى.

فى المطعم الباكستانى حيث اعتدنا أن نكون بجانب "جون شوان" كانت زوريكا مشغولة بتفحص الأخبار المثيرة جدًا التى تأتيها من يوغوسلافيا وفى لحظة ما كانت مشغولة بزجاجة "كاتشب" حيث رجتها مرتين وثلاث دون أن ينزل منها أى شىء. وفجأة ظهر اللون اللامع آخذًا طريقه إلى طبقها .

ـ وبصوت واثق قالت "هكذا يتطور التاريخ. كان لون الكاتشب مطابقًا للون الحقيقة

ظللنا لحظة صامتين قبل أن تتحرك أيدينا فقد بحثنا عن السبب الأكثر إلحاحًا الذى دفعنا أن نرغب فى الوجود مرة أخرى فى بلجراد ولأننا لا نسمع بعضنا بشكل خاص فلقد أخذنا القرار النهائى.

كان أمامى متسع من الوقت لأنهى ما لدى بالقرب من باريس.

الجمعة ٨ ديسمبر ١٩٨٩

بهدوء شديد طلبت من المسئول أن يعفينى من مهمة طوكيو لأسباب خاصة تجبرنى على ذلك ويكلفنى ببلجراد بدلاً منها، والتى كان المنصب فيها سيصبح شاغرًا فى التوقيت نفسه تقريبًا. وبعد شهقات التعجب المنتظرة فاجانى هيلمونت"بأننى لا أعرف شيئًا عن التاريخ البلقانى، وقد رددت عليه بأننى خلال الشهرين اللذين قضيتهما فى لندن تعلمت كثيرًا عن الموضوع أكثر مما تعلمته فى سنوات فى منصبى بالمنطقة .

ضحك قائلا أتمنى أن تكون قد وجدت نفسك مع فاتنة يوغوسلافية تسيران معًا على ـ شاطئ التايمز.

أنهى الكلام قبل أن أؤكد له إننى لا أفهم عما يتكلم.

تناولت إفطارى مع كارلوس كنا قد تواعدنا منذ وقت طويل أن نكتب ما رأيناه بأعيننا وعايشناه على

كراسينا منذ افتتاح المؤتمر. كنا ننتظر بفارغ الصبر برقية تفيد أننا يمكننا أن نعود إلى عواصمنا لبضعة أيام.

فى مقارنة لذكرياتنا اتفقنا على نقطة العودة: عندما غادرت الوفود عواصمها كانوا يتفرسون فى الوجوه كما كانوا يفعلون فى عهد "مولوتوف" . كان الطقس حارًا بشكل أكبر.... بدا حفل الاستقبال الذى أقامه موللر بمناسبة الذكرى الأربعين لإقامة جمهورية ألمانيا الديمقراطية كما لو كان يمكن أن يحدث قبل عشرين عامًا مع السفير السوفيتى نفسه حيث تعزف الدول الشقيقة لحنًا جماعيًا أمام المستمتعين الغربيين.

يومًا بعد يوم بدأ كل شىء يتهدم فى الشرق. ماعدا القادة والرموز والمبادئ والحدود والجدران فبدوا كما لو كانوا فى لعبة دومينو كبيرة. وقد شعرنا بتأثير هذه العدوى حتى داخل مؤتمرنا السخيف. وبدون أن نأخذ حذرنا بدا النص الساخر الذى كنا جزءًا منه يقوى ويكبر . بدأت التحقيقات التى صاغها البعض فى الظهور قبل فض الاجتماع. والتمهيدات الطموحة التى نحن بصدد استعراضها كمبادئ فى الساعات المقبلة ربما تمضى باندفاع بما يجعل حرية التعبير بكل أشكالها هى إحدى القيم الأساسية العامة فى البلاد الأوروبية .

باختصار حدث زلزال لقارتنا و بدا مؤتمرنا المتواضع كما لو كان جهازًا لقياس الزلازل فى مكان مغلق يضم كل دول المنطقة.

قال كارلو بمرح: جهاز قياس الزلازل؟ شىء لطيف! لآخذ تلغرافى.

كانت الكلمة التى تنقصنا هى أسباب وتأثير الزلزال فلنترك المؤرخين يتقاتلون القرون تلو القرون!

قال لى قبل أن نغادر الطاولة - أعتذر عن نصائحى لك كفتاة عجوز ذلك اليوم - لقد كان غباء من ناحيتى وتعجرفًا، لا يوجد سواك الذى يعرف كيفية تنظيم حياتك وبعد كل شىء فأنت لم تفعل ما هو سيئ للغاية حتى الآن. ولكننى وصلت إلى السن التى نبدأ فيها الخوف على من نحبهم .

نجح تيد جاريسون فى إقناع السيدة رئيسة الوزراء أنه إذا كان قد تم الأخذ بالبيان الذى أبرزناه لكان المجد هو خاتمة مؤتمرنا. بل كان سيولد نشيدًا وطنيًا كبيرًا للحرية على شواطئ "التايمز" فى ظل البرلمان و"داوننج ستريت" سيظل هذا النص فى التاريخ شاخصًا وله أهمية مثل "إعلاء الحقوق" لهؤلاء الأمريكان الحقراء أو أولئك الفرنسيين الملاعين. أضاءت ماجى الضوء الأخضر بعدما اقتنعت بهذا الحوار الجميل. أما السير أليك فقد اتخذ القرار بملء شدقيه، ولكن دون أن ينطق بكلمة. ستكون الرئاسة فى المستقبل وراءنا .

وقد حان الوقت فى باريس كان "ديديه بييرلات" قد بدأ فى تعبئة قادة الصحافة واستغلال مواقع أصدقائه السياسيين لكى يوقف" هذا النص غير المسئول" وكان بلاشك سينجح فى ضربته لولا أن

العزيز ميشيل فصل فى النزاع ضده بعد مكالمة ماجى. فى الواقع طلبت منه المرأة الحديدية بإصرار كامل مساندته فى هذه المسألة. طلبت منه كذلك الحصول على إجماع الدول الأوروبية فى هذا الوقت الحاسم على مسألة الكشف عن المعلومات والتى ستسهم بقوة فى إعادة نظام الحرية بجانب ما حدث للستار الحديدى .

وعلى ما يبدو ـ كذلك المسار نفسه لدى كول الذى أراد فى الظروف الحالية أن يفعل كل ما يجعله سعيدًا وكذلك بعض نظرائه .

كررت قائلة: هو حدث تاريخى "وإعلان تاريخى" كانت جهات اتصالهما منهمكة فى إعطاء التعليمات لوفودهم فى لندن .

وقد فهمت أن سكرتيرنا العام بدوره قد نشط شبكاته الشخصية لصالحنا وقد قال لى بصوت مرح فى اللحظة نفسها التى كنت ساغادر فيها مركز المؤتمرات "قصتنا ستسير على ما يرام. جعلتنى طريقته فى التأكيد على كلمة مصالحنا أشعر أن الفرص أمامنا أصبحت سانحة.

السبت ٩ ديسمبر ١٩٨٩

طلبت منى "إيفا بنجستيون" قائلة: "هل يمكن أن نتكلم لحظة؟" لاحظت أن وجهها به ضيق شديد يزداد رويدًا رويدًا بشكل يذكرنا بالضباب الذى يغطى سماء لندن.

اللحظات التى مرت علينا فى"البار الأزرق" قربتنا كثيرًا. كنت أنا وهى فقط اللذان نمسك بالقلم الأمر الذى جعلنا نعيد تناغم النصوص بشكل يجعلها تسير فى كل الاتجاهات.

بدأت حديثها قائلة: "بلا شك أن كل هذه التغيرات التى تجرى فى أوروبا هى إيجابية للغاية وأخلاقية ويجب الاعتراف بذلك، ولكن مع هذا فهى ليست جيدة بالنسبة لنا نحن "كسويديين". وعما قريب لن يكون هناك أى شخص فى حاجة إلينا. ويعلم الله أننا لعبنا دورنا بمهارة فى التقريب بين الكتلتين. نحن لا نتحدث كثيرًا عن أن الضحايا الرئيسيين لسقوط الحائط نحن ـ السويديين ـ بحيادنا الذى لا ينتهى

... وسنعود مرة أخرى إلى ما كنا عليه، والذى لم ننجح فى تغييره وهو أننا بلد صغير به بحيرات أكثر من السكان .

تطلعت إلى لتتأكد أن باستطاعتها أن تكمل:

أود أن أعرف رأيك فى هذه النقطة تحديداً. حسناً! ألا تفكر أنت فيما يخصكم من أن بلداً كبيراً مثل بلدكم ستصير الحياة فيه أكثر تعقيداً ؟ ألا تخشى على ديجولياتكم من الانهيار؟ أن تفقدوا قوتكم...

قطعت الحديث قائلة :

شىء مقيت ألا أستطيع أن أمتنع عن لعب دور الوعاظ! هذا الدور الذى ولد معى فى "نوربوتن. الباقى ليس مثاراً للدهشة فوالدى كان"مطراناً" كنا نسميه أنا وأخواتى فيما بيننا (القديس أبى)، كى نثأر من وجوده ...

بدت مندهشة قليلا بعدم وجود ردود أفعال لى :

أمر مؤسف أنك لا دين لك ولا شرف: فأنا مولعة بملاحظة رد فعل "الكاثوليك" عندما أتكلم عن والدى المطران . أسقف أبوى و ينجب. كان يذهلهم بشكل عام. أهون لى أن أقول هذه الحماقات من أن أحاول تخمين ما سيكون عليه مستقبلنا!.

وقد وعدتها أن أفكر جديًا فى سؤالها وثيق الصلة بالموضوع.

تبادلت كلمات موجزة مع (كوريوليس) المحبط قال:

مع كل ما يحدث فى كل مكان بأوروبا بدعمنا التام لأعضاء "ممثلون بلا حدود" فإن كل شىء يسير بشكل جيد بالنسبة لكل العالم ماعدانا نحن المنظمات غير الحكومية. الآن يرفضون بإصرار الاستماع إلينا. وهم لن يعطونا الكلمة مادامت هناك موضوعات مقيدة فى جدول الأعمال - مما يجعلنا نتساءل لماذا حضرنا ! غير أنه فى التشكيل السياسى الأوروبى الجديد سيصبح المسرح الذى بلا حدود لا غنى عنه أيضًا .

وقبل مغادرتى نصحنى كورتوليوس أن أذهب إلى ستراتفورد كى أشاهد"ريتشارد الثالث" الذى سيعجبنى بالتأكيد؛ لأنه يؤدى على المسرح القديم وبدون حذف. قال ذلك بشكل رقيق لدرجة أننى احتفظت لنفسى بالشعور السريع برد الفعل الذى وأتانى.

كنت اتكلم مع زوريكا فى بار مركز المؤتمرات عندما اقترب منها هانز موللر حتى دون تحيتى وأخذها من ذراعها وجرها إلى أحد الأركان. وقد اتخذت محادثتهما بسرعة شكلا سيئًا جدًا لدرجة أنه تركها وهى مرعوبة.

"تلك هى طريقة هذا النوع عندما يسعى إلى الانفصال نهائيًا" قالت لى هذا فقط وهى تعود لتنضم لى.

الأحـــد ١٠ ديسمبر ١٩٨٩

كعادته إلى حد كبير لا يأبه السيد رانكورت بشىء مما يحدث فى الأرض أوعلى الأرض الذى هو عالمه. هذا العالم الذى طالما أسهم كثيرًا فى بقائه فى هذا السلام الغريب حيث تم إطلاق توازن الرعب. رن جرس الهاتف عدة مرات دون أن أرد وفى النهاية قررت أن أطلبه. وعندما جاءنى صوته الموسيقى أدركت كم السعادة التى سببتها له عندما التقيت به دون أن أعطيه أملا ظهيرة يوم الأحد.

هذه المرات الأخيرة صارت حواراتنا من جانب واحد. من جانبى أنا فقط وبعد إنجاز مهمتى بدا لى فظًا بشكل لم أفهمه.

كان يجب أن تنال ذلك! "المؤتمر الأخير للحرب الباردة".. إن معك التركة كلها! فلقد كنت أحد المنفردين بالإدارة التى نجحت خلال ثلاثة عقود فى المرور بين لقاءات الشرق والغرب وبعد أن أصبحت فى الواجهة ها أنت تخطط لكى تصبح المعركة وجهًا لوجه.

دافعت عن نفس وكأننى شخص مذنب مستشهدًا بالدروس البارعة التى تلقيتها على يد الأستاذ، والتى فشلت فى فك طلاسمها.

تنهد قائلا: "على كل حال، هذا آخر مؤتمر لى. حتى هذه اللحظة أقول لنفسى أننى انتمى إلى هذا الكوكب حتى لو أننى لم ألعب عليه أى دور. ومن الآن أنا لم أعد منكم .

ساد صمت طويل

ثم استطرد قائلا بصوت مرح: "حسناً. كل هذا ليس خطيرًا. فعندما لا يكون هناك عراف يبقى أن تصير أنت عرافاً. استمر ترومللين من فضلك فى جعلى فى الصورة. إن لم يوجد ما يخصنى فإن ما لديك سيلهينى.

من خلال محادثتى مع (إيفا بنجستون) فى هذا اليوم الذى كانت تتحدث فيه عن والدها "المطران" بشكل هزلى أدركت أن هناك نقطة ما لم أذكرها هنا. فلقد قالت فى النهاية إن المستقبل يشغل البال كثيرًا فلو استطاع الإنسان أن يستغنى عن الله فإنه لن يستطيع العيش بدون الشيطان.

أولد نيك(*) هذا العظيم أولد نيك أنه الخوف الذى أبقى على قطع البازل كما هى فبدون هذا الخوف الذى نجح ستالين وترومان وغيرهم فى

(*) Old nik أولد نيك"تعنى التعليم المسيحى عن طريق الشيطان لـ"نيكولو مكيافيلى" وغيرها وبها عدد من التجمعات العامة. (المترجمة).

إدخاله فى رأسنا بتكرار اسم المذنب صباح مساء لم يكن أمام العالم سوى أن يسير على غير هدى بشكل خطير. أعتقد من خلال كل ما غرسه والدى القديس فى ذهنى أننى لا أؤمن إلا بدور الشيطان. فمنذ انهيار الحائط وجدنا أنفسنا من جديد وحدنا مع أنفسنا!.

وعدتها أن الناس سرعان ما سيعيدون اختراع واحد أو أكثر "اولد نيك". ولكن هذا لم يطمئنها.

ابتسمت بالكاد وهى تنهى حديثها قائلة: "مات الشيطان وكل شىء أصبح مباحًا! ثق فى كلام ابنة مطران! .

الإثنين ١١ ديسمبر ١٩٨٩

قمت أنا وكارلوس هذا الصباح بإيداع مشروعنا من أجل "المبادرة" بمكتب الرئاسة. وقد وافق اثنا عشر وفدًا أن يشاركوا فى رعايتها وغيرهم كثيرون يعرفون أنهم سيتلقون تعليمات من عاصمتهم تدعم محاولتنا.

فى لقاء حكومة برلين الشرقية مع المعارضة. ظهرت الكلمة بشكل غير لائق فى هذا المكان . بدا هانز موللر فى مقعده رابط الجأش وعنيداً أكثر من المعتاد وذلك لعدم التطرق الى إعلان "الانتخابات الحرة" فى مايو سنه ١٩٩٠م وأظنه شطح بخياله بعيدًا فى محاولة للخروج من هذا الكابوس. أو ربما هو يعيش فى حالة أشبه بحالة الغريق وفق رأى زوريكا التى تزداد نبرة الغيظ فى حديثها عنه يومًا بعد يوم.

أسر إلى جاريسون قائلا: أيًا كان الشكل الذى ستتخذه عملية إعادة توحيد الألمانيتين فإن

غضب"ماجى"يتصاعد لأن فى اللحظة التى تحقق فيها حلمها بسقوط النظام الشيوعى الفاسد وجدت نفسها أمام حقيقة مرة وهى أن ألمانيا هى التى ستتولى قيادة أوروبا.

كانت بالتأكيد تتمنى الموت لـ كول(*)، ولكن كذلك لـ ميتران الذى لم يقم بما يكفى فى المسألة رغم أنه كان يمتلك الوسائل" تركت ماجى لنفسها حق التأكيد على التهديد الذى تسببه ـ بلد رواية الطاعون ـ للقارة كلها. وفى حفل الاستقبال الذى رتبته اليوم لجنة الشئون الخارجية للبلديات على شرف وفود المؤتمر كان حضورها مجرد حضور عابر؛ حيث لم تستطع أن تخفى مزاجها المتعكر وللمرة الأولى لم يكن لى الحق فى قراءة رسالتها من "للعزيز ميشيل" الوحيد الذى حظى بمحادثة جانبية معها كان "زورخر" حيث أماتت ضحكاتها العالية كل شعور وطنى داخلنا.

من جانبه أكد لى"تيد جاريسون" أنهم اتخذوا الإجراءات اللازمة لتوفير الحماية لـرشدى. ثم أضاف بعجرفته المعهودة: "لقد تصرفت مارجريت تاتشر بصفتها رئيسة الوزراء البريطانية فى حشد كل الوسائل اللازمة لتحقيق الأمان للكاتب رغم صورتها السيئة التى جاءت فى الكتاب. فلقد تفهمت بريطانيا دوافع إيران إزاء هذا القرار. وطبقا للاستخبارات التى لديها لم يبق سوى أن تتم البداية الهجومية فى صمت تام ضد الأيديولوجية الغربية وضد الغرب.

(*) كول: المستشار الألمانى هيلموت كول. (المترجمة).

غداً سترى أننا سننتهى بالتحسر على حربنا الباردة الطيبة العجوز هذه" ـ قال هذه الجملة وضحك رغم أن كلماته ليس بها ما يشجع.

من حق المسكين هيتوشى(*) أن يقلق فالشرطة اليابانية لن تكلف خاطرها بتأكيد حمايته. لأن السلطات بوعيها المعتاد تقدر بالتأكيد عدم وجود تهديد إسلامى فى بلد جيد التنظيم كاليابان. بالنسبة لـ ستسوكو وفى إطار علاقات بلدينا فإنها تكبدت الكثير لكى ترسل لى أى شىء من أجل موضوعها، إذ كان لابد أن تتأكد من أن هيتوشى قد أصبح وحيداً وانقطع عن العمل.

وعندما زودتها بهذه المعلومات تليفونيًا قالت لى ستسوكو ببساطة باليابانية وبمنتهى البساطة ما يشير إلى قلقها على حياة أستاذها القديم فى الآداب :

سواء كانت تاتشر أو غيرها فإن هؤلاء المجانين يحاربون رشدى بإغراقه فى الرعب منهم كما لو كان كلبًا وسيفعلون الشىء السيئ نفسه مع هيتوشى!.

(*) إيرا جاشى هيتوشى قتل بخنجر فى ١١ يوليه ١٩٩١م بمكتبه بجامعة (تسكوبا). وقبل عدة أيام كان المترجم الإيطالى لكتابه قد أصيب هو الآخر. وكذلك ناشره النرويجى قد تعرض لضرب نار. (المؤلف).

الثلاثـــــاء ١٢ ديسمبر ١٩٨٩

أصبح "فيكتور مالفيتش" الآن الرئيس الفعلى للوفد السوفيتى ـ وأكد أمامى أن الموقف فى رومانيا ليس كما كان يعتقد وأن كثيرًا من الرفقاء الأكثر قرباً من القائد سوف يكونون فى طريقهم للإعداد لطرده. فهناك فرصة كبيرة لتكرار عملية إزاحة الحرس القديم التى وقعت فى ألمانيا الشرقية وفى بلغاريا فى أن تتكرر ثانيًا فى أقرب فرصة. فالمخابرات الأمريكية تتولى عملية ترويج الشائعات هذه. وقد أكدوا لى فى باريس وعندما أرسلت لهم هذه المعلومات فى برقية أن السوفييت قرروا بذل جهود كبيرة للانتهاء إلى ما يسميه جورباتشوف هوس جبال كاربات(*). إذًا من غير المستبعد أن نتجنب عرقلة "المبادرة" بواسطة الرومان، وكذلك الرئاسة البريطانية بناء على تعليمات

(*) كاربات: تمثل جزءًا من سلسلة جبال بوسط أوروبا تضم فيها أيضًا جبال الألب التى تشاركها فى الطبيعة الجيولوجية نفسها (المترجمة).

شخصية من "السيدة تاتشر" إذا ما قررت مد المؤتمر يومين أو ثلاثة أيام .

وفى هذه الأجندة الجديدة لن يصبح أمام "تاتشر" سوى ربع ساعة لإعطائها لى كسكرتير الدولة المحظوظ .

قال لى "ديفال فايرون" بصوت حاد : "أعتقد أننى سأمكث فى باريس. تصور سيدى السفير أنه ليس أمامى سوى هذا!.

لقد وعدت أنه سيكون هناك صورة فوتوغرافية رائعة فى مكتب ماجى صورة تدهش المنتديات الزراعية فى هوت لوارا(*).

لقد انتهى أمر الضرائب على القيمة المضافة بعبور بحر المانش، وهذا يعود إلى فضلكم سيدى السفير.

ظهرت مينيرفا أندروبولوس بشكل علنى بصحبة الرجل الثانى فى الوفد البلغارى، وهو رجل جميل يستحق الإعجاب فهو يمتلك وجهًا بيزنطيًا، ويبدو أن الظروف هى التى جعلته يكتشف النساء. نساء العالم الرأسمالى على كل حال. قام بات كالايجان بحبك العديد من الحيل البارعة كى لا يوجد فى طريقهما .

بدا صوته أشبه بالمدخن الذى يقسم للعالم كله أنه أقلع عن التدخين عندما قال لى: "لقد وعدت "باربارا ."

(*) هوت لوارا: هى المقاطعة رقم ٤٢ فى فرنسا. (المترجمة).

يبدو لى أن رباط عنقه الأخضر الذى لا يتغير قد هجر مكانه لصالح شريط جديد من الأحمر والأسود أعتقد أنه سيرافقه إلى يوم مماته. بما أن "أيرلندا" هى الابنة الصغرى للكنيسة فإن القس ماتشيولى كان تحت المراقبة بخاصة من دبلن الأمر الذى استدعى تحذيرًا قويًا من باربارا.

تركتنى زوريكا بسبب إرهاقها هذا المساء مع هيكى الذى كان يجلس وحده فى بار كارلتون.

لماذا (البريسترويكا) ؟ هذا السؤال الذى يطرحه كل الغربيين. لقد استطاع الاتحاد السوفيتى رغم كل شىء أن يكون قادرًا على الاستمرار فى أن يتابع عمله بتمهل وثبات على الطريق الشمولى . ورغم أن أداء البلاد كان سيئًا جدًا إلا أنها لم تعط الانطباع بأنها على حافة الهاوية. إذًا ما الأسباب التى أدت إلى التغيير الجذرى رغم المخاطر الجمة المحيطة بهذا التغيير؟ لقد أورد المتخصصون آلاف التبريرات منها البلبلة الاقتصادية وعدم قدرة القوات المسلحة على البقاء لحظة انطلاق"حرب النجوم" وما سيليها. أنا سأقول لك السبب الرئيسى للتشوش الحالى: لقد تنبه الحزب إلى أن أعضاءه لم يكونوا مشاركين قط إلا على هامش شبكات المافيا التى تدير البلاد .

سعادتى بأنه بلع الطعم جعلتنى أتسلق لكى أجلس على المقعد المجاور له بعد أن طلب لنا كأسين فودكا.

لم يكن وجود المافيا وسط العمال وليد الأمس فهم الذين أمسكوا بالبلاد منذ اختفاء المأسوف عليه ستالين. وظلوا لفترة طويلة يحترمون المظاهر. وكان رؤساؤهم أعضاء فى الحزب. كانوا يسكرون على ذكرى "لينين" وفى صحة "بريجينيف" وفى نهاية الشهر يعطون المال لرفيقاتهم. ولكنهم منذ فترة لم يكلفوا أنفسهم عناء فعل ذلك .

ثم أطلق ضحكة من ضحكاته من التى تضفى سحرًا على المؤتمر.

ودون أن ندرك المقاصد فإن "طليعة البروليتاريا" الشهيرة وجدت نفسها عارية! منزوعًا منها سلطتها مثل السوقة البرجوازيين صبيحة "المساء الكبير"(*)! لنبدأ بالاقتصاد الذى أصبح غالبية شركاته مثل الأصداف الفارغة. وفى داخلها تعمل مشروعات خفية. إنها هى التى تنتج كل ما يباع بالأسواق . لسنا بحاجة لأن نقول إن هذه المشروعات الخفية تنتمى إلى عصابات المجرمين. لقد بدأ الكلام فى الصحافة عن الخصخصة المحتملة وهذه نكتة! لأن الأساس فى العمل قد تم تنفيذه! والخطوة الجديدة أن يمسك ملوك الاقتصاد بالسلطة السياسية. فقد شرح ماركس هذا جيدًا ! لقد بدأت العملية فعلا. فما أن نبتعد

(*) المساء الكبير: هذا المفهوم هو مشترك من قبل الشيوعيين الماركسيين والفوضويين. وهو ما يعنى تدمير النظام السابق، وإقامة مجتمع جديد. هذا المفهوم هو المستخدم من قبل معظم المنظمات الثورية لتوحيد قواتها. (المترجمة).

قليلا عن موسكو وعن ليننجراد نكتشف أن غالبية "الأباراتشيك" بالحزب صاروا مستخدمين بسطاء فى "المافيا" ويعاملون كالكلاب. وليست هذه سوى البداية!.

ليست بسيطة لمسة ميخائيل سيرجوبيفتين جورباتشوف هذه! بعد الكثير من التردد اختاره نظراؤه لمحاولة استعادة السلطة كان شابًا، ولكنه أمين وماكر فى العمل ولكن فى الوقت نفسه ساذج لقد كان بالفعل الورقة الأخيرة التى تم اللعب بها. لم يستطع بالتأكيد سوى أن يستقر فقط فالصرح صغير وفى سبيله للتدهور نهائيًا خلال السنوات القادمة. وكثير من الإمبراطوريات فى الماضى قد فتتت هكذا هى الأخرى. والواقع الجديد فى الحالة السوفيتية هى وجود بعض آلاف القواعد النووية المدفونة فى جميع أرجاء البلاد .

وفى هذه النقطة من حديثه لم ينفجر فى الضحك. بل إنه انتظر دقيقة أو دقيقتين قبل أن يبتلع شراب الفودكا.

أنهى جملته قائلا: "الأفضل ألاّ نعيش طويلا! زاغت عيونه فى الزجاجات التى كان يرمقها فى الجانب الآخر من البار. نزلت عن مقعدى وتركته لشياطينه .

كانت زوريكا نائمة على حرف السرير وقد أطبقت كفيها على بعضهما لتبدو كما لو كان يجب

عليها أن تكون مستعدة للإسراع بالهرب من براثن الأعداء فى أى وقت. وعلى مائدة المساء تركت لى ورقه نبشت عليها بقلم أحمر: " القبلة هى الطريقة الأكثر تأكيداً لقول كل شىء دون أن ننطق بكلمة. "توقيع". (برانكوزى) وتركت الكتاب مفتوحًا على صفحة موجود فيها هذا الاسم. فمنذ عدة أيام وهى تغوص فى الكتب التى اشتريتها فى بوبورج لكى تشعل حملتى ضد ميلسكو.

إنه أول نموذج أقابله من ركن الكوكب الذى أتيت منه يقول إنه لا يؤمن بالمعاناة الخلاقة وأنا بالفعل فى حاجة إلى أن أختلط بشخص مثله فى هذه اللحظة. أنت أيضًا فى حاجة لأخذ جرعة التطعيم هذه قبل مغادرتك إلى بلجراد.

فى مرات عديدة أعطانى حق الكلمة...

الأربعـــاء ١٣ ديسمبر ١٩٨٩

بصوت بارد أخبرنى المسئول المختص أن الوزير وافق على ترشيحى ليوغوسلافيا. لقد بدا سعيدًا أيضًا فبعد ستة أشهر تقريبًا من تولى الملف الأسيوى ومقاطعة "امبريو" الفرنسية سيتمكن أحد محاسيبه بفضلى من التعيين فى طوكيو. إنها فضيحة هزت أرجاء المكان كله.

وهو لم يخف عنى حنقه قائلاً:

حظى سعيد مع أخطائك! لنقل إننى حاربت من أجل قذارة جراندين، ولكن عزائى الوحيد أنك ستغرب عن وجهى إلى بلجراد! وكما أتصور فأنت تعلم ذلك. لقد مات تيتو ربما يكونون قد أخبروك بذلك ؟ فانفجار البلاد ليس كابوسًا لدبلوماسى ثمل مثلك. اقرأ البرقية التى أرسلها سلفك هذا الصباح بما أننا سنرسل له لكى يعود. قاذورات استاشى(*) لا

(*) الستاشى: (بالكرواتية تعنى التمرد)، وهى حركات قومية وفاشية كرواتية تأسست فى عام ١٩٢٩م على يد "انتى بفلتش". هدف الحركة هو الإطاحة بالنظام الملكى ومواجهة سيطرة الصرب =

يفكرون إلا فى هذا والمغفلون من السلوفانيين والبوسنيين سيتبعونهم. باختصار هذا شأنهم! وشأنك أنت أيضًا من الآن فصاعدًا! .

غاب الرئيس العجوز الجديد للوفد السوفيتى تمامًا عن مناقشاتنا. سيارته الزيل تانتال، والتى ينزل منها كل صباح فى حراسة حارسيه الشخصيين لم تعد براقة أو حتى مغسولة منذ رحيل جريجورى إنه مالفيتش وحده الذى يتكلم الآن باسم بلاده، ولكن البغض الذى كان يحمله له مواطنوه الموجودون انتهى باحتفائه الجميل بهم.

أخبرتنى كلودين بصوتها الوديع جدًا أنه حسب الأخبار فإن لورو والرفيق البولندى اللطيف قد مزجا مستقبلهما معًا. ثم أضافت مبتسمة: "وكما توقعت فإن هذه الفترة الطويلة ستتسبب لهما فى جرح كبير.

إنه لم يمض سوى أربعة عشر عامًا منذ مؤتمر (هيلسنكى)! وهذه تمامًا السن التى أطل فيها "شكسبير"على "جولييت" .

ولكى أشكرها على مساندتها لى طوال المؤتمر دعوتها على العشاء مع كوجلمان، والذى ظل طوال

= على مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين التى تأسست فى عام ١٩١٨م حكموا كرواتيا خلال الحرب العالمية الثانية بمساعدة من قوات هتلر بعد احتلال يوغوسلافيا على يد قوات الرايخ فى ربيع عام ١٩٤١م خلال هذه الفترة ، مارست حركة الستاشى سياسة الإبادة الجماعية التى تتسم بالعنف والتطهير العرقى والدينى والسياسى، والتى أدت إلى وفاة مئات الآلاف من الصرب واليهود والغجر والشيوعيين الكروات. (المترجمة).

الأمسية تحت حراسة ما يسميه "تدفق العنف الخاص الذى يخشى أن يتبع نهاية العالم الشيوعى. وقد زودنا بكثير من الرسوم . شرحنا له أنه فى (بون) مثلا يقوم رئيس سبرينجر التى هى أهم مجموعة إعلامية فى البلاد بنشاط كبير لنشر يومياته فى دول الشرق. فقد وقع مثلا اتفاقات غير رسمية مع كثير من مؤسسات الدولة التى تطبع حالياً صحف الحزب. فجريدة بيلد مثلا تطبع خمسة ملايين نسخة بالفعل، وهى واحدة من أسوأ المطبوعات فى الصحافة الغربية. فهى مشحونة ضد الشيوعية ولا تملك صوتها. كانت كلودين تستمع حيث لم يعد هناك شىء يقال .

زوريكا ـ الماكرة جعلت الخوف من فقدها يتسرب إلىَّ.

الخميس ١٤ ديسمبر ١٩٨٩

قتل" بول دو جير"فى سيارة فى وقت متأخر من الليل. فى أحد المنعطفات التى تسبق الوصول إلى قصره مباشرة فى بولياك أبلغنى فاتيسلاف(*) النبأ وهو لا يزال تحت تأثير الصدمة. علاقة غريبة كانت قد ربطت هذين الرجلين معًا. فى البداية تصورت أنها بسبب عشقهما للخمر ولكن شيئًا فشيئًا اكتشفت أنهما كانا ضائعين على هذا الكوكب. فالأول أرستقراطى بلجيكى متفتح أزاحته المعارضة. والآخر مناضل بلغارى لا يبالى بشىء. أبلغته عظيم أسفى وأننى أقدر حزنه الشديد عليه. شكرنى وفجأة أبلغنى

(*) فاتيسلاف هافل ولد فى ٥ أكتوبر ١٩٣٦ م فى براغ هو كاتب ومفكر وسياسى تشيكوسلوفاكى الجنسية وإن كان أصله من التشيك. كان رئيسًا لجمهورية تشيكوسلوفاكيا الاتحادية من ١٩٨٩ م حتى ١٩٩٢م ورئيسا للجمهورية التشيكية ١٩٩٣م حتى ٢٠٠٣م هو سياسى غامض وعموما يعتبر "شخصية بارزة" فى بلده، وكثيرًا ما لقبوه بالرئيس الفيلسوف وصفت حياته بأنه" عمل فنى "من قبل ميلان كونديرا. (المترجمة).

أن بلغاريا ستتناول فى الأيام القادمة مشروع" لمبادرة" الذى وضعناه. لم يعد لديه شىء يفاجئنى به من كل هذه الروايات خاصة ما يفكر فيه رفقاؤه الصغار فى (صوفيا) حول نشاطه إذ كان لديه اهتمامات أخرى فى هذا التوقيت. ولكننى أحتفظ بهذه المعلومة لى.

كانت زوريكا لديها سهرة أخرى مع مواطنيها. لذلك دعوت فاتيسلاف لعشاء جديد معاً .

تولد لدينا انطباع غريب أننا نعرف بعضنا منذ عشرين عامًا. وكانت هذه هى الحقيقة رغم أن المحادثة الأولى لنا والجديرة بهذا الاسم جاءت منذ عشرة أيام فقط. وقد قررت هذه المرة أن أطرح عليه كل الأسئلة التى ـ كما يقول الآخرون - كنت دائمًا أريد أن أطرحها ولكننى لم أجرؤ أبدًا. وأول هذه الأسئلة كانت إلى أى حد يثق فى النظام؟

وكان لى الحق فى أن أحصل على إجابة حكيمة نوعًا ما.

ـ كانت لدينا الإرادة لبناء مجتمع عادل وفاعل، ولكن فى الوقت نفسه كان علينا أن نعرف أن رغباتنا ستصطدم بشدة بالحقائق البشرية وأنها ستقودنا لعمل حماقات وارتكاب أعمال لا تغتفر .

بعد ذلك سألته سؤالاً وقع كالحجر على رأسه عن موقفه خلال ما حدث فى ربيع (براغ)(*)، فأوضح لى أنه فى تلك الأوقات كان يتابع دورات المدرسة الدبلوماسية لموسكو .

نجاح جميل لابن فلاحين فقراء التقوا بالمقاومة من باب المغامرة كما يقولون . ولا حاجة لى للقول إننى وقتها كنت واقعًا تحت التأثير الكامل لموسكو وللحزب . وعند الرجوع إلى (براغ) بعد سنة من التدخل السوفيتى حكى لى الأصدقاء القدامى ما عايشوه . وكان يلزمنى وقت للتسليم بأن خطأ ما كان قد تم ارتكابه وأننا ـ بلا شك ـ سندفع ثمنه يومًا ما. ولكن ما العمل ؟ كان ينبغى أن نبقى فى النظام لتطويره من الداخل نحو المزيد من القيم الأخلاقية والفعالية، ولم يكن هناك بدائل. إلا لو قررنا أن نتفرغ لتربية الكانجرو فى أقاصى أستراليا! وكما تعلمت اليابانية فى الأكاديمية فإننى فررت إلى طوكيو.

ـ توقف قليلا ثم قال:

ـ طوكيو حيث تقابلنا ـ إذا كان يمكننا القول ...

(*) ربيع براغ كان فترة قصيرة من الديمقراطية والليبرالية السياسية والانفتاح الاقتصادى والحريات الأساسية مثل حرية التعبير والسفر والإعلام. هذه الفترة استمرت من ٥ يناير ١٩٦٨م حتى ٢١ أغسطس ١٩٦٨م، وذلك عندما غزت قوات الاتحاد السوفيتى ودول أخرى من حلف وارسو براغ وسحقت الإصلاحيين المسالمين وعاد الشيوعيون للحكم مرة أخرى. (المترجمة).

غادرنا معًا وعلى وجهنا ضحكة مشرقة. واتفقنا أن نتابع استخلاص المعلومات هذا فى لندن أو باريس أو براغ . أو حتى داخل الغابات الأسترالية إذا كان علينا أن يذهب هناك ليفوز بحلوى البريتزلز (حلوى فى شكل ثمانية) من عرق جبينه .

عادت زوريكا متأخرة جدًا من عشائها اليوغوسلافى حيث انطلقت قائلة:

لقد أصيبوا جميعًا بالجنون. فى محاولة منهم للتماسك فى الكلام دب الصراع بينهم بشكل نهائى.

وللمرة الأولى بدت لى شبه مستسلمة.

الجمعة ١٥ ديسمبر ١٩٨٩

هكذا وصلنا إلى يوم الختام مبدئيًا! وبسبب هذا الإزعاج الروماني الشديد ونزوات ماجي فإننا لم نعرف متى تنتهي معاناتنا هذه .

كان الرجل المكلف بخدماتنا الخاصة يتمتع بشرف المهن ليعبر "المانش"مرة أخرى لإنهاء مؤتمرنا. انتهز فرصة قدومه إلى لتقديم خدماته ليحكى لى بعيون لامعة عن نزهته التى قام بها إلى موسكو. وكانت المخابرات الروسية فى الواقع قد وجهت دعوة جميلة ورسمية إلى نظيرتها الفرنسية من أجل "الاتصال الأول" حيث قضوا مع رئيس القطاع واثنين من زملائه ثلاثة أيام فى ظلال الكرملين .

تصوروا أننا فى موسكو! تم استقبالنا آخر يوم فى لوبيانكا(*). لم نصدق أعيننا. بالطبع لا نستطيع أن نقول كلامًا كبيرًا سوى أننا لابد أن نتعارف.

(*) ميدان لوبيانكا يقع فى موسكو وهو مكان مهم فى تاريخ المدينة ويقع بالقرب من الميدان الأحمر . (المترجمة).

وسندعوهم نحن بدورنا من هنا بعد عدة أشهر. مع أن طريق مورتيبيه(*) يعتبر أقل سرعة من ميدان لوبيانكا مع تمثال (دجرجينسكى) فى الوسط. ولكن تبًا لذلك.

ما جعل الفرنسيون يملأون معدتهم هو أن محدثيهم لا يشربون ولا نقطة خمر واحدة. نظام قاس لمدة ثلاثة أيام! ولحسن الحظ فإنهم فى طريق العودة كان أحدهم يعرف الطيار فقامت ايرفرانس بوضع المشروبات الكحولية لهم.

قال لى:

ليس هذا كل شىء بل يجب أن نستكمل مهمتنا.

نهض واقفًا ـ أخرج من جيبه علبة سجائر جولواز حيث قدمها لى:

وأمام دهشتى قال:

أدواتنا الجديدة هى ٢٥٠ صورة بجودة عالية. بكل تأكيد لدى السوفييت الأفضل ولكن نحن سنعمل بها .

النظام (D) كالعادة ! نحن فى الهم سواء. تواطئى المفاجئ أسعده. لدرجة أنه وجه لى ابتسامة رضا قبل أن يحيينى مغادرًا ليكسب قوت يومه كما أن شيئًا لم يكن .

فى قاعة المؤتمرات قدمت الرثاء للراحل المسكين بول دو جير وخارج المجموعة الصغيرة لا أحد كان

(*) مورتيبيه: طريق مشهور فى فرنسا. (المترجمة).

يعرفه بين المشاركين فى المؤتمر. علقنا صورته عاليًا. واكتشفنا أن العلاقة الاستثنائية التى نسجها مع (فاسيلاف) هى السبب فى اشتراك بلغاريا بشكل جازم فى مبادرتنا. وبالتأكيد لم يصدقنى أحد عندما أكدت أن بول دو جير قد لعب دورًا مهمًا فى التحضير للمبادرة والتى من المفترض طرحها بعد عدة أيام من الآن. وبشكل عام تم الإنصات لى لعدم إمكان عمل شىء آخر، وكنت مختصرًا فى كلامى ومرت دقيقة صمت سريعة.

ومنذ عدة أيام لم نر سيبل وإلسا فى كبائن الترجمة كانت كلودين فقط والتى عرفت أن رفيقاتها الألمانيات الشرقيات واللاتى كن ينتظرن بأسى تأشيراتهن لألمانيا الغربية منذ سنوات قد عدن أدراجهن، ولم تكن تعرف عن هذا كثيرًا سوى أن سيبل وإلسا كانتا طلبتا بشكل كارثى من شوستر إنهاء عقديهما وقد تركتا لندن دون توديع أحد.

حلقة جديدة و كئيبة أو هزلية نتجت عن انهيار حائط برلين حيث الإقبال الشديد عندما بدأ التصوير.

استمر كارلوس من بعيد لبعيد فى تبادل ثلاث عبارات مع الدبلوماسى الصينى المتخصص فى الدبلوماسية المهجورة بدا الشاب هذا الصباح أكثر ثرثرة من المعتاد حيث طلب منه بجدية كبيرة جدًا ما يراد قوله بـ "دوران التاريخ" الذى طالما قرأه فى الصحف الأوروبية .

كان السؤال غير متوقع لدرجة أن (كارلوس) غادر بعد أن انفجر ضاحكًا وأمام المفاجأة المؤلمة لمحدثه اضطر للرد على سؤاله الفضولى. وفورًا تناول الآخر شيئًا ما لتسجيل هذا الكلام الصادر من فم المسئول. ولأنه فى (بكين) ستعمل اللجنة المركزية هناك على أخذ كل كلمة نطق بها السفير الإسبانى فى مؤتمر لندن محمل الجد بشكل مرعب؛ لذا فإن كارلوس قرر إظهار قلقه بقدر الإمكان حول مستقبل الشيوعية فى أوروبا.

وقبل إطلاق "سيرأليك" صفارة إنهاء جلسة بعد الظهر عبر "مالفيتش" الصالة فى اتجاهى وكان وجهه ممتقعًا حيث قال قبل أن يبتعد فورًا.

ـ مات (ساخاروف).

ـ توقف قلبى مثلما حدث لزميلين أو ثلاثة من الذين كنت أتكلم معهم.

صيغة الكلام هذه تصيبنى بوخزة فى تجاويف قلبى.

كان مالفيتش يبدو فى حالة ضيق لذا دعوناه أنا و"زوريكا" للذهاب للعشاء حكى لنا جزءًا كبيرًا عن أعضاء وفده السعداء. مات أخيرًا هذا الحقير المنشق والعميل الأمبريالى الذى سحبه جورباتشوف من مهمته فى المقر فى (جوركى) ليحى نموذج البريسترويكا.

وبسرعة كبيرة بدأ هو وزوريكا يتكلمان بالروسية. وحتى لا أشوش عليها اصطنعت كما لو أننى أفهم ما

يقولانه بدون لهفة ولا انزعاج. فاللغات تجذبنى أكثر فأكثر. فأنا قادر على الإنصات لعدة ساعات لمتحدثين لا أفهمهم غير أن موسيقاهم تؤثر فىّ. وهذا ما أفعله فى المؤتمرعندما أتخلص من سماعات الترجمة مثلا عندما يتحدث وارنر أو "هانز موللر" بلغتهما التى لا أعرف منها شيئًا، إنها العودة إلى الأصل مثل السعادة البسيطة للجنين الذى يستمع إلى صوت أمه. عندما عادا إلى الحديث بالإنجليزية مراعاة لشعورى أحسست أننى هوجمت

أكد لنا قبل أن يتركنا إلى الفندق الرخيص الذى يقيم فيه مع غالبية وفود الشرق أن الذل فى معاملة المنشقين مثل سخاروف كانت لإقناع ال"جونسك"(*) بالخطأ الشديد للنظام البغيض فى أداء الآلة السوفيتية.

(*) جونسك: جوزيف ستالين سكرتير عام الحزب الشيوعى. (المترجمة).

السبت ١٦ ديسمبر ١٩٨٩

توقعت زوريكا أن تقضى عيد الميلاد مع العائلة لدى والديها فى جوبلانجا.

أولادى وزوجى سيكونون هنا. هذه ـ بلاشك ـ المرة الأخيرة التى نلتقى فيها جميعًا فى (سلوفينيا). إن حالة أهلى سيئة جدًا ويوغوسلافيا أسوأ كذلك. ويجب أن تعرف أننى أشعر بالخوف الشديد. ماذا سيحدث إذا اندلعت الحرب المدنية؟ "أيفو" زوجى صربى أكثر من اللازم. لا يقسم إلا بميلوسوفيتش وأتباعه المتطرفين حقًا أما أولادى ليس لديهم سوى الرحيل للإقامة فى الولايات المتحدة أو فى أستراليا قبل أن يصير الوقت متأخراً حتى لا نسمع أبدًا الكلام عن هذه الجماعة الفوضوية. حسنًا. يجب أن أهدأ. هذا العام يمكننا أن نظهر كأننا عائلة حقيقية فى بلد حقيقى.

للمرة الأولى ـ هذه الليلة ـ قالت لى إنها لم تعش أبدًا مع ايفو منذ سنوات.

الأحـــد ١٧ ديسمبر ١٩٨٩

أسـدل سـتـار المؤتـمـر. ولم يـعـد لـدى الـسـيـدة (تـاتـشـر) أى مـتـسع من الـوقت لاقـتـراح أى شىء على ديفـال فيرون وقد توصلت إلى معـرفة مناطق الاهتمام فى شـخـصـيـتـه الحـقـيـرة. لـقـد وجه لى مـلاحـظـات سـخـيـفـة بـأنـنـى أشـرت له بـشـكـل قـاطـع بـألا يـكـون مزعجًا. أصابنى شعور سخيف عندما قرر أن يحضر إلى المؤتمر قبل انتهائه بيوم واحد لم يكن بالطبع فى حـاجـة إلى صـورة تـذكـاريـة، ولـكـنه كـان بـحـاجـة إلى استقلال سيارة للقيام بجولات عيد الميلاد.

اتجه رانـكـور إلى الـتـلـيـفـون مـتـخـلـصـاً من مزاجه الكئيب منذ عدة أيام:

لـنـكـن صـرحـاء. أنـتـم لا تـشـعـرون بـالـنـدم على الأسيويين! فالذى يجرى فى ركننا الصغير من العالم شىء آخر! أحداث لم تحدث فى التاريخ منذ خمسة أعوام. ولن أثيرها معك، إنها لحظات حزينة بالنسبة

لى .. إن "جيفكوف" [1] و"هوساك"[2] هما رفقائى فى الكفاح. تلك هى الرفقة الحقيقية. ستفهم ذلك فى السنوات المقبلة، فالرفقة الحقيقية تكون مع الأعداء القدامى.. حسنًا يجب أن نعرف كيف نتملق الجميع حتى لو كانوا أصدقاءك الذين أمامك. توقف قليلا ثم زفر زفرة خفيفة سمع صداها فى التليفون ثم استطرد بصوت مفاجئ ومرح قائلاً:

يجب أن يكون لك هنا بيئة مقدسة فى باخرتك الراسية تحت قدم (بج بن) كبواب مع المرأة الحديدية! أتصور أن زملاءك بالمعسكر المواجه تنقصهم التعليمات بشكل واضح. لم يتعلموا أن يسلكوا وحدهم فى العالم المتسع. هذه ليست مشكلتك أنت! سوف أكون قاطعًا معك يا تروملين لقد قررت أن تبسط زمام الأمور دون أن تطلب شيئًا من أحد. لا تحتج! فخلف هذا المظهر للموظف المحافظ والمخلص أنت شخص متآمر ومتعطش لإسباغ صفاتك الشخصية على عالمنا المسكين.

ثم زفر ثانية قائلاً:

لقد فعلت ما يجب عليك فعله . مهمة ناجحة. أحييك. ولكن لكى تستمر فى كونك مفيدًا يجب عليك الآن أن تبحر بالسفينة التى أنت على سطحها."سفينة

(١) تودور جيفكوف: (١٩١١م ـ ١٩٩٨م) رئيس الجمهورية البلغارية فى الفترة من (١٩٧١م ـ ١٩٨٩م).

(٢) جوستاف هوساك: (١٩١٣ م ـ ١٩٩١م) رئيس الجمهورية الشعبية لتشيكوسلوفاكيا فى الفترة من (١٩٧٥ م ـ ١٩٨٩م).

نوح". هذه ما يحتاجها العالم غدًا. لتجدها سلالتنا يومًا ما عندما تنحسر المياه، حيث سيتم أخذ زوجين من ألمانيا الشرقية وزوجين من التشيك والباقين بشكل منظم وذلك للحفاظ على الذاكرة الجماعية! ليس من السهل تذكر كيف تم ذلك. إنه أحد مظاهر العهد السوفيتى. حتى لا نتكلم عن الحائط. فالحائط الحقيقى هو تقسيم القارة بكاملها. مثل أخدود دام. فلتنس مؤتمركم يا ترومللين فمن الآن فصاعدًا سيكون علينا الإبحار! ليعترف النشء الجديد دائمًا بجميلك! .

قديمًا كان هناك ازدراء تحمله هذه الضحكة الصغيرة حول فائدة مجلس الأمن. أغلق السماعة بخشونة ربما لشعوره بالخجل من ضحكاته التى تشبه ضحكات التلاميذ.

كانت "زوريكا" تأمل فى دعوتى للاحتفال بتعيينى فى "بلجراد" . ليست دعوة على شرفى بالطبع.. بجرأة لا أعلم مصدرها قلت لها إننى أحب أن نذهب للعشاء فى مطعم يابانى. المكان الذى اختارته كان المكان الذى نصحها به كل من سألتهم. كانت منقبضة فى البداية، ولكنها فعلت ما فعله لكى تصبح على مستوى هذه البيئة اليابانية التى لا تعرف عنها شيئًا. مرت دقائق كثيرة وفى المقابل بدأت من جانبى فى إظهار تذمرى مما يحيط بنا، وكذلك من الطعام الذى نأكله كما لو كنت أريد أن أسلم بأننى حرمت نفسى من بلاد الشمس المشرقة.

خرجنا فى الرياح المثلجة فى كينسنجتون(*) وفى فمنا باقى شراب الساكى. أخذنا نترنح حتى حى كارلتون حيث كانت المسافة طويلة ولكننا سرناها ونحن نضحك كالمراهقين البلهاء فى عالمنا.

ظللت مستيقظًا طوال الليل، وتوصلت إلى أن زوريكا أهملت ليس فقط معالجة أوضاعها المؤسفة فى الصحف، ولكنها أيضًا ألقت بثيابها فى كل أرجاء الحجرة. التى أغفلت العمل بالنظام فى شحنة الصحف ـ ولكنها رمت ثيابها فى أركان الغرفة. كل منا ذهب مع التيار.

(*) كينسنجتون: حى شهير بلندن. (المترجمة).

الإثنين ١٨ ديسمبر ١٩٨٩

رغم حالة الهياج التى بدأت تتفجر فى تيمشوارا(*) إلا أن تشاوشيسكو غادر عاصمته فى زيارة رسمية لإيران وكأن شيئًا لم يكن.

وفى عيون بورلييه.

كان هناك دليل أكثر على التفرد الرومانى الذى لا ينضب .

تحول المشروع البائس عن "الإعلان عن التبادلات الأوروبية فى موضوع المعلومات" الذى وجدناه عند وصولنا إلى إعلان لا تنقصه الجاذبية "عن نظام أوروبى جديد للمعلومات" فى كل الحالات كان النص الأول الذى يشير علنًا إلى الانفتاح الملحوظ بين الطرفين فى أوروبا .

من أجل عدم سحقه فى المهد بواسطة الإجراءات العبثية فى عملية أخذ الآراء! فإنه فيما يخص ألمانيا الشرقية أتصور أن وارنر سيجد طريقة

(*) تيمشوارا: هى واحدة من أكبر المدن فى رومانيا. (المترجمة).

لإقناع - إن لم يكن موللر نفسه - "الشيوعيين الإصلاحيين" على الأقل الذين شكلوا حكومة جديدة فى "برلين"، والذين ما زالوا قلقين من تعدد الحركات الرمزية ... ليتبقى الرومان ! فعلى الرغم مما قدمه مالفيتش فهو أبعد من أن يؤكد أن الشعب فى بوخارست على استعداد للقيام بواجبه.

أخذنى الطبيب "هارى ماركس" جانبًا عقب الخروج من الاجتماع حيث كنا قد وضعنا نقطة النهاية أخيرًا فى النص الخاص بظروف عمل الصحفيين. ولم ألاحظ مطلقًا كم كان منهكاً بسبب وجهه البشوش. كنا قد جلسنا .

بدأ حديثه قائلا: "إننى لا أعرف إذا ما كنت سأستطيع حضور لقاءاتنا الأخيرة باستثناء جلسة الختام بالتأكيد حيث سآتى على نقالة إذا لزم الأمر فلدى بعض المشكلات الصحية الصغيرة. ومن منا ليس كذلك ؟ أتعرف أن عمرى ثلاثة وسبعون عامًا. حسنًا لقد وددت فقط أن أقول لك إننى كنت سعيداً بمعرفتك. إننا لم نتكلم كثيرًا معًا، ولكننا دخلنا فى الاتجاه نفسه وهذا هو المهم. لقد تعلمت كثيرًا خلال هذين الشهرين. عن العالم وعن الآخرين. وعن نفسى أيضًا لقد أمضيت حياتى كلها فى العمل لا أرى إلا الأرقام. وفى يوم ما اعتزلت بعد أن ماتت زوجتى وابنتى الوحيدة فى حادث سخيف. ومنذ ذلك الوقت انسحبت مثل الزئبق تمامًا مثلما انسحبت صحتى منى

... كل ذلك كان بلا فائدة! ولكن المهم بالنسبة لى هو أننى فى هذا المؤتمر الذى أرسلنى إليه نائب الرئيس وجدت ... الكلمات المناسبة لا تسعفنى.. وجدت كما لو كنا عائلة هيكى ووارنر وكارلوس وتيد وأنت وآخرون.. أخيراً كنت سعيداً بينكم جميعًا. وقد هيأ الله لنا أن نلتقى فى وقت يبدو فيه الكوكب الذى نعيش عليه يريد أن يتحرك أخيراً ـ وقد قررت أن أقول لك... إننى أشكرك كذلك وأتمنى لك الكثير أنت وكل من تحبهم.

صارحت زوريكا قبل أن تنام بأن أمسيتنا العفيفة فى مطعمها اليابانى الردىء أعطانى بطريقة غير مباشرة رغبة فى أن أغوص فى بحارهم البلقانية دموية اللون. وحتى لا تصرخ فرحة بالنصر قبل أوانه فهى لن تقطع إقامتها؛ حيث يطلع النهار هناك قبل طلوعه عندنا.

الثلاثـــاء ١٩ ديسمبر ١٩٨٩

أخبرت ديفال فايرون أنه لا يوجد حتى الآن ميعاد محدد للختام وقد لامنى بشكل سيئ على الطريقة التى تكلمت بها. فقلت له:

حسنًا لن أحضر سيدى السفير. تبًا لك.

اضطر لتخفيف نبرته حتى لا يثير غيابى ردود أفعال فقال لى قبل أن يغلق الهاتف.

- عيد ميلاد سعيد رغم كل شىء!

كان (هيلموت كول) فى دريسدن(*) عندما صاحت الجماهيرعلى شاشات تليفزيون البار"الوحدة الوحدة !"

لم يستطع وارنر أن يخفى عواطفه رغم كل جهوده المبذولة. وفى غياب رئيس الوفد الذى ذهب

(*) دريسدن: هى عاصمة ولاية ساكسونيا فى شرق المانيا. يبلغ عدد سكانها نحو نصف مليون نسمة. قامت قوات التحالف بقصفها بشكل مكثف فى الحرب العالمية الثانية. قدرت الخسائر البشرية آنذاك بـ ٢٥٠٠٠٠ مدنى. (المترجمة).

إلى برلين لإجراء مشاورات فإن أعضاء وفد ألمانيا الشرقية قدموا الحد الأدنى من الخدمات.

ـ همس وارنر فى أذن أحد معاونيه الذى تبين أنه كان صديقًا قديمًا لكلودين بأنه لن يكون هناك طريق خاص فى ألمانيا الشرقية إذا ما تحققت الوحدة. وهى ستتحقق مستقبلاً لأن لا شىء يمكن أن يقف أمام هذه النقطة المسجلة فى القلوب، حيث سيصبح مواطنونا فى الشرق مثل المواطنين الآخرين فى الجمهورية الفيدرالية. وكل ما يميز ألمانيا الشرقية بما فى ذلك النقاط الإيجابية القليلة سواء كانت تعليمية أو اجتماعية قد تم القضاء عليها. وأمام الصعوبات من كل نوع التى ستثار فإن ألمانيا لن تسمح لنفسها بأن تكون دولة ذات سرعتين.

خطط واضحة تعكس بلاشك وجهة نظر جيدة للمسئولين فى "بون". قررت بصفة نهائية آلا أطلع الوزارة على ذلك . فلن يحدث سوى انطلاق صفارات الإنذار فى الصحافة من الهلع الألمانى و بأن زملاءنا فى بون يقومون بعملهم!.

وللمرة الأخيرة بلا شك وبعد أن أخذنا جدول أعمالنا كاملا حتى نهاية المؤتمر وجدنا أنفسنا فى جان سوان. وصلت متأخرًا فكان صعبًا على اكتشافها ولكنى شعرت بانقباض فى قلبى بشكل يتناسب معها . لقد كانت غلطتها فلقد قلبت الموازين وانتظرتنى فى قاعتى. تلك القاعة الخاصة براقصات"مينج"(*). كانت

(*) اسم رسام بريطانى عاش فى الحقبة الكلاسيكية. (المترجمة).

خيانة لمبادئنا نحن ـ الاثنين ـ ولكننا غفرناها. سنلتقى فى سراييفو إذًا فى ٣١ ديسمبر. فى المكان الذى قضت فيه الجزء الأكبر من مراهقتها .

أكدت لى قائلة: "إنه أفضل من غرف الانتظار فى يوغوسلافيا. كما أنه أنسب وقت لتبدأ أنت فى اكتشاف بلاد النعيم حيث ستقضى أفضل سنوات حياتك .

رددت عليها قائلا إنه فى إبريل عندما آتى بخطاب تعيينى. فلا أحد يستطيع أن يؤكد لى أننى سأجد أى شخص لأقدمها له .

فهمت من نظرتها أنها تعطينى الحق فى السخرية من المسألة من جميع جوانبها.

من الأتوبيس الإمبراطورى الذى قادنا إلى مركز المؤتمرات وجدنا أنفسنا أمام إحدى واجهات عرض الثياب. بدا لنا لورو الصغير ببولنديته الجميلة والملائمة جداً ولكن شتان بين هذا وذاك .

قالت زوريكا: "هذا المشهد يلخص انهيار جميع الأسوار فى العالم وليس فقط سور برلين" .

رأيت أننى من المفترض أن أذكرها بأن الحدث نفسه قد رسخ بناء الثنائى المثالى"السا" و"سيبل". ولكن فجأة شعرت زوريكا بأنها تريد أن تحدثنى عن علاقتها الشخصية بسور برلين حيث قالت:"خلال سنواتى الخمس فى برلين قضيت أوقاتًا عصيبة فى التدريب باتجاه الحائط.. بالإضافة إلى مئات

الكيلومترات من الخرسانة كانت غابات الحصن وشرفات المراقبة هى التى تجذبنى. وبدون الحديث عن محطات المترو الشبح والأسلاك المقطوعة أعلى الأعمدة الكهربائية بالضبط... يمكننى القول إننى أعرف تلك الآلات الضخمة التى غمرت جمهورية ألمانيا الديمقراطية بحزمة من المليارات ربما كانت ستصبح مفيدة فى أماكن أخرى! مهمة سائقى الشجاع من مونتتجرو هو جعلى أكتشف المتاهات. صحيح أنه فى كل نزهة من هذه النزهات كانت سيارة من الاستازى(*) تتعقبنى - وفى البداية كانت تتبعنا ولكنها بعد ذلك لم تسع إلى التخفى." أغلقت زوريكا عينها. وكما قلت دائمًا فإن هذه السنوات البرلينية بها حدث بها الكثير من الأشياء السيئة.

هذا الرمز الساحق الذى أضل أحلامنا أصبح يبهرنى. وصل بى الأمر أن أتكلم عن رحلاتى القصيرة هذه إلى المتحدثين الرسميين. إلى (هانز موللر) مثلا. أتحدث فقط لمحاولة إفساد يومهم. ولكن أعتقد أننى لم أبلغ ذلك طالما كانوا جميعًا منغلقين على أنفسهم داخل منطقهم عن "الوقائع الشرعية فى مواجهة الاعتداء الإمبريالى".

ألقت علىَّ نظرة حزينة .

إننا فى الطريق لإزالة هذا الجدار القذر. جيد جدًا! ولكن تنازعت الجماعات فى العالم على الغنائم

(*) الاستازى (اسم البوليس السياسى فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية) (المؤلف).

الكبيرة للدولار. بل إنهم ينظمون بيعًا بالمزاد العلنى فى مونت كارلو. بعد شهر من الحدث! إلا أنه فى محاولة اجتياز هذا الجدار فإن مئات الناس قتلوا وآلافًا آخرين ظلوا لسنوات فى السجن. والعالم الآتى لا يعجبنى حقًا... بئس ما حدث. إننا لن نتحمل عبثية هذا الكون حتى مماتنا.

قال لى بابتسامة خبيثة من تلك الابتسامات التى تعلو وجه من لا إله لهم إن القس ماشيولى سيرحل غداً صباحاً بعد الاحتفال بالقداس. هنأوه بالمبادرة التى اتخذتها مع كارلوس ، وكراتسوسكى والآخرين رغم تفاهة الاستخدام .

لقد فعلتها فى الوقت المناسب. ومع شجاعة تستحق التقدير ـ وسترى "مبادرة لندن" ـ هكذا بدأنا فعلا فى تسميتها ـ وسيكون لها دوى كبير فى أوروبا. وتأثير كبير كذلك كل ما أريدك أن تعرفه هو اننى استخدمت تأثيرى فى الضغط على بعض الوفود لتشجيعهم على تأييد نص المبادرة الذى هو الآن على مائدة المؤتمر. ولا حاجة لى لأن أقول لكم إننى جذبت انتباه الكرسى الرسولى لأهمية ما يحدث هنا .

بعد ذلك أخذنى من ذراعى وسحبنى حتى ركن الصالة حيث كان ينتظرنا مقعد حجرى .

بشكل عام يجب أن تعترف عزيزى السفير بأنك كنت هنا أقل تعاسة عما كنت تتصور. إن مشكلات قارتنا لاينقصها الاهتمام. لقد استطعت إثبات ذلك.

صحيح أن الظروف بشكل خاص ساعدتنا على ذلك. ونحن لم نتعب سوى فى البداية. حتى جاءت ريح التغيير وهبت على أوروبا لتنظيفها خلال فترة طويلة مع المخاطر الكثيفة الكامنة وراء ذلك. إنها كارثة أن تبدأ الآن فى التعرف على هذه الشئون، فى ظل عدم مشاركتك فى الإدارة فى تلك الفترة بالغة الصعوبة التى ستأتى. فلو أنه لسوء الحظ واجه تعيينك فى طوكيو عقبات غير متوقعة لا تتردد! واختر تكليفًا فى هذه المنطقة من العالم. إن هذا متروك لك بعد كل شئ ! أنا متأكد من أنك ستقدم خدمات سامية. وهذا سيتيح لنا فرصة التلاقى مرة أخرى. ربما أستطعنا أيضًا أن نفكر فى إجراءات معينة يتوقع لها ان تساعد القادة الجدد لهذه البلاد على أن يروا المسألة بوضوح أكثر .

فى ظل هذه الأجواء اللاهوتية إلى جانب أبواب الرهبنة فإن زميلنا الطيب لم ينكب فقط على شئون هذا العالم، ولكنه يمتلك الكثير من المعلومات عن أفضل الأماكن. إنه تغطية لحلم تحرير معاهدة اقتصاد الخلاص فى النهاية.

أوضح لى كراتوسكى أنه اعتبارًا من الغد سيشارك القس ماشيولى فى روما فى الاجتماع السنوى للسفراء بالمقر الأوروبى وأنه لا يمكن فى هذه المناسبة أن نعلن تعيينه فى منصب. ففى أوروبا الشرقية حيث الكرسى البابوى يعد بلا شك و بنشاط كبير لعودته. وصاحبنا له رتبة لشغل مثل هذه

الوظيفة. وأنا سمحت لنفسى أن أقول له إن تقاريره عن مؤتمرنا قد أعجبت أصحاب المقام الرفيع.

نداء تليفونى من ديدية بيليرات:

أخيرًا سترى مبادرتك. فالألمان الشرقيون والرومانيون بالتأكيد سيتركون أنفسهم للاقتناع.. ولكننى أثق فيك. حسنًا! لقد فكرت مليًا. ووجدت أنك أنت الذى على حق بالطبع. فنص المبادرة هذا سيساعدنا كثيرًا عندما نستعد لإطلاقه أو عندما نعاود شراء الصحف فى بلاد الشرق. ولن يتمكن موقعوه من وضع العراقيل لنا. فحرية الصحافة تقول ذلك أليس كذلك ؟ إذًا شكرًا على ما فعلت وإلى لقاء قريب! سأكون سعيدًا - بلا شك - أن أراك ثانية قريبًا فى بلجراد. فكثير من أعضائنا مهتمون بهذه البلاد. نهاية سعيدة للمؤتمر سيدى السفير! .

نسيت أنهم يمكن أن يهزءوا بى بهذه العجرفة وبشكل خاص فأنا لم أتقبل هذا المقطع الصغير المر عن "بلجراد" فى الوقت الذى لا يوجد فيه عشرة أشخاص فى باريس على علم بتعيينى. رغبتى فى قتله كانت أكبر من معرفتى بفطنته ولكنه مثل كثيرين غيره لن أنتقم منه! .

اقتربت منى"إيفا بنجستون" ذلك المنجم المظلم قائلة:

كارثة ! أن ستوكهولم طلبتنى . فقد عينونى فى "بلجراد"هل تتصور الذهاب إلى بلد لحضور تقسيمها! لو أن اليوغوسلاف فعلوا مثلما فعلنا نحن -

النرويجيين ـ عندما انفصلنا عام ١٩٠٥م .وقلنا: "وداعًا والكثير من الأشياء عندكم !" ولكنهم سيتقاتلون. سيتقاتلون بالحربة هل ترى ذلك ؟ أو قريبًا لن ترى شيئًا بما أنك ستكون متربعًا على مقعدك تحتسى شايك الأخضر، وهناك راقصاتك اليابانيات ذات الأسنان السوداء (الجيشا) .

واسيتها قدر استطاعتى مع تأكيدى لها أن العذاب الذى أصابها هو دليل لا يقبل الشك على بقاء الـ الأولد نيك فى عالمنا المسكين.

كنا حوالى مائة عندما أخذنا أماكننا فى الطريق الضيق بالإيست اند (مكان فى لندن) حيث رأينا مطلع هذا الشهر "ريتشارد الثالث" المثيرة للسخرية. مسرحية اليوم من تنفيذ كوروليوس؛ حيث جرحه اقتراحى بعرض مسرحية يوضح لنا فيها كيف يصبح المسرح قادرًا على فعل شىء. . وبمساعدة رفقائه البريطانيين "ممثلين بلا حدود" وفى سرية شديدة أخرج نصًا ووجد الوقت والوسائل لكى يخرجه وكان من غير الممكن بالنسبة لى ألا أكون حاضراً! لقد حشدت كل الوفد الفرنسى. ومن جانبه قام كارلوس والآخرون بفعل ما يجب لملء الصالة. كراتوسكى وماليفين وفاسيك كانوا يمثلون الشرق. حتى القس ماشيولى رغم مغادرته فى اليوم التالى صباحًا إلا إنه التزم بالحضور.

جدار عالٍ كان يقطع المسرح إلى جزءين ليفصل بإحكام بين"الحوش والحديقة" وقد كان لنا الحق فى

تراجيديا فى الغالب ظريفة حول تاريخ "حوار الشرق والغرب" منذ ١٩٤٥م . دون أن نرى أو نسمع كان الممثلون يرمون ردودهم مثل من يبصق فى الهواء ومن وقت لآخر كانوا يخشون من التواصل عبر الجدار الفاصل بينهم أثناء رفعهم للرسائل عبر عصا طويلة.

كان النص معروضًا بطريقة جهنمية حيث تم لصق مقتطفات من الخطب والتصريحات الرسمية. بشكل عام ماذا تقدم لنا هاتان الماجنتان. نصفا المسرح مملوء بالمعدات الحربية من كل نوع. وصلت المسرحية إلى مؤتمرنا حيث أظهرته على أنه حوار الطرشان حول مائدة مقسومة إلى نصفين بواسطة "الحائط". بساقيه المنفرجتين يمكن بسهولة التعرف عليه مع إيقاعاته الشديدة وتأتآت بدا "سير أليك" كما لو كان يرأس التدريب. كان الممثلون الآخرون مجهولين ولكن لم يكن صعبًا فهم أننا كنا جميعًا على المسرح كى نقوم بأدوارنا .

وأخيرًا بلغنا سقوط" الحائط". طلب الممثلون من الجمهور الحضور ليحققوا هذا العمل بأنفسهم. وأمام عدم نجاحهم فى استدراج الجمهور كان يجب علىَّ وبسرعة ضرب المثل لهم. بعد كل شىء ، كنت أنا الذى دفعت لأن يحدث هذا السخف... كان كل من فى الصالة يتابع. وبلكمات كبيرة فككنا المكعبات التى يتكون منها الجدار. وبالاندفاع نفسه أفسدنا الخزانات والصواريخ الكرتونية قبل أن تسحق سير مؤتمرنا .

لم يكن من الصعب أن نخمن أخلاق التاريخ من الماضى الذى أوجد تلك المائدة المزعجة: فوق الركام الذى سقط الآن كان علينا نحن أن نلعب .

ولتحية ما يستحقه هذا الحدث الفنى أحضرت الشمبانيا ولا أعرف كم دفع كارلوس ثمنًا لمشروباته الكحولية العائلية.

كرر كوروليوس قائلاً يا لها من لحظة مسرحية! تذكروا أنه بفضلكم استطعتم هدم حتى ديكور مؤتمركم.

وبسلطته المعهودة التى لا شك فيها رفع القس ماشيولى كأسه بالشمبانيا نخب" كل من أسهموا فى هذه الأمسية الرائعة"، وكذلك فى أوروبا الجديدة التى كانت تتبلور .

أكد لنا قائلاً : فى هذه الأوقات حيث الاضطرابات المتسارعة نخشى أن نفقد كل سماتنا. فالمسرحية التى أتينا لحضورها أبرزت بفصاحة فى أى مكان للخراب سوف تقام خيامنا بعد الآن. ليسهر الرب أو أى اسم نعطيه له على قارتنا فى هذه اللحظات الصعبة!.

أضاف مالفيتش: نخب أوروبا بيتنا المشترك! ونخب الحرية التى تضىء العالم!.

أعطيت بدون تدبر إشارة المغادرة من أجل تجنب أن يعتقد كل واحد فيهم التزامه بالتعبير عن وجهة نظره بالنسبة للمستقبل.

الأربعـــاء ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩

يوم الجمعة الماضى غادر هانز موللر ليقضى عطلة نهاية الأسبوع فى الجمهورية الديمقراطية. إنها محاولة للاستفادة من هذا الوضع الجديد كما نتصور. أو كما قال البعض ذهب للبحث عن وظيفة أخرى بدلاً من التى فقدها وإن كان الوقت مبكرًا على ذلك. وحتى يوم الإثنين لم يكن قد عاد بعد وهذا الصباح أبلغنى وارنر بنبأ وفاته. فعندما وصل إلى برلين لم يكن قد اتصل بأحد من رفاقه؛ حيث اتجه مباشرة إلى منزله حيث شاهده بعض الجيران يسير بخطى واسعة وحده على الرمال. وفى ليلة الإثنين أطلق رصاصة فى رأسه. ولم يترك ولا كلمة واحدة لتوضيح ما فعل..

الغريب أن وارنر كان الشخص الأخير، الذى تحدث معه موللر عن الصالح العام فيما حدث. وصباح مغادرته كان شاركهم فى فطورهم. وكان لقاؤهم هذا هو أول لقاء حقيقى بينهم! وفيه دافع

هانز موللر عن نفسه ومن معه باعتبارهم مذنبين فهم لم يستطيعوا تقدير مدى انزعاج الشعب وشعوره بالكراهية. فالمظاهرات الشرسة التى اندلعت فى ليبزيج ابتداء من أول أكتوبر رافعة شعارًا واحدًا هو "الشعب هو نحن ! " كانت دليلا قاسيًا على ذلك. وهكذا انطلق موللر قائلاً العار لنا قبل أن ينتقد بشكل لاذع قادة الحرب. وبين عشية وضحاها دفاعه عن مكتسباته فى النظام التى لا تقبل المناقشة. رغم إظهار الشجاعة والتصميم فى الحفاظ على الأساسيات التى أنشئت! فبسبب عدم تأهيلهم الكافى كان لابد من مرور أربعين عامًا شهدت المكسب والخسارة والفشل والنجاح كى يستطيعوا خلق عالم جديد بجهود تفوق طاقة البشر! كان هو فى نهاية المسار! ولم يمنعه هذا آن يصيح فى هذه الأسابيع الأخيرة. بخاصة عندما كان يحضر الاجتماعات التى كان يسميها "مؤتمرنا القذر"لأنه رأى أن كل قصص هلسنكى هذه لم تشارك فى الارتباك الحالى ببلاغتها المخرية التى تسكبها فى الهواء.

لم يكن وارنر أو هانز كما يسمونه الآن راغبًا فى فتح المناقشة ولكنه كان يريد فقط إفراغ جعبته. كان موقفه الأساسى هو "الإصرار والدليل" لا أحد يعرف ربما أصبح الحوار ممكنًا فيما بعد.. فقبل أن يرحل فى طريقه إلى هيثرو ألقى ثلاث عبارات بشأن والده الذى عذب وقتل بواسطة "الجستابو". وأنهى كلامه بتذمر قائلاً : "من الأفضل أنه لم ير هذا!".

كان وارنر لابد أن يشعر بمسئوليته تجاه تنفيذه لوصية حتى يستطيع ان يحكى هذه الواقعة العائلية مامنا

عندما تكلمنا عن وفاة موللر. قال ماريسون جاريسون الذى عمل لسنوات طويلة فى المقر اللندنى بالخدمات" البريطانية فى الخطط السرية " لحلف يارسو إن مهمة القوات المسلحة لألمانيا الشرقية كانت حتلال باريس. وقد أصابته الدهشة عندما عرف أننى لم أكن أعلم ذلك وذلك قبل أن يقول لى:" إن هذا يذكرك بذكريات طيبة ـ أليس كذلك ؟"

مكالمة من (سيتسوكو) تخبرنى فيها أنها ستذهب لقضاء خمسة عشر يوما مع عائلتها فى (اوزاكا) وأن صديقها سوف يرافقها بشكل أساسى. وأنها لو وجدت هناك "كتبا تفيدنى فى كتابى" فسوف تأتينى بها بكل تأكيد. ثم أضافت قائلة: "لتعمل جديا! فلدى عودتى ساكرس جهودى للبحث لك عن ناشر" عامًا سعيدًا عامًا سعيدًا. أرسلت لى قبلة طفولية كما تحب أن تسميها فى حين أننى رددت عليها بقبلة حقيقية من قبلاتى القديمة. بشعره المنكوش وملابسه التى تبدو وكأنها خرجت لتوها من الغسالة ظهر (كراتويسكى) مهموماً ليقول لى:

القس ماشيولى لم يؤد القداس هذا الصباح قبل رحيله فى طريقه إلى السفير (موللر) حيث كان بعضنا يأمل فى ذلك. ولد فى جبل بافاريا كان المرحوم قد تم تعميده. ولكن باعتباره كان يؤمن

بالشيوعية فقد تم طرده بناء على "المنشورات العامة الممجدة المنجية" . سار كل شئ سريعًا جدًا حتى هذه اللحظة التى نسينا ذلك فيها. إنها مصيبة! هذه الحقيقة المؤلمة لم تمنع راعى الكرسى البابوى، وكذلك بعض الآخرين من بيننا أن يدعوا أن يرحم الله المذنب.

بينما كان (كراتوسكى) يحكى عن شئون عقيدته حاولت أن أتخيل ماذا كتب "ماشيولى" عنى. هل أشار إلى أن زوريكا تعلونى؟ وبالنسبة لزوريكا نفسها ماذا كتب عنها مما لا أعرفه أنا؟

وفجأة حضرنى سؤال سخيف ماذا يفعل الإنسان لكى يظل أطول فترة ممكنة فى ذاكرة الناس أيفضل أن يكون ملفه فى دواليب سكرتارية الدولة فى قاع أدراج المخابرات الروسية أم أن يكون مدرجًا على أجهزة الحاسب الآلى للمخابرات الأمريكية؟ أعتقد أن الرجل المكلف بخدمتنا كان يمكنه ربما أن يزودنى بالإجابة .

لقد أثر انتحار (هانز موللر) فى (زوريكا) كثيرًا. فمع ماضيه البطولى وقوته كمحقق كبير كان واحدًا من الشخصيات النادرة، التى كان لها تأثير شديد. أتصور أنه كان بينهما فى "برلين" أكثر مما كانت تريد أن تحكيه لى. وأنا أرغب تمامًا فى أن تحكيه لى .

وجدتها منهكة فى غرفتها. ولذلك قررت وأنا متألم أن أدعوها لشرب كاس فى مكان هادئ . تكلمنا

فى كل شىء وفى لا شىء. أو بالأحرى: "عنا وعن لا شىء" لاستعادة التعبير الذى ابتكرته لاستخدامنا. وفى تطور سريع انفجرت فى البكاء .

همهمت من وسط دموعها قائلة: "أشعر أننى وحيدة فى هذه الفترة التى يتأرجح فيها كل شىء. وحيدة.

أشرت إليها أنه بما أنها عاودت البكاء مرة أخرى فمعنى ذلك أن الأشياء لم تكن كلها سوداء تمامًا. رسمت ابتسامة صغيرة حزينة قبل أن تنطلق قائلة:

هناك على الأقل نقطة تجعلنى غير منزعجة وهى إحصائيات (جمهورية ألمانيا الديمقراطية) فمن خلال معرفتى العميقة بطلائع البروليتاريا فى هذه البلاد أؤكد رسميًا أن ما حدث للصديق موللر لن يصيب أحدًا آخر.

جعلنى تغيرها المفاجئ هذا أشعر أن كيلى قد طفح.. أعشق نظراتها الملحة التى تطلقها عيونها الخضراء. فهى تذكرنى بنظرتها الفجائية التى تطلقها أثناء ممارسة الحب لتدعو عاشقها أن يستمتع معها .

روت لى فى هذا المساء أن والدها قد تم قذفه من النافذة بعد تعذيبه على يد جنود قساة كى لا يبلغ عن رفاقه. ثم أنهت حديثها بنصف ابتسامة قائلة: "ولكن هذا ليس سببًا كافيًا لكى يحتلوا يوغوسلافيا هكذا".

الخميس ٢١ ديسمبر ١٩٨٩

بعد طول انتظار جاءت أخيرًا زيارة الرئيس الفرنسى ميتران لدولة ألمانيا الشرقية، والتى كان من الصعب إلغاؤها بكل تأكيد. فألمانيا الشرقية دولة موجودة ومعترف بها من الجميع. كما أن حكومتها الجديدة وعدت بتنظيم انتخابات حرة فى مايو المقبل. فماذا يطلب الشعب؟ أكرر ذلك فى ظل ما تنتظره أية حكومة من أحد ممثليها فى الخارج. ولا أعرف لماذا يبدو الزملاء والصحفيون يستمعون لى غير عابئين بما أقول...

سألنى مراسل الجارديان قائلا: ألا ترى أن هذه الزيارة قد جاءت فى غير أوانها كما يقولون.

كان علىَّ أن أهاجم تقلبات الرأى الغريبة هذه لتسلسل الأحداث نهاية هذا العام ١٩٨٩م ولحسن الحظ أن رومانيا قد جعلت من هذا الجدل شيئًا مثيرًا للسخرية.

وفى لمح البصر خلت قاعة اجتماعاتنا مع نهاية الفترة الصباحية ممن فيها تحت مرأى تيد جاريسون

الذى كان يرأس الجلسة، والذى بدا مشدوهًا مما يحدث. ففى هذا الجو الملبد بالإثارة يسهل على أية شائعة غبية أن يكون لها تأثير. شىء ما جيد فى هذه الحالة. ففى البار كانت القنوات تعيد عرض المشاهد التى تحدث فى بوخارست أمام قصر الإمبراطور الذى رأى ان التشابه الواضح تحت لواءات الحزب والوصول إلى المكان الذى تنبع منه "أفكار جبال الكاربات" كانا كفيلين باستخراج صيحات الحب من شعبه. ولكن فجأة بدأت مئات الآلاف من الحناجر تقذف السباب ضد الأسقف . ومن فرط المفاجأة غمغم هذا الأخير بكلمات غير مكتملة قبل أن يعود أدراجه من حيث أتى. وجد " ايبو"(*) نفسه عاريًا بشكل مباشر.

لم يترك (ميلسكو) مقعده. بل إنه وبدون مبالاة انتظر بجسده الضخم فى الفراغ الذى يحيط به عودة زملائه لبحث الأمور الجدية واستعادة مقاعدهم.

وفى ختام جلستنا بعد الظهر وبصوت واهن أثنى سيراليك على زميلنا (هانز موللر) قائلاً: إننا كنا نقدر له كل التزامه ومهارته بالإضافة إلى خدماته. وبإحساس من تأنيب الضمير غالبًا وقفنا دقيقة حدادًا على روحه أتبعها بعشرين ثانية أخرى.

(*) ايبو هى مسرحية اسمها "الملك ايبو."وهى مسرحية كتبها ألفريد جارى عرضت لأول مرة فى عام ١٨٩٦م . إنها واحدة من عروض مسرح العبث، بها قدر كبير من الحركة السريالية الفنية فى أوائل القرن العشرين. وهى تسخر من الممارسات الفلسفية الأوروبية العبثية إساءة استخدام البرجوازية للسلطة بعد الوصول إليها. (المترجمة).

علق شوستر قائلا:

إنها ليست لعبة نظيفة بالدرجة، خدمة الموتى هذه التى تشبه الحقنة الشرجية. فالسير أليك بالفعل ليس ذلك الشخص الفاضل وإنما هو دون المستوى: فأنا لا أثق فى مواهبه فى أن يساعدنا فى إقناع جميع الوفود بالموافقة على مبادرتنا. تبًا لكم! كما تقولون فى فرنسا. فليستمر الصراع!.

بدا كما لو كان سيتركنى ولكنه عدل عن ذلك قائلا:

علمت أنه ربما سيتم تعيينك فى جنوب شرق قارتنا. تهانى الحارة. إننى سعيد جدًا بهذا؛ لأنه سيعطينا الفرصة فى رؤيتك باستمرار .

أشعر أننى سأموت قبل أن أفهم كيف يكون لأشخاص مثل بييرلات وماشيولى وشوستر وآخرين قرون استشعار؟

استقبلت مارجريت تاتشر رؤساء الوفود الغربية. كانت تريد أن تعرف إذا ما كنا سنشارك فى التحليل المتفائل لنتائج المؤتمر بالنسبة للمكاتب الخارجية. وقد استغلت ذلك لتطالبنا بالتسامح إزاء تمديد فترة اللقاء. حيث قالت بصوتها العاطفى المعبر إن مبادرة لندن ستصبح رمزًا للمكانة الاستثنائية التى سيتمتع بها جموع المواطنين فى أوروبا العظمى! ثم أضافت:"كنت دائماً أعرف أن السوفييت سينتهون يومًا ما. مثل قصر من ورق يسهل هدمه! ولكننى لم أتصور أبدًا أن مرحلة تاريخية كهذه ستتم على بعد مئات الياردات فقط من مكتبى! " .

فى محاولاتها القوية لتمجيدنا طمعًا فى إرضائنا جميعًا لم تمن على ماكس زورخر بابتسامة فضية من التى كان له دائمًا الحق فيها .

عند خروجه من "داونج ستريت" أوضح لى وارنر أنه تحدث مع مساعد (هانز موللر) الذى تولى نيابة عنه حتى نهاية المؤتمر. وكان قد دعا بحماس إلى الالتفاف حول مبادرة المؤتمر. فالعد التنازلى للوحدة قد بدأ وموظفو ألمانيا الشرقية هم أكبر المستفيدين بعد ذلك لأنهم سيتصرفون بطريقة صحيحة.

"لم يبقى سوى الرومان" هكذا لخص المسألة فى جملة واحدة. للأسف لم يولد بعد ذلك الذى سيكسر أنف هذا الحقير ميلسكو. الشارع هو فرصتنا الأخيرة فى الساعات القادمة!.

فى "داوننج ستريت" حلت "مينرفا" محل سفيرها حيث غادر هذا الأخير لندن فى اليوم نفسه المقرر مبدئيًا لإنهاء المؤتمر وكأن شيئًا لم يكن. إن "زيرمات"(*) شيء مقدس. تلك هى الجملة التى قالها

(*) زيرمات هى قرية سياحية صغيرة موجودة فى جنوب سويسرا على الحدود مع إيطاليا. تتميز زيرمات بموقعها ضمن جبال الألب. يقطن القرية أكثر من ٥٠٠٠ شخص و ترتفع أكثر من ١٦٠٠متر عن سطح البحر. زيرمات مشهورة بكونها إحدى منتجعات التزلج على المنحدرات الجليدية و يزورها عدد كبير من السياح فى فصل الشتاء لممارسة هذه الرياضة. وتشهد زيرمات حركة سياحية فى فصلى الربيع و الصيف أيضًا من محبى رياضة المشى لما تتمتع به من مناظر خلابة. قرية زيرمات لا تسمح لمواطنيها باستخدام المركبات التى تعمل على مشتقات البترول خوفًا من التلوث البيئى و تسمح فقط باستخدام وسائل النقل التى تعمل بالكهرباء. (المترجمة).

لى وهو يأخذ الإجازة. ومراعاة لتقدير ماجى، ارتدت معاونته ملابس أكثر حشمة من المعتاد ولكن تفاصيل جسدها كانت تتمايل فى تايير الأورجانزا الذى اختارته بشكل مثير جدًا. وكثيرًا ما أصابتنى الدهشة من نظرات "بات" إليها، والتى تشبه نظرات شخص ذليل برباط عنقه الأسود هذا الذى يرتديه دومًا.

همست لى ونحن مصطفون لأخذ إجازة ـ كأننا خارجون لتونا من مأتم" لقد اختار رابطة عنقه بعناية."

لن أعرف أبداً لماذا اتخذنى الاثنان كشاهد على قصة حبهما المحبطة. بلا شك لأنه يجب أن يكون هناك شهود فى الحياة لكى تستمر. جاءنى تليفون من رانكور؛ حيث لم أستطع أن أمنع نفسى من سماع صوته كما لو كنت طبيبا يستمع الى مريض.

قال لى: "لقد أحدثت إذاعة الـ بى. بى. سى ضجيجًا هائلاً بمؤتمركم هذا معدوم القيمة. فهم يقولون إنه مرحلة رئيسية فى آخر خط مستقيم قبل انتهاء الحرب الباردة" قالها عدة مرات قبل أن يضيف قائلا: "أتصور أنهم تلقوا تعليمات من المرأة الحديدية. وأتصور أيضا أنها أحاطت مركز المؤتمرات بأسلاك شائكة لمنع هروبك. قلت لك مرارًا تخلص من القيود بأسرع وقت ممكن. ولكنك لم تنصت لى ترومللين. تعتقد أنك كبير بما يكفى للسباحة وحدك. حسناً! فلنأخذ هدنة! أود أن أقول لك إننى سأغادر غداً لألحق بغابتى من أشجار عيد الميلاد فى قلب مسقط

رأسى بـ" فوسج"(١). و"الليـنى بلو(٢)" الذى كان آباؤنا يحبونه جداً ـ فلتتذكر أنك كنت تتواجد هناك دائماً على الرحب والسعة! حتى وأنت تصطحب هؤلاء الأشخاص غريبى الأطوار الذين كنت دائماً مولعاً بهم. سليت نفسى باستدعاء (كوريوليس) إلى مكتبى لأشكره على المسرحية التى قدمها لنا مع رفاقه. ولكنه كان متكلفاً جداً، فرغم أننى قدمت له التهانى على ما قام به إلا أنه هز رأسه بتحيات قصيرة كما لو كان على المسرح.

قال بأسى: "للأسف لم يكن لدينا الوقت لأن نعطى الكثير لمشهد المؤتمر الذى وجدنا أنفسنا مشاركين فيه. مع هذا كان موضوعا ثرياً لا يمكن تصديقه! هل تتصور أن تجد كمؤلف كل هذه الشخصيات تحت يديك! بدءاً من السفاح السوفيتى الأصلى وحتى القس الكوميدى مروراً بـ جميلة المؤخرة مينرفا والأرستقراطى البلجيكى المفلس لمع مكافأة من اثنين من المهرجين هيكى هذا الملاك الأبيض وميلسكو هذا الفارس الأسود. حتى كان هناك ممثلون لإخواننا الأصغر "ماركس" الرأسمالى "ليانكى" العائد إلى وضعه السابق فى (سان برنار) و(سيرأليك) تابع صاحبة السمو رئيسة الوزراء.

لقد حرضته أن يقدم العرض الذى كان يحلم به. والآن بعد سقوط حائط برلين فإنه هو ورفاقه

---

(١) فوسج : منطقة فى غرب فرنسا . (المترجمة).

(٢) الليـنى بلو: تعنى بالفرنسية الخط الأزرق، وهى خط إنتاج فرنسى للساعات والهدايا. (المترجمة).

يمكنهم بسهولة أن يقدموا هذه المسرحية فى كل مكان فى أوروبا. ولكنه بدا متشككًا فى فرص وجود المال أو حتى الجمهور :

قال متجهمًا. إننى أتساءل إذا كان كل شخص سيأخذ مكانه فى أوروبا فهل ستستمرالناس فى الاهتمام بالموضوعات الحقيقية . وكما كان يرغب أكدت له العكس قبل أن أتمنى له فرصة جيدة فى الخطاب الذى سيلقيه غدًا أخيراً أمام المؤتمر . خطابًا ينتظره الجميع كما اكدت له.

قال مبتهجًا: هل تعتقد هذا ؟

إرسال عشرين ألف جندى أمريكى إلى بنما فى عملية لها أسبابها ولا تزال الأحداث تتوالى.

رغم أن الليلة الأخيرة كانت تحت الدش إلا أن زوريكا سألتنى فجأة عن عباراتى الأولية فى الصربية والكرواتية. ولم أكن قد قلت لها إننى قد اشتريت "كاسيت" وأننى لا أسمع شيئًا من الترجمة الفورية المقدمة فى الجلسات. ببساطة كنت أرغب فى إبهارها وقد حدث ذلك فعلا. كما هى العادة دائمًا قدمت أفضل ما لديها عند ممارستنا للحب بجسدها المنتفض كنت مستعدًا أن أعطيها رأسى لتقطعها مما جعلها تصرخ بالفرنسية.

الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ الساعة ٨

أخذت هذه "الصحيفة" منذ الصباح لأتجنب هذا الهلع السخيف الذى اجتاحنى .

بحرفية شديدة أعدت زوريكا حقيبتها للسفر بوقار وتأثر شديدين. رغم أن طائرتها لن تغادر إلا فى نهاية المساء، ولكن كان يجب عليها أن تقضى جزءاً كبيراً من النهار "بوزارة الخارجية" حيث ستلتقى هناك مع أولئك الذى سيكونون مراسليها عندما تتولى مهامها فى "بلجراد"كمدير للشئون الأوروبية .

وفق ما أذيع فى الـ بى. بى. سى. فإن العديد من الجبهات من أجل سلام الوطن قد احتشدت فى بوخارست. هذه فرصتنا الحقيقية! فليتفاهموا سريعًا باسم الله ! ليس لديهم شك بأن (ماجى) ستبقينا هنا كرهائن ما لم ينجح مندوبهم فى لندن فى الحصول على تعليمات جديدة. لقد قالت ذلك فى خطابها الاحتفالى وسوف تقوله إذا قررت أن تجبرنا على الاحتفال برأس السنة على شواطئ التايمز.

جاءتنى مكالمة من ستسوكو منذ ذهابها إلى "رواسى" لتقول لى:"اهتم بنفسك واعمل! سوف أستغل إقامتى لكى أجد لك ناشرًا هناك انتظارًا للعثور على آخر لدى عودتى إلى باريس.

الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ الساعة ١٠

مررت كى أرى (كارلوس) فى مكتب الوفد المرافق له. كنا نخشى ألا يكون لدينا الوقت لنتكلم فيه وحدنا. ناقشنا مشروعاتنا الخاصة بالنسبة لإجازة رأس السنة وما بعدها. كنت متضايقًا لأننى لم أتكلم معه بعد فيما يخص توجهى نحو الشرق.

فى لحظة ما أطلق كارلوس لنفسه العنان. إنه هذا الشخص الذى لعب أدوارًا صغيرة فى العديد من الأفلام. ها هو يقول لى.

يعلم الله كم كنا مكتئبين من وجودنا هنا أنت وانا والآخرين كنا مسجونين لبضعة أسابيع حيث يتم نخر عظامنا الضامرة معًا. لايوقفنا عن ذلك سوى المؤتمرات الدولية فى الوقت الذى تنتهى فيه هذه المؤتمرات نشعر كما لو كنا انتهينا من تصوير فيلم سينمائى. إحساس كريه جداً وأثناء مرور الأيام، بدأ عالم صغير فى الوجود بطقوسه وأزمانه وعلاقاته التى لم تكن أبدًا تافهة بين أولئك الذين جمعتهم

الصدفة. وفجأة أنتهى كل شىء لن نلتقى ثانية أبدًا! فمن هذا العصر المتبدد سيتبقى فقط فيلم واحد. جيد أو ردىء أيا كانت جودته مادام لا أحد منهم سيستطيع مشاهدة الصور دون أن يربط بينها وبين ما عاشه. ونحن هنا لن نترك وراءنا ولا حتى فيلما واحداً. فقط عشرون صفحة لن يقرأها أحد . توقف لحظة ثم قال:

ومع ذلك مبادرتنا تستحق القراءة! انفجرنا فى الضحك وإن كان ليس من القلب ولكننا انتهينا بأننا ارتبطنا بالنص... ونحن الآن فهمنا أن السبرينجر والبييرلات والمطابع فى ألمانيا الشرقية" وكذلك آخرون سيقومون بأداء أعمالهم الصغيرة معا دون الالتفات إلى مبادرتنا والتى أعددناها مستفيدين من إحدى فجوات التاريخ حيث بدا فجأة كل شىء ممكنًا. أما الآن، فالأشياء الجادة ستأخذ حقها من جديد، ثم أضاف قائلا:

ـ ليس الأمر خطيراً فاليابان سوف تعدل لك مزاجك!

وهنا قررت أخيراً أن أحكى له عن (زوريكا) وعن بلجراد. فقال لى:

إننى سعيد جدًا لك ولكما أنتما ـ الاثنين ـ إنها رائعة. ولكن كن حريصاً وكما يقولون: إن الرصاصة مفقودة ليست كذلك إطلاقا بالنسبة لكل العالم! .

الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ الساعة ١٢,٣٠

استقررت فى مكانى فى تمام الساعة العاشرة والنصف بالضبط كما أبلغنى تيد أمس. تركت أغلب الوفود أحد مناوبيها فقط ومن بعيد ظهر شوستر بشكل عابر وفى حالة عصبية لم أعهده عليها من قبل فلقد أصابته مصادرة السلطة على يد الرئاسة الإنجليزية بغضب شديد .

وللمرة الأولى منذ جلسة الافتتاح تبدو المنصة الدبلوماسية مجهزة. أستراليون أو أرجنتينيون محبون لأوروبا. اليابانى الساخر من وظيفته وثلاثة أو أربعة أفارقه والكوبيون الذين لا مفر منهم. واضح جدًا أن رفيقنا الصينى مخلص فى وظيفته وقد لبس نظارته ليوم الأحد بغطائها الحديدى وزجاجها المضغوط.. وبهذه المناسبة فقد دعموه بزميلين؛ حيث تزود الثلاثة ببطاقة ذات غطاء أحمر توزع على أفراد السفارات الصينية. وبدءًا من الغد سيكون لبكين الحق فى موجة من المعلومات المنتظرة. وعلى هذه الأسس فإن الرحالة

المحليين سيكتبون مذكراتهم التى ألفوها والتى ينتظرها رؤساؤهم كى يطمئنوا. وكى يتفادوا الغرق الذى يحدث الآن فى الدول الشقيقة فى أوروبا .

وهذه المرة الأولى التى أحمل فيها معى كراستى التى أكتب فيها مذكراتى. بقصد تجنب الرعب المتوقع فى اليوم المعلن. سأرصده مباشرة! كلمة نظام وهى قتل الوقت. لف رقبته فى الاتجاه الصحيح حتى تنتهى هذه الحماقة!.

وهناك "ايبو" جبال "الكاربات". هنا هذه الهستيريا مع تاتشر. فى كل مكان هذه الروايات الشرقية الغربية التى لا تنتهى. وطائرة زوريكا التى سترحل خلال ساعات.

تحرك الرومان من على مقاعدهم. وبطريقة منظمة أودع سكرتير وفدهم (ديمتربو) رسائل على مكتب (ميلسكو). وبمزاج سيئ قام هذا الأخير بتصفحها ثم ألقاها فى سلة الأوراق. أحيانًا ترسل له رئيسة المؤتمر رسولا تجعله يصبح كالكلب فى الحال.

شىء واحد فقط هو المؤكد وهو أن الوضع لن يتضح فى (بوخارست). فالرسائل الرسمية للوكالة والتى ينتظرها أعضاء الوفود بفارغ الصبر لا تزال فى تخبط تام، إذ توجد صراعات متفرقة فى العاصمة وفى مدن كثيرة فى المحافظات، وهناك حديث عن آلاف الضحايا. فرجال الأمن وبعض عناصر الجيش يحاولون الإمساك بزمام الأمور. أما بالنسبة

لتشاوتشيسكو وزوجته فلقد غادرا أمس فى طائرة هيلكوبتر مقر اللجنة المركزية ويقول بعض المعلقين إنهما فعلا ذلك لكى يعودا إلى العاصمة بشكل افضل بعد إخماد الثورة.

ظلت معظم القاعة خالية. ولمن يهمهم الأمر فإن ممثلى المنظمات غير الحكومية يعيشون أجمل أيام حياتهم مع الخطب التى منحتها إياهم فجأة رئيسة المؤتمر رغبة منها فى تحريك الجلسة. وقد تتابعوا على المنصة بسعادة غامرة لإلقاء كلامهم المعسول .

تحدثت مع وارنر الجالس بعيدًا بمزاج سيئ على انفراد. قلت له الملاحظة التافهة، والتى تعنى له ان العام انتهى بتألق.

لصالح ألمانيا بالتأكيد. هكذا أجاب. بالنسبة لى كان الأمر معقدًا جدًا. وبدون أن أكلمهم قررت إخواتى ببلاهتهن بأننى سأكون يوم ١٢ ديسمبر فى ليبزيج"لإعادة توحيد العائلة"! فعمتى برتا أصغر عماتى عمرها ٩١ عامًا!هل تتصور! كان لدى مشروعات شخصية أخرى . فى الشمس سترى ما أريد أقوله. فأنا لا أعرف كيفية الخروج من هذه الغلطة.

جاهدت كما ينبغى بينما غرق هو ثانيًا فى أفكاره الكئيبة .

كان (فاشيلاف) يغط فى نوم عميق على كرسيه كما لو أن هذه الأشياء المشوشة لا تعنيه بالمرة. وقد احتفظ برقى مظهره بسبب ترحاله الدائم عبر

سنوات عمره. كان جالسًا بشكل مستقيم على كرسيه. يتنفس دون ضجيج أما أجفانه فكانت مغلقة تمامًا بخفة لدرجة إمكان تخيل أنها تعانى من التهاب خفيف. وفى إحدى مناقشاتى الحديثة معه فهمت أنه لا يفكر الآن سوى فى إيجاد طريق لمسقط رأسه.

ثم شرح لى بنظرة مشرقة قائلا: يكفى أننى فى نهاية المأدبة الكبرى فى بوردليه أو عند تاستفين استخلصت بعض المهارات اليدوية من زارعى العنب لديكم ستكون محل تقدير لدينا.. الجاسوسية البلغارية.

ثم انهى كلامه بطريقة لم تكن متوقعه :

ـ هذا لطيف فطفولتى أمامى !

تلقى (سيرأليك) أمرًا أن يطيل الأعمال حتى عشية عيد الميلاد إذا لزم الأمر، وكانت "مارجريت تاتشر"تأمل دائمًا فى قضية إيجابية تتيح لها أن تلقى بيان الختام الناجح الذى تعد له بعناية منذ أيام. بيان مهم جدًا بالنسبة لها؛ لأن ميزانيتها الداخلية سنة ١٩٨٩م مقلقة ولذلك سينتهز كثير من أصدقائها المقربين فى الحزب الفرصة لكى يؤازروها. ولكى تنفى فكرة انتقالها المتوقع ـ منذ وقت طويل ـ إلى كندا فيجب أن تولى أهمية مقدسة لاجتماعنا ! فإذا ظهر أن مبادرتنا يمكن أن تحصل على الإجماع فإنها ستحث خطاها إلى مركز المؤتمرات .

استغل (تيدجاريسون) الهدوء الذى أحاط بنا ليوضح لى كل شىء بالتفصيل عن المطبخ الداخلى.

آخذًا فى الاعتبار شكل العلاقات السيئة مع (سيرأليك) ـ فلقد تنازل نهائيًا عن تعيينه فى موسكو وهو يشعر أنه أفلت من واجبه برعايتى. أضاف قائلا لحسن الحظ أنك ستذهب إلى طوكيو وسيبدو (كارلوس) متأكدًا من وجوده فى بكين. وعمومًا فإن أخبار الجهة الأخرى جيدة!.

فضلت ألا أتكلم معه عن مشروعاتى .

ومثل البعض الآخر فقد تأكدت من غياب (هارى ماكس) . وعند الاستفسار عنه فإن نائبه قد أهدانى ابتسامة مثيرة قليلاً. وفقًا لما قاله له الأطباء فى بداية هذا الصباح فإن غيابه لايمكن أن يكون محل نقاش.

الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ الساعة ١٥,٥٠

صدفة سيئة تلك التى حدثت عندما تولى كوريوليس إلقاء كلمة باسم "ممثلين بلا حدود" فى اللحظة نفسها التى ظهر فيها ديمتريو الصغير فى الصالة حيث كان هذا الأخير مبتهجًا لدرجة أننا سمعنا بشكل واضح ما همس به فى أذن رئيسه ميلسكو: إذ قال له (تشاوشيسكو على قيد الحياة وبوخارست على التليفون أنه أمر مهم جدًا: نهض ميلسكو حيث كان شاحب الوجه كالأموات بينما جسده الثقيل يتجه نحو باب الخروج وهو يتمايل..

كان أسوأ من معرفة كورووليوس هو تصورنا أن ما حدث قد يعيقه عن استكمال خطابه، الذى أعده بقدر كبير من الحب حتى النهاية. فبمجرد انتشار خبر مكالمة ميلسكو مع بوخارست حتى بدأ أعضاء الوفود فى العودة إلى أماكنهم رويدًا رويدًا. وأخيراً بدأنا نشعر بقرب نهاية هذا المؤتمر، الذى لا نهاية له. أصبحت فكرة وجود المبادرة من عدمه هى أصغر

هموم المشاركين. فباقى ثلاثة أيام على الكريسماس.

انتهت المسألة قبل أن يأتينى فاسك للبحث عنى فى مكانى؛ حيث أخذنى حتى المنصات المحجوزة للجمهور؛ حيث كانت الأجواء خاوية. وبصوت مكسور همس لى قائلاً :

لا أعتقد أن ماقلناه قبل ذلك كان جيداً. إننى أعيد تدبر أمرى من جديد بعدما اتصل بى أحد أصدقائى القدامى عندما طلب منه أحد رفاقه والذى كنت أدرس معه فى الحزب أن أعمل معه؛ حيث إنه يدير حاليًا أحد الاتحادات الزراعية بسلوفاكيا. فهو فى طريقه للتقدم بمشروع غربى كبير فى القطاع ويحتاج معه بشكل عاجل لشخص موثوق فيه يتحدث عدة لغات ومعتاد على المفاوضات الدولية. ثم استكمل قائلا: "فى هذا الكيان المختلط الذى سنصعد إليه معكم لست بحاجة لأن أقول لك إننا سندخر أنا وأنت جزءًا كبيرًا من رأس المال." قال ذلك بثقة. أفهمت. هو هذا، أنا، لدى.. كيف تقولونها أنتم بلغتكم الجميلة؟ نعم: "لقد أرسلته". ولكن خلال بضعة أشهر، عندما يأتى الجدد سيطردوننى من الوزارة وسأكرر على مسامعى أننى كنت غبيًا .

علت وجهه ابتسامة حزينة ثم قال:

هذا شأنى ـ بالتأكيد! ما كنت أريده فقط هو أن أؤكد لك أن كل شىء سيمر سريعًا الآن وحتى النهاية

فى (براج) كما فى غيرها... أرفع أجنحتك منتصراً! حسناً. لقد حان الوقت كى أقول لك إلى اللقاء على شواطئ التاميز. إلى اللقاء من أجل الختام!.

وأنا جالس فى مقعدى من جديد. كان لورو كالعادة يجرى فى كل اتجاه حاملا بزهو بقايا المعلومات المتضاربة. استفادت كلودين بشكل هادئ من توتر الأعصاب السائد، وبلغ بها الأمر أن أبعدت المسكين كوجلمان الذى كان قد أتى مع ذيوع الأخبار الجديدة.

اقترب مالفيتش منى قائلا بصوت خفيض وبمزاج أقل حدة من العادى: يبدو أن خدماتنا ستعمل بشكل ما لجعل نوابغ الفكر فى الكاريات يعملون على تغيير الواقع. ولكنهم لن يضمنوا سير العمل بشكل جيد قبل هذه الليلة الكى. جى. بى. لم يعد كما كان نهائيًا.

رسم ابتسامة خفيفة ثم أضاف:

يجب أن أرحل بطائرة موسكو الأخيرة. فقد دعا (جورباتشوف) عالمه الصغير إلى اجتماع غدًا صباحًا بالكريملين لتحديد الصعوبات الصغيرة التى ستواجهنا بداية هذا الشتاء. فالمحلات فارغة والتمرد فى الجمهوريات والمؤامرات فى أروقة الحزب والوزارات . صحيح يتم فقده حتى الآن ولكن شيئًا واحدًا مؤكد وهو أننا لن نعود الى نقطة التوقف! حسنًا أمل أن نرى بعضنا البعض مرة أخرى فى

باريس أو عندى! فى انتظار أن يرعانا الله ـ أنا وأنت والآخرون! صيغة لا أستعملها كى أسعد الرب الذى أنكره. وإنما فقط لكى أحرج هذا المسكين سخاروف الذى أعشق عبارته هذه.

"لإعطاء فرص للحريات المستعادة يجب علينا أن نستفيد من كل ثانية". عانقنى وذهب ليلحق بوفد الاباراتشيك المستعدين لإطلاعه على كل شىء .

قرر(ميلسكو) ألا يعود فى ظل هذه الجلبة حيث يتتابع ممثلو منظمات المجموعات الصغيرة على المنصة لتقديم طرقهم البارعة التى تفضى فى النهاية بتقسيم أوروبا إلى جزءين.

على مقعد الرئاسة كان"جاريسون" رابط الجأش كعادته، ولكنه لم يستطع أن يخفى ضيقه إذ كان لديه شعور أنه لم يعد يسيطر على الوضع نهائيًا. لابد أنه يعيد النظر حتمًا فى تعيينه غير الموفق فى موسكو. الكل يحلم بحياة...... ولعدم تنظيم الأمور تصور السيرأليك الذى يجب أن يكون على اتصال تليفونى دائم مع (ماجى) أنه مضطر للظهور عدة مرات سريعًا فى القاعة. التفت لحظة ثم همس بثلاث عبارات فى أذنه ثم هرب. و قد فعل (ماركوس شوستر) الشىء نفسه. أعتقد أن (شوستر) الذى تجعله الظروف يفقد ابتسامته الدائمة يكرر على (جاريسون) أن "المؤتمر" فى طريقه إلى كارثة .

وفجأة ظهرت زوريكا وبهدوء شديد اتجهت نحو مكانها، وهى لا تتوقع أن شيئًا قد جرى. ولكن

مساعدها أبلغها بكل ما حدث . وبدا عليها أنها لم تقتنع بذلك. حينئذ اتجهت لى أخيرًا ومع ابتسامة رقيقة جدًا برزت على شفتيها الرقيقتين . وبدون استعجال قامت . لم أنتظر الخمس دقائق المعتادين كى أفعل مثلها .

وفى البار تبادلنا بعض العبارات البسيطة عن النهاية غير المحتملة للمؤتمر كان محدثوها من مكتب الخارجية قد أعطوها بيانات متضاربة عن الوضع فى "بوخارست" . والحقيقة. أنه بالنسبة لنا. فى هذه اللحظة الدقيقة. جملة واحدة فقط هى التى لها معنى. (سراييفو) فى ٣١ ديسمبر، فالطائرة ستصل من (ميونخ) فى بداية الظهيرة. عدنا إلى أماكننا مرة أخرى بعد انتهاء الضجة بالقاعة.

كانت أوراق كراسة المدرسة مطوية إلى أربعة أجزاء على مائدتى بها كلمة وداع من (كوريوليس)، فهو مضطر أن يكون جاهزًا غدًا "فى الفجر" للعودة إلى عمله بمرسيليا مرة أخرى حيث لم يستطع أن يمنع نفسه من الكتابة. فجاءت هذه الكلمات: كن سعيدًا، اعمل ولكن أيضًا استمتع.

الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ الساعة ١٦,٣٠

ترك (ميلسكو) مكتبه.. استقل ميلسكو المصعد .. وصل ميلسكو... فجأة ظهر ظله الضخم عبر أحد الأبواب متحركًا عكس اتجاه الضوء. مما أزعج المتحدث الذى كان يلقى كلمته فى هذا التوقيت لدرجة أنه سرعان ما قطع عبارته ولملم أوراقه سريعًا وذهب. وفى تلك اللحظة عم صمت مطبق. وبخطى ثقيلة مهزوزة كان الرومانى يعود إلى مكانه. بدا وجهه شاحبًا أكثر مما مضى.

بدت النظرات المصوبة إليه وكأنها تعريه ربما بسبب حالة اليأس المطلق التى يعانى منها. أكيد. ولكن هل يستلزم ذلك أن يقول "لا" مرة أخرى لكل الوفود؟

أم على العكس سيتسبب رعبه فى جعله يتلفظ بكلمة نعم فى ظل نظام عالمى جديد سيبدؤه فى الساعات القادمة ؟

لا بدون مشكلات. اندس ميلسكو بين مساعديه وارتمى على مقعده حيث ظل لفترة طويلة قابعًا بلا

حراك خلف جدار الأوراق التى رتبها هذا الصباح. لم يعد فى حاجة لأن تعطيه الرئاسة الكلمة بما أنها بالطبع تخصه بشكل واضح. وفجأة تقترب رأسه الضخمة من الميكروفون وصرخ بملء فمه قائلا" بالرومانية داااااا" اى نعم.

لقد فقد (ميلسكو) فى هذه اللحظة السيطرة على نفسه نهائيًا، فللمرة الأولى منذ افتتاح المؤتمر يستخدم لغته الأم. وتحديدًا هذه الكلمة دااا التى استخدمها بكل دقة، والتى ستمثل غصة فى قلب كل رومانى عريق.

هل سيكون اللفظ دااا هو صافرة نهاية الحرب الباردة التى أعلنها جورباتشوف فى مالطة؟ قد يكون ذلك منطقيًا بعد كل هذا طالما أن العقود الأربعة من المواجهة بين الشرق والغرب قد وضعت تحت إشارة "نيات" عاد إلى ماجى بعد لحظة من إعطائنا إجابة شافية.

أنهت باخرتنا البيضاء جولتها وأصبح الآن بإمكاننا النزول إلى الأرض دون أن نعرف على أى شاطئ نحن.

أتصور أنه لحظة بلحظة كانت المرأة الحديدية تتابع المرحلة الأخيرة من رحلتنا البحرية، حيث بدت فى الحال تميل إلى السعادة بانتهاء الأحداث. وفى الطريق إلى "داوننج ستريت" كان عليها أن تستمتع مقدما بأحاديث الختام التى ستفرض علينا سماعها

لأننا موجودون هنا بالفعل، ولكن أيضًا على وسائل الإعلام بكل تأكيد. وعلى الشخص الوحيد الذى يهمه التاريخ حقًا. التاريخ الذى اختار فى نهاية ظهيرة هذا اليوم أن يتوقف هنا على شواطئ "التايمز".

الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ الساعة ١٧,٤٠

تكرمت السيدة مارجريت تاتشر أخيرًا بدخول القاعة متبوعة بالسير أليك الذى لا مثيل له. بوثبة واحدة وقف جميع الحضور فى القاعة فى الوقت الذى أخذت فيه رئيسة الوزراء وقتها لكى تصل إلى منضدة الرئاسة. وقبل أن تجلس صافحت شوستر بحرارة، والذى وجد أنها فرصته لكى يظهر فى المكان والتوقيت المناسبين. وبطريقة نبيلة دعتنا للجلوس. وببعض العبارات الرنانة قدم لها (سيرأليك) نبذة عن أعمالنا والنهايات الرائعة التى وضعوها بينما هى تهز رأسها من وقت لآخر كعلامة على الرضا .

ختم هو الحديث قائلا: "بعد إذن سيدتى رئيسة الوزراء لقد جاء الوقت لكى نعلن ختام مؤتمرنا."هذا المؤتمر الذى أستطيع أن أقول إنه أوجد حدثًا مهمًا فى تاريخ مؤتمر السلم والتعاون الأوروبى وكذلك فى تاريخ أوروبا كلها.

بعد هذا الإجراء التنويمى اللازم لمثل هذه الظروف اتجهت المرأة الحديدية إلى المنصة. وللحظة تركت دوى التصفيق يتصاعد قبل أن تقرر البدء فى خطابها .

كان لنا الحق فى أن يتم الثناء علينا لهذا العمل التاريخى الذى أنجزناه خلال شهرين ونصف الشهر. ولكن يبدو أن هذا الثناء كان ينتزع معه أحشاءها لدى التلفظ به، ولكن فى النهاية قالته بلا تردد فى إطار الجو العام للشكر والثناء. هذا الثناء يمثل لها ضريبة دفعتها مقابل جدارتنا. انتقلت إلى الدفاع عن أحداث فى طريقها للوقوع مثل الموافقة بالإجماع على "المبادرة" الرسمية التى ستنظم حرية المعلومات من مجموعتين من البلاد التى كانت تتعارض طوال أربعين سنة .

لقد استطاعت إيجاد التحليقات الوجدانية التى تفرض نفسها للدخول فى هذه الحقبة الجديدة التى بدأت. تأكدت بنفسى أن الوطنية نفسها والابتسامة التى تعلو الشفاه قد أصابتا سير أليك وتيد جاريسون الشكل نفسه جنبًا إلى جنب. ربما لم تكن موسكو أهلا بـ"تيد" .

وبعد سيداتى سادتى أعضاء الوفود لقد عشت أنا وأنتم هذه اللحظة الفارقة: لقد وقع ما أسماه سلفى المشهور السير ونستون تشرشل العدو اللدود للبروليتارية النازية ما أسماه بحق الستار الحديدى.

"وقع". كررت هذه الكلمة ولم تستطع أن تمتنع عن الاستطراد مع هذا التعبير قائلة: "لقد وقع كقصر من ورق!" وتذكرت أنها استخدمت هذا التشبيه نفسه عندما استقبلتنا أمس فى لجنة مصغرة. أصابتها الحيرة بشكل كوميدى مما جعلها تتوقف فجأة بعد تسمر وجهها. لتقول بعد ذلك بنغمة أعلى :

لقد تحول المؤتمر الأخير للحرب الباردة إلى لقاء أول لأوروبا التى استرددناها.

تصورنا أنها انطلقت فى خطبة مسهبة لا نهاية لها عن هذا الأمر تحديدًا. ولكنها أكدت فجأة أنها قامت بما يكفى كى تصبح فى الصفحة الأولى من صحف الغد. وتشعبت نحو خاتمة الكلام التى كنا فى انتظارها جميعًا مثل الكاثوليك قبل نهاية القداس.

عادت الحرية لتسطع فى قارتنا و نحن فى ٢٣ ديسمبر فى ظل البرلمان الأقدم فى العالم. فلتحيا الحرية.

تقليدًا للوفد البريطانى قمنا جميعًا كرجل واحد قائلين: "فلتحيا الحرية"!.

كررناها ثلاث مرات ولاحظت مثلما لاحظ العالم كله أن"ميلسكو" الضخم كان يصرخ بقوة وحمرة الحماس تعلوه أكثر من الباقين. كان رانكور على حق عندما قال إن العرقية هى الشىء الوحيد الذى لن تتنازل عنه الآلهة أبدًا.

لندن يوم السبت ٢٣ ديسمبر ١٩٨٩ الساعة ٣٠,٠٠

اختفت زوريكا. لا خوف من ذلك ففى يوم ٣١ ستحط طائرة ميونخ فى سراييفو فى بداية ما بعد الظهيرة . وأثناء الانتظار سوف أذهب إلى الخط الأزرق بمنطقة فوج بفرنسا فى غابة أشجار الكريسماس التى يحرسها رانكور.

باريس يوم السبت ٢٣ ديسمبر ١٩٨٩ الساعة ٢٣,٠٠

فى الصباح الباكر فى صالة الطعام فى "كارلتون" حيث تناولنا وجبة الإفطار جنبًا إلى جنب وجهًا لوجه ظهرًا لظهر وأنا نسيت ذلك! وقلنا لبعضنا: إلى اللقاء.

ليس بدون بعض التخمينات! أننا لو أجرينا تحليلا باردًا للموقف، فلن يكون هناك سوى هذا العجوز الصينى لكارلوس الذى أستطيع أن أحتفظ معه بالعلاقات. ربما تلاقى عند الحاجة مع وارنر وتيد. صاحبى الجدد ماركس و هيكى ليسا على استعداد لأن يموتا وهما فى سن الشباب فى هذه الدنيا. وبالنسبة للآخرين ـ باستثناء الصدف غير المحتملة نهائيًا ـ فإنهم سيختفون إلى الأبد من أفقى. وباستثناء ايفا بنجستون فإن بلجراد شىء حتمى. موقف مختلط تماماً حيث تم عمل حساب كل شىء على هذا البحر المثير. فنحن لم نكن طاقم بحارة سيئًا .

جاء شوستر إلينا بالكاد لكى يودعنا بعد عودة ابتسامته الدائمة إليه. قال لنا إن مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى يجب أن يعتاد على العيش بشكل مختلف. أقل فى الشدة وأكثر فى الابتكار" الصيغة بدت له بليغة فى أن يخرجها ويعيد إخراجها بكل اللغات المعمول بها فى المؤتمر.

قال عدة مرات إنه لم يقلق فالمنظمة وجدت جميع تأثيراتها بشكل طبيعى تمامًا فى البيئة الأوروبية الجديدة .

لا يمكن إنكار أنه بالنسبة للأغلبية لن تكون هناك فرصة يمكن أن تدمجنا مع كل هذه القصص.

أعتقد أننا جميعًا أعجبنا برقة سيرأليك الذى فضل ألا يأتى ليقول لنا وداعاً. فغيابه لم يقلل من حرارة اللحظات الأخيرة التى قضيناها معاً .

وفى لحظة جذبنى وارنر من ذراعى وعهد الىَّ بالأمر على سبيل السر. إذ قال لى إن مسئولى المصالح البريطانية هم الذين نظموا الاتصال الهاتفى لميلسكو مع ممثلى جبهة وهمية للتحرير القومى، حيث تلقى المندوب الرومانى تعليمات بأن يحشد الجميع فورا من أجل المبادرة وإلا سيسببون له المتاعب. وفى هذه البيئة المضطربة كان كل شىء جائزًا. فلو أن تشاوشيسكو خاطر بإعادة الظهور فسوف يجد فى رأسه شئونًا اكثر أهمية من أن يعود فى ظل هذا الاتفاق المثير للسخرية.

ظهر كراتويسكى متأخرًا ـ كعادته ـ برباط عنقه الأزرق الذى يذكرنا بمريم العذراء، والذى شده بقوة إلى عنقه. ونحن فى راحتنا التامة فى عالمنا الصغير هذا شرع كراتويسكى فى عناقنا جميعًا. دون تفكير فى شىء سيئ أسر لى أنه تحدث مساء أمس فى التليفون مع القس ماشيولى وكما كان هذا الأخير يتمنى فإن دائرة الوزارة البابوية بالفاتيكان عهدت إليه بسفارتها فى يوغوسلافيا.

صاح بدهاء ساخرًا: "لن يكون هذا مبهجا لصديقتنا "زوريكا" التى لن تستطيع احتماله. إنه أشد ألمًا بالنسبة للنساء، ولكن يجب القول إنه من بعض النواحى فإنها ظلت شيوعية بشكل مرعب.

وأنا نفسى لم أشأ أن أضربها على رأسها عندما ناصبوا الإكليروس(*) العداء قبل ماركس. ويجب الاستمرار طويلا بعد هذا الاختفاء فى مزابل التاريخ هذه حيث أراد أن يضع تاريخه.

(*) الإكليروس: هو النظام الكهنوتى الخاص بالكنائس المسيحية ولم يظهر هذا النظام إلا فى القرن الثالث الميلادى وتتفق الكنيسة الكاثوليكية مع الكنائس الأرثوذكسية فى درجات النظام الكهنوتى إلا أن البابا فى الكنيسة الكاثوليكية يتمتع أعلى من نظيره فى الكنيسة الأرثوذكسية . أما البروتستانت فلا يعترفون إلا بدرجتين فقط من درجات هذا النظام وهما: (القس والشماس) فى الكنيسة البروتستانتية حيث يمتنه رجال الإكليروس بسلطات فى الكاثوليكية عن الحقوق الزوجية التى يترتب على مخالفتها العقوبات الصارمة بينما لا تعترف الكنيسة البروتستانتية بذلك أما فى الكنيسة الأرثوذكسية القبطية فيحظر الزواج على البطريرك والراهب فقط . (المترجمة).

حدثنى هذا الصباح عن زوريكا! ولكننى أشحت بوجهى دون أن أرضيه بابتسامة صارمة خاصة بمثل هذه الظروف .

بدا تيد جاريسون فى مظهر أنيق جداً ببلوفره الكشمير الأحمر كان يذهب من واحد لآخر موجداً كلمة يلقيها لكل واحد . أكد لنا أن (ماجى) تسبح فى السعادة بعد النهاية السعيدة لمغامرتنا . وعلى الرغم من احتفائها المعلن للقفزات الدبلوماسية إلا أنها كانت دائمًا تفضل السياسة العظمى على التقلبات السياسية البائسة.

وبحمرة الخجل أنهى تيد كلامه قائلا لنا: إنها جاءته للتعرف عليه بواسطة "سيرأليك" اعترافاً منها بخدماته الجليلة والمخلصة خلال المؤتمر، وأنها على استعداد لتوقيع مذكرة تعيينه فى موسكو. اكتشفنا ونحن نهنئه أن الوقت يمر بشكل خطير .

"عيد ميلاد سعيد" هكذا صحنا جميعًا فى صوت واحد قبل أن تبتلعنا السيارات التى كانت بانتظارنا أمام الفندق.

الخاتمة

قتل جون بيار ترومللين برصاصة سريعة أفقدتنا إياه. كان فى طريقه لعبور حاجز عسكرى فى الطريق المؤدى إلى كارلوفاك بلجيبلانجا. كان ذلك يوم ٢٧ يونيو ١٩٩١، وبالتالى لم تكن فكرة جيدة أن يتواجد فى هذا الركن بعد ساعات من إعلان استقلال سلوفانيا. كان يقود سيارة مؤجرة، ولكن أوراقه لم تخف أنه كان سفير فرنسا فى يوغوسلافيا. من هنا وبالنسبة لجنود ثائرين تصوروا أنها دسيسة....عاقبة وخيمة ومؤسفة أنهت لجنة التحقيق. وبشكل موضوعى كان لديها بلا شك أسبابها.

سافر ترومللين إلى بلجراد فى أغسطس ١٩٩٠حيث قدم أوراق اعتماده إلى رئيس الفيدرالية يوم ٢٢ سبتمبر. وقد حضرت زوريكا بيلافيك مسئولة الملف الأوروبى للشئون الخارجية الاحتفال. وذات صباح جميل طارت إلى ليجيبلانجا مسقط رأسها. كانت يوغوسلافيا تتفكك يوميًا بشكل أكبر قليلا من

اليوم الذى قبله، وكان مواطنوها قد كلفوها بإنشاء وزارة سلوفينية للشئون الخارجية أملا فى الاستقلال المنتظر حتميًا على أن يتم ذلك فى سرية تامة.

وقد حدث أكثر من مرة أن اتفق كل من ترومللين وزوريكا على الالتقاء فى أماكن سرية. وكان كل المراقبين يعلنون أن الاستقلال سيكون فى منتصف يوليو. وكان الفرنسى من جانبه يرغب ـ بلا شك ـ فى الاستفادة بواحدة من نهايات الأسبوع الأخيرة الهادئة هذه لرؤية التى أحبها قبل أن تتسبب الحدود والحرب غالبًا فى إبعادهما من أجل شىء جيد. وهنا كانت المأساة.

على مدار المؤتمر كان ترومللين يشعر بأنه متشائم لا أدرى من أى شىء ولذلك كتب هذه المذكرات. لقد كتب أول سطر فيها يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٨٩ ونحن فى أوج الحرب الباردة. وبعد عشرة أسابيع تقريبًا عندما حلت نهايتها سقط الحائط والستار الحديدى. وباستثناء جورباتشوف فلقد اختفى كل الزعماء الاشتراكيين والديمقراطيات الشعبية.

يعتبر هذا الكتاب بمثابة معالجة. فشهادة ترومللين تسمح بتتبع يومًا بيوم آثار الاضطرابات التى هزت الكوكب. إن نشر هذه المذكرات يسمح ـ كما نأمل ـ فى المحافظة على ذكريات تحول التاريخ؛ لأن كل ما يذكر الرجال بأن القصة لم تنته أبدًا يستحق أن يظل حيًا فى جماجمهم.

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفو.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالفينو» رواية (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى» رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «اسحق باشيفتس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُسّتلُّو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريچيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيللا».. قصص.. جائزة بيربياروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. ر واية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «انجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم ما.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

الرواية

فى لندن ترسو باخرة كبيرة ناصعة البياض، لَمْ تُصنعْ لكى تُبحرَ على الإطلاق، وإنما لكى يستقلَها المشاركون فى أحد المؤتمرات، الذى يلتقى فيه الغرب والشرق لمدة أسابيع قبيل انهيار سور برلين عام ١٩٨٩.

استعان "مارك بروسون" فى مؤتمره الأخير بخبرته الدبلوماسية ليؤكد لنا أن هذا المبنى المُصمم على هيئة سفينة ساكنة سيتحول شيئاً فشيئاً إلى سفينة شراعية للمجانين، وتؤكد المَشاهدُ على طول الرواية أن السفينة تنحرف يميناً تارةً ويساراً تارة أخرى، ولكنها مع نهاية الرواية سترسو على أحد الموانئ بالتأكيد، ولكن لا يستطيعُ أحدٌ أن يتكهنَ أين سترسو؟!.

الروائى: الروائى الفرنسى مارك بروسون.
الجائزة: جائزة الأكاديمية الفرنسية للرواية عام ٢٠٠٨.





الهيئة المصر...


ISBN# 9789774216424
6 221149 018969

١٠ جنيهات